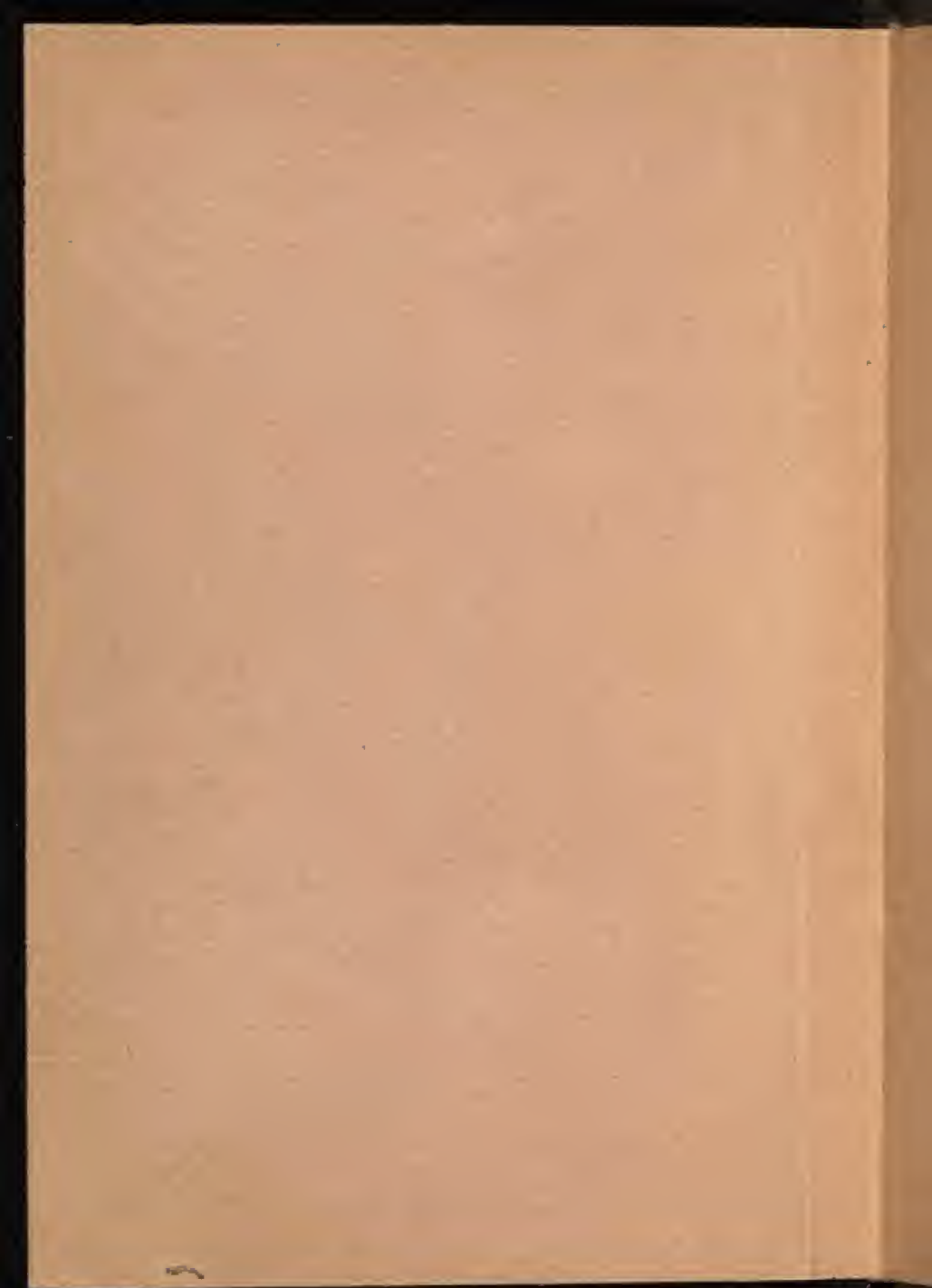
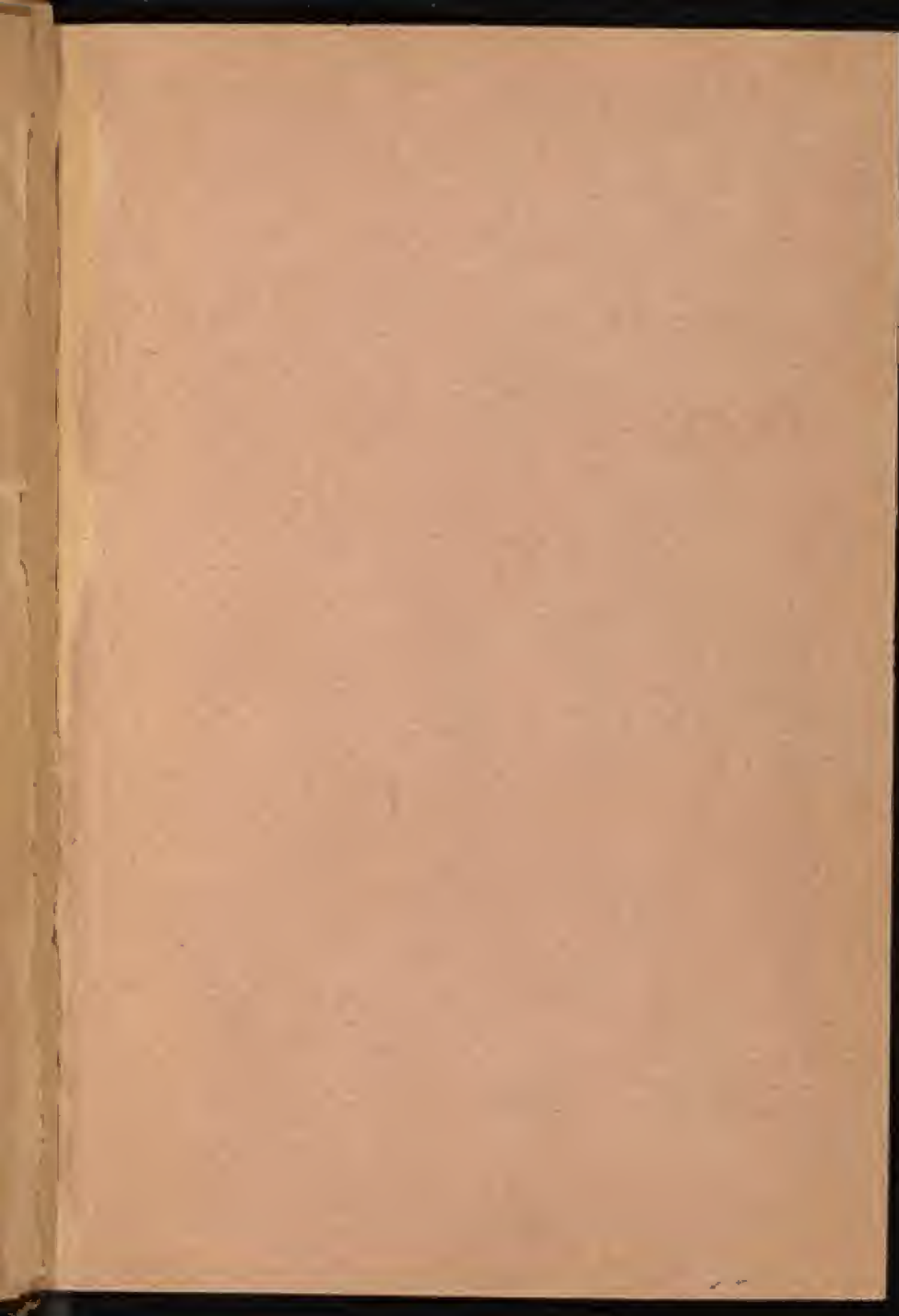


893.785

J95

AUG 1 1957





الكتاب المجمع

جامعة القاهرة

والنقل عنها وتأثر العقل العربي بعلومها



القاهرة ١٩٤٤

893.785

595

Vol 15, 1955
SB

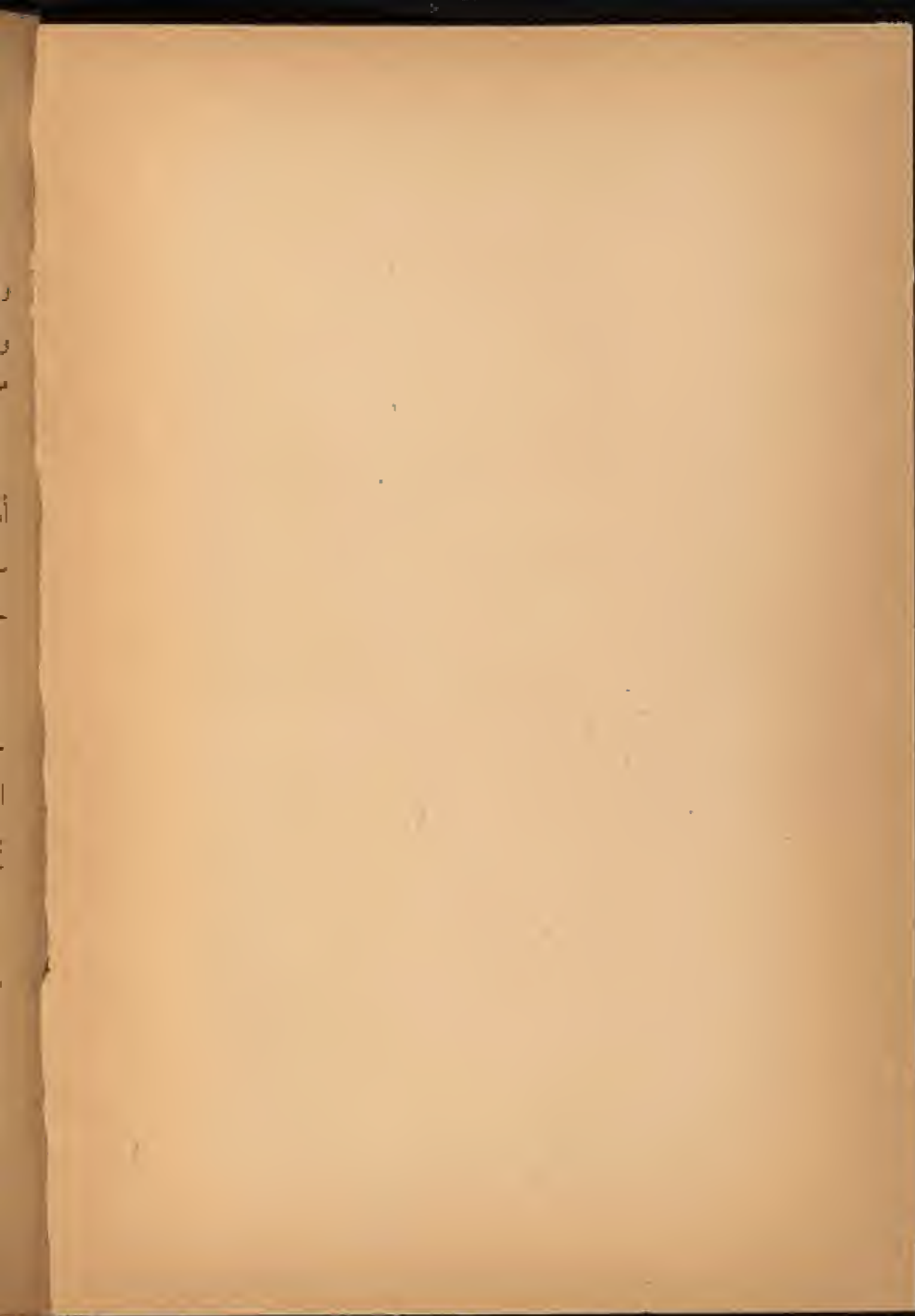
١٥-١٩٥٥
٥٥

إلى المربية المخالدة

مدينة الفاروس والمتحف والمكتبة

مدينة الهداية والعلم والمعرفة

إلى الاسكندرية



تمهيد

المتحف الاسكندري بكافة

ظلت «أثينا» كعبة الفنون، ومستقر الثقافة زمنا طويلا قبل الميلاد وبعده، وبقيت مدارسها عامرة بالعلم والفلسفة حتى عام ٥٢٩ للميلاد، وقدّر بهذا لعاصمة اليونان أن تحمل لواء العلم في العالم القديم أكثر من عشرة قرون.

وكان الأمازيغ منذ زمن بعيد قبل ظهور «الاسكندر»، قد أدركوا بلاد الشرق الأدنى مشغولين بالتجارة، أو منخرطين في سلك جنيوشه جنوداً مرتزقة، أو مضطربين ببعض الوظائف في حكوماته، أو خدافا للفنون يمارسونها في أنحائه مأجورين عليها.

وما أن سطع نجم مقدونيا، وغزا «الاسكندر» بلاد الشرق القريب، حتى أزعج الملك الفتي أن يحقق فيها تلك السياسة التي رسمها لتخصيرها ونشر الثقافة اليونانية بين ربوعها، غير أن الملك الطموح عاجلته المنية قبل أن يجني الثمرة التي بذر بذورها قوية مأمولة النماء في أرض الهلال الخصيب.

وأنتج الغزو المقدوني نتائج المرحجة في نواحي السياسة، والعلم والأعراف واللغة والفنون — فتأثرت مواطن الحضارات القديمة تأثراً محسوساً بالنظم الهلينية، وبثقافة اليونان وعاداتهم وفنونهم، ولغتهم. ولم يضعف من شأن هذه المؤثرات ويحد من أطرافها، إلا موت الملك الفتي، وانقسام ملكه بين قواده.

وانعطف تيار الثقافة رغم ذلك نحو مصر، وهذا فيها واستكن في

والاسكندرية. — المدينة التي أسسها الاسكندر على حافة أرض الفراعنة، لتكون عاصمة للمملكة المنتشرة، ومستقراً للثقافة التي حمل لواءها في البلاد المغزوة.

وقدر لبطليموس، صديق الاسكندر، وأحد قواده العظام، أن يحكم مصر مستقلاً بها على نحو ما كان يحكمها الفراعنة. ولقد كان القائد الذي انتهت اليه مقاليد الأمور في مصر، مشبعاً بمثل سيده بآراء وأرسطوه — لا يقل رغبة وحماساً عن الاسكندر في بث الروح الهلينية والثقافة الاغريقية في البلاد التي آلت مقاليدها اليه.

وقد كان لبطليموس، فوق ما انصف به من المقدرة الحربية، عقلاً راجحاً وفكرًا منظمًا، يحب البحث العلمي، كلفا بآراء الفلاسفة اليونان، محباً للتاريخ، مصنفًا فيه. ويعتبر «بطليموس الاول» المعروف باسم «بطليموس سوتر» أول مقرر لنظام المنح العلمية، تشجيعاً للعلماء على البحث والانتاج. وهو متأثر في هذا بما كان يراه من سيده الاسكندر، من مد استاذة وأرسطوه، بالمال اللازم لمواصلة أبحاثه وجهوده العلمية.

لهذا أنشأ بطليموس الاول في الاسكندرية، بعد أن خلا من شواغل الحرب والسياسة، مؤسسة علمية، وهما آلهة الشعر (Muses) أطلق عليها مؤسسوها من اليونان اسم «الموسيون» Μουσέων بمعنى «المتحف»، ومنه اشتق اسم «الموزيوم» Museum و«الموزيه» Musée، بمعنى دار التحف أو دار الحكمة (١).

(١) في كلمة muse الإنجليزية معاني التأمل والدراسة الصامتة وإعمال الغرائف

وهكذا كان المتحف الاسكندري ، أكاديمية ، تشبه الاكاديميات
الآثينية، زودها بطليموس الاول بنقر من خيرة الاساتذة اليونان، يذكر
« بليوتارخ » أنه استدعاهم من بلادهم ، وحسب إليهم الإقامة في عاصمة مملكته ،
وقربهم منه ، وبمعيونة مستشاره « ديمتريوس الفاليري » (١) استطاع « سوتر »
أن ينشئ « الأكاديمية » الاسكندرية ، وأن يزودها بمكتبة كبرى .

وقد كان حرص « سوتر » على جعل الاسكندرية كعبة العلوم
والفنون ، لا يقل عن حرصه على تركيز تجارة البحر الابيض المتوسط
فيها — فنذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، أنشئت بالاسكندرية
« أكاديمية » علمية أشبه شئ . بالمحفل ، يجتمع فيه العلماء يتجادلون
ويتناظرون في أروقته ، وفي المكتبة الملحقة به ، يشهد جدلهم ،
ويستمع اليه ، العاهل الذي أسس الأكاديمية ، ونفر من خاصة القوم ،
أغرم بالدراسة والبحث والمناظرة . ويذهب المؤرخ الألماني
« كلبل » Klippel إلى أن المؤسسة العلمية التي قامت بالاسكندرية في
الحلقات الاولى من القرن الثالث قبل الميلاد ، ليست في جملتها
وتفاصيلها إلا صورة من « الأكاديمية » الآثينية .

ويعتبر « سترابو » المكتبة التي أنشأها « ديمتريوس الفاليري »
لبطليموس الاول في الاسكندرية ، محاكاة ناجحة لمكتبة « أرسطو »
اليونانية التي كانت تقوم على مقربة من « اليسيوم » . وعلى نحو ما جمع

(١) نسبة إلى فاليريون إحدى مدن اليونان الساحلية

«سوتر» مؤسسه العلمية نخبة من علماء العصر وأدبائه وفلاسفته، كذلك استطاع أن يجمع لمكتبته الكبرى أثنى المخطوطات اليونانية وأندرها .

ولم يعد ثمة شك ، بعد أن عحصت آراء المؤرخين ، أن المؤسس الحقيقي للأكاديمية الاسكندرية والمكتبة الكبرى التي ألحقت بها ، هو «بطليموس الاول» ، وأن الفضل الأوفى في انشائها معا يرجع إلى الفيلسوف اليوناني «ديمتريوس فاليريون» الذي استدعاه بطليموس الاول من أثينا ، واتخذته مستشارا ثقافيا .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين من أمثال «بطلر» Butler «وبرستد» Breasted «ومايرز» Myres إلى اعتبار «المتحف» الاسكندري جامعة ، ما لبثت أن أصبح لها مع الزمن كل عتاد الجامعات ونظامها وروحها ونتاجها ، ومن ثم لا نرى ما يحول دون إطلاق كلمة جامعة الاسكندرية ، على المؤسسة العلمية التي أنشأها بطليموس الاول في عاصمة ملكه ، والتي سماها مؤسسوها من اليونان باسم «الموسيون» ، وعرفها الانجليز والالمان باسم «الميزيوم» ، واعتاد الفرنسيون أن يذكروها في مؤلفاتهم باسم «مدرسة الاسكندرية» L'école d'Alexandrie والتي يطلق عليها أحيانا اسم «الأكاديمية» Académie . لشدة شبهها بالأكاديمية الاثينية .

كان «المتحف» الاسكندري ، في حقيقة الامر جامعة ، تتكون من أروقة للدراسة وقاعات للبحث والمناظرة ، فضلا عن المكتبة الكبرى ، والحدائق

والخطائر الملحقة بالابنية ، والمرصد المتأخر لها . وكانت الحدائق
والخطائر تحتوى الكثير من نماذج النبات والحيوان التى أفادت دراسة
العلوم الطبيعية ودراسة الطب بالجامعة أعظم الفائدة وأجلها .

وقدر للمتحف الاسكندى والمكتبة الملحقة به أن يبلغا أعظم
شأن لهما فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلف) ، ومن ثم وقع بعض
المؤرخين فى الخطأ ، فذهب « يوزيب » Eusebius (٢٦٥ / ٣٤٠ م)
ومن نحائنه من المؤرخين ، إلى اعتباره المؤسس له ، وهو رأى
لا نلبث أن نرجع إلى ما كتب « بلوتارخ » حتى تبين خطأه .

وتكاد تجمع المراجع التاريخية على أن مكان هذه المؤسسة
العلمية والمكتبة الملحقة بها ، كانت فى حى البروكيوم Brochium ،
الحى المسمى فى المدينة ، على مقربة من قصور البطالمة ، — والظاهر
أنه كانت بالمتحف أروقة لسكن العلماء ، وليس ذلك عجيبا على كل
حال ، فقد قيل أن ملوك البطالمة كانوا لشدة ميلهم إلى العلماء ، وتقريبهم
لهم ، يسكنونهم معهم فى قصورهم الخاصة .

واضطربت هذه المؤسسة العلمية بين القوة والضعف ،
وكان ذلك مرهونا بقوة البطالمة أو ضعفهم من الوجهة السياسية .
وهوت هوى شديدا عند ما زلت أقدام البطالمة ، وارتعوا فى
أحضان السياسة الرومانية ، منذ عهد بطليموس السابع
(١٤٥ / ١١٦ ق.م) . والحق أن فترة ازدهارها لم تطل كثيرا .

ويكاد يعين عصر بطليموس الخامس (٢٠٣/١٨١ ق.م.)، الحد الفاصل بين عصر القوة وعصر الضعف فيها، كما يكاد يعين غزو ديوليوس قيصر لمصر، وتبعية البلاد للرومان (منذ ٤٨ ق.م.)، عصر انتقال العلم الاسكندري من طوره اليوناني البحت، إلى طوره اليوناني الروماني.

أما إنتاج هذه المؤسسة في عصورها المختلفة، وأما نظامها وتطورها وعلمائها وأبحاثهم، في الرياضيات والفلك وعلوم الطبيعة والنبات والحيوان والطب والتشريح والجغرافيا وقواعد اللغة ونقد الآداب والخطابة والفلسفة وغير ذلك، فإن القارىء يجد بعضه مطويا بين دفتي البحث — على النحو الذى قدر لجهد مؤلفه أن يصل إليه.

والحق أن فضل الاسكندرية على الحركة العلمية الانسانية واضح لا يحصى، ويصعب أن يوفى الانسان هذه المدينة حقها من الناحية العلمية، أو أن يلم إلماما تاما بنظام الجامعة التى نشأت فيها، أو بالإنتاج العلمى الذى صدر عنها، لتقدم العهد على تلك الآثار العلمية، وكثرة ما انتاب المدينة من العواصف السياسية والاضطرابات الدينية — ومهما يكن من الأمر، فقد خلصت لنا طائفة من المعلومات، أثبتناها بغورين معجبين بما كان لمدينتنا العظيمة من فضل على العلم الانسانى.

ومن أسف أن تودى أحداث الزمن، كحريق الاسكندرية عند حصار قيصر لها سنة ٤٨ ق.م، واصطدام المسيحية بالوثنية في القرون الأولى بعد الميلاد، ونزاعها معها، ذلك النزاع الذى انتهى بتدمير معبد «اليرايوم» في القرن الرابع الميلادى، وانتصار المسيحية

على الوثنية انتصارا حاسما بهذا التدمير ، إلى زعزعة الحياة العلمية ، والقضاء عليها في كثير من الأحيان . فلما أن تسنت لها الحياة . القينة بعد القينة ، وسط ذلك الاضطراب الديني ، ظهرت آثار أديبة وعلمية ، صدرت عن المدينة في أوقات متباعدة ، وبدرجات متفاوتة بين قوة الانتاج وضعفه ، وتسمت هذه الحركات المنقطعة باسم « مدارس الاسكندرية » ، في عصور ضعف الجامعة وانحلالها ، وزوال عتادها القديم ، بتدمير « السرايوم » .

وكانت أشهر المدارس التي صادفها انتجاع العرب للاسكندرية غداة الفتح ، حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، مدرسة « طيبة » أفاد منها السريان والعرب فائدة كبرى ، ونقل العرب فيما نقلوا عن الاسكندرية « فلسفة الاسكندرانيين » ، أو فلسفة « الشيخ اليونانى » أفلوطين ، كما نقلوا الجغرافية ، والفلك ، والكيمياء ، والرياضة ، وغيرها مما يرى مفصلا بعض التفصيل بين دفتى الكتاب .

وأتيح للعرب بهذا النقل أن يكونوا حفظة على الثروة العلمية اليونانية ، وحلقة اتصال بين القديم والحديث . ونحن لا نجمل مدى ما أفادت أوروبا من علوم الاقدمين ، بطريق العرب في أسبانيا والشرق الأدنى . إذ بفضلهم عمرت دور الكتب في كل مكان بنفائس المخطوطات القديمة ، وأتيح للأوربيين النقل عنها في الوقت المناسب إلى اللغة اللاتينية أول الأمر ، ثم إلى غيرها من اللغات الأوربية بعد ذلك .

المؤلف

القاهرة في سبتمبر ١٩٤٤

القسم الأول

الجامعة

الباب الأول

الحضارة الهلينية في الاسكندرية (١)

وتأسيس المتحف الاسكندري

الفصل الأول

حلم كبير يتحقق

استدعى « فليب » ملك مقدونية « أرسطو » ، المعلم الاول ، ليكون أستاذاً لابنه ووارث ملكه « الاسكندر » . وكان الاسكندر حينئذ لم يجاوز عامه الثالث عشر ، فرشف الامير الصغير من هذا المنهل الصافي ، وأحب من بين مالتن أغاني « هومر » وغيره من رواة الاعمال المجيدة لابطال اليونان القدماء .

(١) « الهلينية » نسبة الى « هلن » Hellen احدى قبائل تساليا من مقاطعات بلاد اليونان . كان زعيمها يدعى (هلن) ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد — ولم يلبث شهرتاً أن عم استعمال اسمه ، حتى أصبح علماً على جميع الأغريق ، فالهليونون على ذلك هم الأغريق ؛ والحضارة الهلينية هي الحضارة الاغريقية . « الهلنيزم » اصلاح قائم . ويفصد به عندما يطلق ، جميع مظاهر الثقافة الاغريقية من عهد الاسكندر حتى نهاية العصر التاريخي القديم في أوروبا .

ومنذ بداية القرن السادس ق.م. ، كانت « الثقافة الهلينية » قد أخذت تقوى وتغزو الحضارات القديمة التي قبل بعضها حضارة الهلنيين ، وقاوم بعضها الآخر (كما حدث في مصر وبلاد النهرين) ، وصكان تأثيرها قويا ظاهرا بصفة خاصة في الشعوب غير المتحضرة التي كانت تسكن فيما بين أسبانيا وبلاد القوقاز .

وسرت روح « الهلنيزم » هذه في جميع المدن التي خضعت للأغريق خضوعاً سياسياً =

وشغف الفنى بروائع الادب اليونانى ، وغزت أعمال الابطال
 قلبه ، وأشعلت خياله ، وبعثت فيه روحاً وخلقاً يمتان إلى البطولة
 بأقوى الاسباب ، ذلك أنه ولد ليكون بطلاً — لا كابطال
 الاقاصيص ، خلقتهم الرواة من كتاب اليونان وشعرائهم خلقتهم
 فكراً لا وجوده في عالم الحقيقة ، وإنما ولد — ليكون بطلاً حقاً .
 خلف أباه على عرش مقدونيا ولم يجاوز العشرين من عمره
 (٣٣٦ ق م) ، وورث فيما ورث من مشاكل أبيه عداء المدن
 اليونانية المماهضة لمقدونيا وعداء الفرس في وقت معا ، وما زال
 بالمدن اليونانية حتى أهلك طيبة ، لم يدع منها قائماً غير بيت
 الشاعر « بندار » . وأرغم بقية المدن على الاعتراف برعامته ، إلا
 « اسبرطة » العنيدة المكابرة ، فقد ظلت بعيدة عن محالفته
 أو مهادته .

• • •

وبهذا أمن الاسكندر جانب اليونانيين ، وأصبح بطل الهيلينيين
 غير منازع ، اللهم إلا من اسبرطة ، وكانت بما وهبها الله من طبيعة
 جبيلة ، وما نشأ عليه أبناؤها من خشونة في العيش ، وغلظة في الطباع ،
 تتخذ لنفسها بين مدن اليونان طابعاً خاصاً . وانصرف الاسكندر
 بعد ذلك بعد العدة لمنازلة الفرس ، وأمدته المدن اليونانية بفصائل

== وجاوزت هذه بأنهرها الأقوى إلى جهات أخرى في القرن الخامس قبل الميلاد
 وبذلت « الثقافة الهلينية » أحسن شأن لها في أثر غزوات الاسكندر المقدونى .
 وأدركت بفضل فتوحاته مصر وبلاد النهرين وإيران والهند ، وتركزت في هذه الجهات
 آثارها واضحة .

من الجنود ، انضمت إلى جيشه المقدوني ، فتكونت من جموعهم
جبهة قوية ، تشتعل حماسة للقضية الهلينية ضد الفرس .

وخرج الاسكندر في جيشه الكبير إلى آسيا الصغرى ، فبلغ سهول
وطرواده ، وعسكرت جنوده حيث عسكر أبطال الافاصيص الهومرية
من قبل ، كان الاسكندر قد ضرع إلى الآلهة في معبد « أثناء » أن ينصروا
قضيته على الفرس الذين اغتصبوا قديماً مدن آسيا الصغرى من اليونان .
والتقى الاسكندر بالفرس في موقعة « غرانيق » ، على النهر المسمى
بهذا الاسم في آسيا الصغرى ، وأبلى بنفسه في الموقعة بلاء حسناً ،
وانتهت المعركة بفوز عظيم للأغريق على الفرس ، واسترد مدن
آسيا الصغرى من أيدي هؤلاء واحدة فواحدة ، وخلصها جميعاً
من اليزير الفارسي .

وكانت للاسكندر آمال لم تكن لأبيه ، فقد كان يطمع في أقصاء
الفرس عن آسيا الصغرى ، ويطمع فوق ذلك في غزوه في بلادهم ،
وفي جعل بلادهم هذه جزءاً من امبراطورية أغريقية واسعة النطاق
تضم آسيا الصغرى وفيليقية ومصر وبلاد فارس حتى تخوم الهند ،
وأن يجعل فوق ذلك كله من البحر الأبيض المتوسط وبحيرة أغريقية .
ولم يكن الاسكندر ليشارك مطلقاً في امكان تحقيق هذا الحلم
الكبير ، لأن نفسه كانت أكبر . وقد حمل فيما حمل من الاماني
العذاب ، أن يجعل العالم الجديد الذي اعتزم فتحه وتكوينه هيلينياً
في نظامه وصيغته وثقافته .

وسقطت موائى فينيقية الواحدة بعد الاخرى في يد الاسكندر ، وانفسح الطريق إلى مصر ، وكانت في أواخر خضوعها للحكم الفارسي من الضعف بحيث لم يكلف فتحها الاسكندر عناء يذكر ، فأسلبت القيادة بعد فينيقية للفاتح الجديد ، وأصبح البحر الأبيض الشرقي في قبضته . وباستيلاء الاسكندر على سواحل فينيقية ، انقطعت الصلة بين الاسطول الفارسي في البحر الأبيض ، والاملاك الفارسية في الداخل ، فكان ذلك بمثابة هزيمة ثانية للفرس ، بعد هزيمتهم التكرار في موقعة غرانيق .

وعاد الاسكندر أدراجه من مصر إلى حيث يمكنه أن يقضى القضاء المبرم على الدولة الفارسية ، فيم شطر آسيا يبغي لقاء العدو ، وسار حتى انتهى إلى خرائب « نينوى » ، حيث وقعت واقعة « إربل » الفاصلة ، وفيها هزم الفرس هزيمة منكرة ، نتيجة جهلهم الفاضح بما كان قد وصل اليه المقدونيون من التقدم في فنون الحرب . وفر في أعقاب الموقعة « دارا » ملك الفرس ، وقتل وهو يولى الأدبار بيد بعض الخونة من أتباعه .

وهكذا انكشف الطريق إلى بلاد فارس ذاتها ، فغزا الاسكندر الفرس في صميم بلادهم ، وأحرق عرش عاهل الفرس انتقاماً لما كان قد اقترفه هؤلاء من حرق مدينة « ميليطيا » اليونانية في آسيا الصغرى ، ومعابد « الاكروبول » في أثينا . ولم يكن الاسكندر يقصد بهذا سوى اعلان مقدرته على الانتقام من العدو ، فلم يكذب يديها في ملك الاكاسرة ، حتى أمر بوقف الحريق ، قبل أن تستفحل خسائره .

وبلغ الاسكندر بعد ذلك حدود الهند ، وعاد أدراجه إلى بابل التي كان قد اعتزم جعلها مركزاً متوسطاً للأشراف على امبراطوريته المترامية الاطراف . وحمل الاسكندر إلى البلاد المفتوحة روحاً وثقافة يونانيتين ، وأنشأ المدن على النقط الاغريقى حيثما استقر ، وأطلق عليها اسمه الكبير . ومن هنا وجد الفن الاغريقى سبيله إلى آسيا الفارسية ، ودرج منها إلى الهند والصين ، فترك آثاراً له ما تزال ملحوظة في فنون تلك البلاد حتى الوقت الحاضر .

اقترنت فتوح الاسكندر بفكرة معنوية إلى جانب فكرة الفتح المادية ، ذلك أنه قصد فيما قصد إلى نشر العلم اليونانى وبث روحه في البحث ، فأرسل وهو بمصر حملة إلى أعالي النيل لتعرف أسباب زيادته كل عام ، وبعث بأخرى إلى سواحل بحر « الخزر » لتبني أسطولا تجوس به خلاله ، وتكشف الاجزاء الشمالية منه . وساعده على تحقيق الاغراض العلية ذلك العدد الوفير من علماء النبات الذين استصحبهم معه من بلاد الاغريق ، وبمعونة هؤلاء ، أرسل الاسكندر مجموعة ثمينة من أنواع النبات التي صادفها علماء هذه الحملة إلى استاذ « أرسطو » الذي كان يعلم في الأكاديمية الاثينية إذ ذاك . وقد كانت خطة الاسكندر في جعل العالم الجديد الذي فتحه « أغريقياً » واضحة كل الوضوح ، ولم يدخر وسعاً في العمل على تحقيق هذه الغاية ، فصاهر الأسرة الفارسية الحاكمة ، وحمل ضباط جيشه على الزواج من فارسيات ، وأوجد بهذا نسلاً جديداً

دان بدين الاسكندر ، وهودين حضارة جديدة . مزجت بين العنصرين اليوناني والشرقي . وقد كانت في ذلك أكبر تحقيق لأحلام الملك الشاب ، بعد رغبته الملحة في الانتقام من الفرس ، وتسكين امبراطورية واسعة على أنقاض ملكهم العتيد .

وتم للاسكندر ما أراد من قضاء على عزة الفرس باستيلائه على « سوسه » عاصمة دارا ، وانتهى اليه أمر الدولة التي طالما دومت الاغريق . واستقر به الرأي آخر الأمر أن يترك مدينة « بابل » السامية ، فيجعل منها مقراً لحكم البلاد المفتوحة ، بسبب توسط موقعها بين آسيا الصغرى وهضبة ايران ومصر . ولعله رأى أنها لهذا التوسط نفسه ، قد تصلح مكاناً لادماج الغرب الاغريق بالشرق ، وتكوين الحضارة الجديدة التي شغلت باله ، تلك الحضارة التي أساسها وقوامها العنصر الهليني — لأنه كانت يؤمن الايمان الوثيق بتفوق الحضارة الهلينية على ما عداها من الحضارات المعاصرة لها . ولما فرغ الاسكندر من أمر الفرس ، عاد فوجه همه نحو الغرب ، يريد هذه المرة أن يطوق البحر الأبيض الغربي بسيادته .

ويقال أنه قد داخل الاسكندر ، بعد تلك الانتصارات الحاسمة التي أحرزها في كل مكان ، شيء غير قليل من الغرور والزعفة ، الا وتوقراطية ، المقرونة بفكرة الحق الالهي المقدس . وكانت نظرية « الحق الالهي » معروفة في الشرق ، وفي مصر خاصة ، منذ كان الملوك فيها آلهة هبطت إلى الأرض ، ثم أبناء للآلهة فيما بعد ، كما كانت النظرية معروفة

في بلاد الاغريق ذلتها — فما ارتفع شأن أغريق إلى مثل ما ارتفع اليه شأن الاسكندر الأكبر ، إلا وأصبح بين قومه في عداد الآلهة . وما كاد الاسكندر ، بعد أن أحرز انتصاراته الباهرة ، يلتفت إلى الغرب ، لينجز فيه مثلاً انجز في الشرق ، حتى تكشفت له مؤامرة خبيثة ، دبرها له صفوة من أصدقائه الذين أكل الحقد قلوبهم ، بسبب ما كان يتأجج في نفوسهم من نيران الغيرة ، لأن العاهل العظيم لم تكن أطماعه لتقف عند حد ، ولأن شخصه علا في نظرهم ، وبلغ من السمو والتداني من مرتبة الآلهة حداً لا يطاق ! ولكن الاسكندر لم يتردد لحظة في القضاء على المتآمرين ، ومنهم أعز أصدقائه وأخلصهم « كليتس » الذي انقذ حياته في موقعة « غرائيق » ، حين كان قاب قوسين أو أدنى من الموت . وقضى في أثر كليتس « هيفستيون » ، أقرب أصدقاء الاسكندر إلى نفسه ، فحزن عليه حزناً أثّر في بناء جسمه فأضناه . وبينما الاسكندر يتأهب لاختضاع شبه الجزيرة العربية ، ليتفرغ بعد ذلك لانجاز مشروعه الكبير في الغرب ، عاجلته المنية في بابل عام ٣٢٣ ق . م . ، في سن الثالثة والثلاثين .

حقق الاسكندر الأكبر للاغريق نفوقاً سياسياً عظيماً ، وكان موته حادثاً تاريخياً كبير الأثر في عالم السياسة في ذلك الوقت ، إذ قدر للعالم الجديد الذي كونه أن تنقطع أوصاله ، كما كان في الوقت نفسه حادثاً تاريخياً سيئ الأثر في عالم المدنية ، حيث لم يقدر للفكرة الجليلة التي ملأت نفس الرجل أن تتحقق على النحو الذي أرادها لها ،

— وهي فكرة ادماج الشرق بالغرب عن طريق روحى .

وتنازع قواد الاسكندر بعد موته « فى بابل » تنازعا لم يمكن معه لاحدهم أن يتم مشروع الرجل العظيم ، لأنهم كانوا جميعا دونه مقدرة على الاضطلاع بمثل أعبائه الجسيمة ، وانتهى نزاعهم إلى النتيجة المحتومة — إلى تقسيم ملكه ، وكانت مصر من نصيب « بطليموس » أحد قواد الاسكندر الماهرة .

واستفل « بطليموس » بمصر ، وكون بها أسرة أغريقية الاصل ، « تمصرت » تدريجاً ، وحكمت مصر على غرار حكم الفراعنة ، وتمتع بكثير عما كان لهؤلاء من بأس وسلطان .

ووجد بطليموس الأول بادية الأمر ضرورة إلى الاستعانة بحامية اغريقية ، وابتنى لدولته الناشئة أسطولا فى البحر المتوسط ، وحكم مصر من الاسكندرية ، المدينة التى أسسها الاسكندر عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

وليس يعنينا هنا كثيراً أن نتابع كيف حكم البطالمة هذه البلاد حكماً سياسياً ، بقدر ما يعنينا أن نتابع كيف كان لذلك الوجود السياسى الذى أحدثه غزو الاسكندر فى مصر أثره على وجوه المدنية والثقافة ، وكيف نهضت الاسكندرية ، مدينتنا العظيمة ، بأعباء العلم والثقافة حينما من الدهر ، أدت فيه رسالتها أمينة مخلصة للعلم والمدنية .

الفصل الثاني

خطة الاسكندر

الحضارة الحديثة والحضارة المصرية - حكم الامبراطورية الجديدة من مصر - إنشاء الاسكندرية - لم تكن للتجارة أول الأمر - تأثير إنشائها على كاتوب والهرما - هل كان لإنشائها تأثير ما على أهمية صور ؟ - الاسكندر وأغريق غراطس - متى أصبح للدينة شأنها التجاري - التعاون المصري الأجنبي وأثره في نمو المدينة - البطالة وإعلاء شأن المدينة .

كان الاسكندر مشبعا بالروح الاغريقية ، شغوفاً بها في كل مظهر من مظاهرها ، فقد أحب منذ كان في أساطير الاغريق وأدابهم ، ومجده أبطال وهلاة ، وود لو كان بطلاً مثلهم ، ودرس آدابهم وعلومهم على خير أستاذ جاد به الزمن — على أرسطو ، المعلم الأول . وتغلغلت في نفسه عقيدة لم ير إلى الحيدة عنها من سبيل ، تلك العقيدة هي تفوق المدنية الاغريقية على ما سواها من المدنيات المعاصرة لها . ولازمته هذه العقيدة يافعا ، فكان لها في نفسه تشكل خاص ، دفعه إلى الرغبة في نشر المدنية الاغريقية في البلاد التي قدر له أن يغزوها . وقد كان هذا العمل الخطير ملازماً لكل فتوحاته الحربية ، فأثنى استقراره به المقام ، أسس حكومة على النمط اليوناني ، وأطلق العلماء المراقبين له يدرسون ويبحثون ، ويضيفون إلى حقائق العلم إضافات جديدة . وكان ينبغي أن يجعل « بابل » مقراً لحكم ملكه ، إلا أن توسعه في الفتح ناحية الغرب ، وميله إلى مد فتوحه

غربا حتى سواحل المحيط الأطلسي ، جعله يعدل عن حكم الدولة من بابل ، ولذا فقد رأى أن يحكمها من « مصر » ذات الحضارة القديمة . ولم يكن بد حين تصطدم حضارة بحضارة ، من أن تهزم واحدة أمام الأخرى . والمعروف أن المصريين رحبوا بالاسكندر خلاصا من طغيان الحكم الفارسي ، الذي ضاقوا به ذرعا ، وودوا لو ارتفع عنهم نيره ، وتفسدوا نسيم الحرية على يد فاتح آخر يكون أقرب إلى نفوسهم ، أو أقل ظلما . ذلك ما حدا بهم — رغم ما امتاز به المصريون القدماء من كراهية للأجنبي وحكمه — إلى الترحيب بالاسكندر .

على أنه لم يكن من المهن إخضاع الشعب المصري ، فإن كانت المقادير قد جرت بخضوعة لقاهر ، فليس معنى ذلك أنه استسلم ورضى ، وذلك راجع إلى ما بثته في نفوسهم الديانة المصرية القديمة التي تدعو إلى مجد نال ، ليس من شأنه قبول الذل والاستسلام .

ولم يكن لصائح أن ينتصر إلا إذا استلان رجال الدين ، وهم عنصر عنيد صعب القيادة ، وسنرى ماذا فعل الاسكندر برجال الدين .

وكان الجيش المصري يتكون ابان الفتح المقدوني من عنصرين : عنصر وطني ، وعنصر مرتزق . وكانت العدواة بين هذين العنصرين مستحكة الأواصر : وبلغ الحقد متناه بينهما في زمن الفتح ، حين رغب الوطنيون في حماية الملك ، وشددوا في حراسة قصره . أما

سواد الناس ، فلم يكن لهم من مطمع أكثر من رغبتهم في التحرر من
السخرة ، والتمتع ببعض الحرية التي كانوا قد سلبوها طوال
الحكم الفارسي .

ذلك اجمال ظاهر الدلالة على أن الوطنية المصرية لم تقبل الخضوع
للقاطع الجديد ، إلا خلاصا من ظلم الفرس ، واستسلاما مؤقتا
لظروف العالم السياسية التي غير الاسكندر الاكبر ، من معالمها
وبدل بفتوحاته العظيمة .

حقق الاسكندر من سيادته على الفرس ما مكنت له قوته الحرية
القاهرة ، ودانت له بلاد ما بين النهرين ، واتجه بعد ذلك غربا يريد
أن يبسط سلطانه على مصر وما يليها من سواحل القارة الافريقية
الشمالية ، وغزا في طريقه إلى الغرب المدن السورية ، فسقطت الواحدة
تلو الأخرى ، وكان قد استولى فيما استولى وهو سائر لفتح مصر على
« صور » سيدة « الليفانت » بعد أن صمد لها طويلا ، لأنها كانت منبع
التحصين برا وبحرا ، ولا غرو فقد كان أسطولها الضخم يحميها من
ناحية البحر ويبت فيها الحماس والثقة بمناعة مكرها . ولكن
سرعان ما انقلب الحماس فتورا ، ودب الفرع في نفوس السوريين ،
فأسلموا المدينة للقاطع الظافر .

وبهذا التسليم انعقد لواء السيادة البحرية للاسكندر ، فتتابع
سيره ، سيد البر والبحر معا إلى غزة ، فمصر .

وفي مصر لم يلق القاطع عناء يذكر ، واستقبله رجال الدين على أبواب

الفرما « بلوزيوم » ، ورافقه إلى منف ، حيث أظهر عطفه الشديد على الديانة المصرية وقدم القرابين للعجل « أيس » ، وغيره من آلهة المصريين في حفل موسيقى اغريق المظهر .

وفتح الكهنة صدورهم للاسكندر ، أما اليهود فدلوه على موارد المال ، وكان في أشد الحاجة إليه بعد جهاده الطويل .

وكان الاسكندر قد صادق اليهود ، واتخذهم عونا له منذ كان ما يزال في فلسطين ، وذلك لسعة خبرتهم بالعالم ، بسبب كثرة تجوالهم فيه ، وهم الذين دلوه على معالم الطريق بين فلسطين ومصر ، ومعظم الظن أنهم قاموا بدور السفارة بينه وبين المصريين ، وهم الذين أدخلوا في روع المصريين أن الاسكندر لا يقصد بهم سوءا ، وإنما هو موال لهم ومصاحب ، يعطف العطف كله على من لا يعصى له أمرا .

ولما أصبح له أمر البلاد ، نصب عليها حاكمين ، أحدهما يحكم مصر العليا والثاني يحكم الدلتا ، وأقام حول شخصه حرسا من الأغارقة ، وقرب إليه صفوة منهم ، أحصهم « كليومنيس » الذي يقال أنه نصح للاسكندر ببناء الاسكندرية .

o o o

وهادن الاسكندر كهنة منف ، وأظهر خضوعه وولاءه للاله (آمون) ، وارتحل إلى واحة سيوه ، وكانت قد سبقته إليها كتبة من الجند ، أرسلها كهنة آمون لتكون في استقباله هناك .

وسلك الاسكندر إلى سيوه طريق الشمال ، ومر في سيرة إليها « بنقراطس » ، في غرب الدلتا ، وكانت بها جالية اغريقية على رأسها

« كليومنيس » ، وقد نصبه الاسكندر على مالية البلاد ثقة به ، واعترازا بأبناء جلده .

ويذكر « جستين » أن كليومنيس هذا كان أحد مهندسي الاسكندرية ، اشترك مع زميله « دينوقراتيس » في تخطيط المدينة ووضع أساسها بعد أن أشار على العاهل الكبير باتخاذ مدينة جديدة . وقد صارع الاسكندر أهل « نقراطس » من الاغريق بخطة التي اعتمدها ، فأعلن لهم أنه سوف يجعل ملكة هليئي الصبغة ، ولم يتوان منذ أعلن عزمه هذا عن العمل على تنفيذه ، فخطط المدينة العظيمة ، ومنحها اسمه الضخم ، وخلع عليها كل ما من شأنه أن يركس فيها الحضارة الهلينية ، ويجعل منها مقرا لحكم الامبراطورية بعد تمام إنشائها .

وربما سأل سائل لم لم يجعل الاسكندر « نقراطس » الاغريقية الصبغة نواة لمشروعه الكبير ؟ والجواب على ذلك سهل هين ، فقد وجدها الاسكندر على حال من التدهار والعزلة ، جعله يحجم عن التفكير فيها . أضف إلى ذلك أنه وجد الاتصال بينها وبين العاصمة الجديدة التي أثر إنشاءها سهلا بطريق الماء ، حيث كان هناك طريق مائي يصل ما بينها وبين بحيرة مريوط فرضة الاسكندرية الخلفية ، هو فرع النيل الكانوبي — وبهذا ضمن الاسكندر أن تكون نقراطس عضدا له عند الشدة .

واتنفع تجار « نقراطس » أيضا انتفاعا بالمدينة البحرية الجديدة ، ويرى « ملن » Milne أن حسن اختيار موقع الاسكندرية لا يرجع إلى سلامة تقدير الاسكندر ، بقدر ما هو راجع إلى قربها من نقراطس .

ولم يكن لانشاء هذا الثغر تأثير على الموانئ المصرية الاخرى
مثل الفرما وغيرها من موانئ مصر الشرقية، بسبب قرب هذه من موانئ
الشام — ولذا فقد ظلت هذه طوائف حكم البطالمة عامرة بالمناجر السورية .

° ° °

والحق أن الاسكندرية استلبت مكانة « كانوب » لقرىها
منها ، ولئن كان المصريون قد تحولوا عن كانوب تحولاً تدريجياً ، فأنهم
لم يهجروها إلى الثغر الجديد بالسرعة التي قد تخطر بالبال ، وذلك
لأن العداوة بين العنصرين المصرى والاغريق ظلت مريعة مستخدمة
في غضون الفتح وبعده ، إلى أن رأى الاغارقة ضرورة ملحة إلى
التنازل عما كانوا قد رسموه لأنفسهم من خطة التعالى على العنصر
المصرى ، وحين وجدوا إلا مفر من اشرار هذا العنصر اشراراً كما اقتصاديا
فعالاً في حياة المدينة الجديدة . عندئذ فقط ، بدأ المصريون يتحولون
عن كانوب إلى الاسكندرية ، وبدأت قيمة كانوب تنحط كميناء ساحلى ،
وأخذت الاسكندرية تنظر دنيوا بعد هذا التحول ، وأمكن أن
تصبح ثغراً تجارياً ، بعد أن كانت مجرد منتجع للعنصر الاغريقى ،
ومقراً أميناً لسياسته .

° ° °

وما يدعو إلى شيء غير قليل من التأمل والتفكير ، ما فعل الاسكندر
بصور من ثغور فينيقية — فهل كان ما أنزله بها من ثقل عرشها
التجارى مقصوداً به إهداء تاج السيادة البحرية لمدينته الجديدة ؟

لا شك أنه كان يطمع منذ أول الأمر في سيادة البحر الأبيض ،
ولم يكن ممكناً أن يتحقق له ذلك إلا بالقضاء على « صور » و « الأسطول
« الصوري » ، وهو غرض حربي سياسي لا علاقة له بالتجارة .

والناظر في الترتيب الزمني للحوادث يرى أنه حين استولى على صور ،
لم يكن قد فكر بعد في تأسيس مدينة الاسكندرية — فليس معقولا
والحال كذلك ، أن يكون قد أزال عظمة « صور » التجارية ليزجها ،
إلى مدينته الجديدة .

قضى الاسكندر على « صور » قبل أن يفتح مصر ، والمعروف
أن فكرة تأسيس الاسكندرية جاءت عفواً خاطراً ، وهي من اقتراح
« كليو منيس » ، على ما يقرر « ميلر » Müller ، أما ما توفر للمدينة
الجديدة من المكانة التجارية فقد جاء لها بحكم الطفرة التي هيأها لها
حكامها من البطالمة — وكان ذلك بعد أن قضى الاسكندر ،
واقضت دولته .

الفصل الثالث

تأسيس المدينة

اختيار الموقع - واقعه القرية الساحلية نواة الاسكندرية - تخطيط المدينة الجديدة وأشهر أحيائها - البروكيوم - اينوستوس الميناء التجاري - واقعة الحى الوطنى - راقوس « كوتس » - الحى اليهودى - أحياء القهر والمجانة - فرقة الاسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط - معبد المراسى - الفاروس - الجنازيوم . . الخ

اختار الاسكندر لمدينته الجديدة مكانا فى الشمال الغربى من دلتا النيل، بعيدا بعض البعد عن الاتصال بداخلية البلاد، لتكون فى مأمن من المصريين إذا تسكروا للفتح الاغريقى يوما من الايام . وقد توخى أن تكون بهذا الابتعاد عن الدلتا قاعدة حرية سهلة الاتصال ببلاد اليونان بحرا، وبمصر برا، وأن يكون ما هنالك من صعوبة الاتصال بين داخلية البلاد المصرية وبينها نوعاً من أنواع اخاية للمدينة الجديدة .

ويرى بعض المؤرخين أنه لوحظ فى إنشاء الاسكندرية من أول الامر أن تؤدى مهمة تجارية إلى جانب مهمتها كقاعدة سياسية وحرية . وفى هذا الصدد يقول « رانكه » Ranke أنها كانت أعظم مدن العالم حركة تجارية بعد « بيرية » ميناء أثينا .

هذا وقد دلت أحداث الزمن على حكمة سامية فى اختيار هذا الموقع ، ولا غرابة فقد كان الاسكندر صائب الفسك بعيد النظر ،

رأى في هذا الموضع خير مكان لإنشاء مدينة واستقرار مدنية .

ويجمل بنا أن نلم بشيء عن تخطيط المدينة في أول إنشائها :

كانت تقوم في موضع الاسكندرية قبل غزو الاسكندر قرية
مصرية ساحلية ، يسكنها عدد ليس بالقليل من الصيادين ، وكانت
تعرف هذه القرية باسم « راقودة » . وليس هنالك من شك في أنها
كانت قرية مصرية بحثة كغيرها من قرى شمال الدلتا الساحلية ، لم
تكن تبعد ضالة شأنها على أى نوع من أنواع الاتصال بموانئ البحر
الايض المتوسط ، لا سيما وأن سكانها من الصيادين لم يكونوا
يملكون غير قوارب صغيرة للصيد ، لا تقوى على التوغل في قلب
البحر . وهكذا لم يكن لراقودة ، ولا لغيرها من قرى الساحل
الشمالي لمصر أى اتصال تجارى أو غير تجارى بالعالم الخارجى قبل
الغزو المقدوني .

ومن هنا ندرك مقدار التحول في تاريخ هذه القرية التي قفزت
لحظة إلى الوجود كشغرة هام من ثغور البحر الابيض قبل ميلاد
المسيح بقرون ثلاثة تقريباً

اندجعت راقودة في التخطيط الجديد ، وأصبحت الحى الوطنى
في مدينة الاسكندر الناشئة إلى جانب الأحياء الاغريقية واليهودية .
واحتفظت راقودة الحى الوطنى بالمدينة الجديدة ، بطابعها المصرى
البحث على طول الزمن ، وأغلب الظن أنها كانت تتكون من
مجموعة الأحياء الوطنية الممتدة من الأنفوشى إلى القبارى . ويحدونا

إلى هذا الظن أن هذه الأحياء تقع خلف الميناء التجارى للمدينة ما تزال .
وكان للوطنيين بتجارة المدينة منذ أسست أوثق اتصال ، لأنهم كانوا
روح الحركة التجارية وقوامها ، لم يجد الاغارقة بدا من الاستعانة
بهم فى شئون التجارة والملاحاة ، فى وقت عكفوا فيه على الاستعجار
وأحكام أساليبه وتمسكين قواعده .

وظل شأن المصريين من سكان هذا الحى مستضعفا حيناً من
الدهر ، ولكنهم احتفظوا رغم ذلك بوحدتهم وقوميتهم ، وصمدوا
لاذى الاغريق بادى الامر ، وقاوموهم مقاومة عيفة ، واحتفظوا
بكيانهم المصرى أمام جهة أغريقية غاية فى القوة والتمسك ، وكونوا
عصية مصرية ما تزال ملحوظة حتى الآن فى تلك الأحياء ، يفخر بها
الاسكندريون الوطنيون ، ويعتزون بها .

وقد أدى تحول رفاقوده من قرية صغيرة خاملة الشأن ، يشغل
أهلها بالصيد ، إلى ميناء عتيق ذى حركة تجارية عالمية ، إلى
ضرورة اشتراك الوطنيين واندماجهم فى حياة المدينة الاقتصادية .
لا سيما بعد أن مضى زمن على بدء الفتح ، تنازل فيه الاغريق عن
كثير من شعور الانفة الذى يصاحب الغزاة عادة ، إذ وجدوا
من المصلحة ، وقد أصبحوا مصريين بالاستيطان ، ألا يجمعوا فارقاً
كبيراً بينهم وبين المصريين الوطنيين .

وقد كانت الاسكندرية قبل الفتح الرومانى ، أى فى أواخر حكم
البطالمة ، تسكون من عدة أحياء أشهرها :

(١) حى البروكيوم ، وفيه كانت تمثل الاسكندرية الناعمة ،
الرافلة فى الدمقس — وكانت به قصور البطالمة مشرفة على الميناء
الشرقى . من طائفة السلسلة حتى موضع الانفوشى .

(٢) الحى الوطنى ، وفيه كانت تمثل الاسكندرية المسكودة ،
الدائبة الحركة ، وكانت تقع خلف الميناء الغربى « اينوستوس » ،
أو العود السعيد كما كان يسمى ، ممتدة من رأس التين إلى موضع
الوردبان . وكانت قرية راقوده تحتل مكانه قبل إنشاء المدينة .

(٣) حى اليهود ، وكان يقع خلف الميناء الشرقى أو الميناء الكبير ،
إلى الداخل ، فى أول الطريق العظيم « البولغار » المؤدى إلى كانوب
« أبى قير » ، وفيه كانت تمثل الاسكندرية المموتة .

(٤) ضاحية « نيقوبوليس » ، وكانت تمتد على ساحل البحر فى
موضع الرمل الحالى ، وفيه كانت تمثل الاسكندرية العابثة اللاهية .

(٥) الاسكندرية الجادة ، الغارقة فى بطون الكتب ،
المتهاكة على البحث فى المتحف الاسكندرى والمكتبة الملحقه به ،
وكانت تقع إلى الغرب من « النى دانيال » ، بعيدة عن جلبه الحياة
فى حى راقوده الوطنى ، ونعيمها ودعوتها فى الحى الملكى ، وبحورها
واستجارها فى نيقوبوليس — بعيدة كذلك عن شؤر المال فى
حى اليهود .

أما الحى الملكى فيصفه « سترابو » : بقوله « كانت تمتد القصور
الملكية على الميناء الكبير فى الجزء الشمالى الشرقى من القوس الذى

يكون الميناء ، ويلي ذلك غربا والمسرح الكبير ، على التلعة المجاورة ، (١) ثم معبد «الپوسيديون» ، فالغرفة التجارية ، فمخازن البضائع ، فبعض الأرضة فيما جاور «الهبتاستاديوم» ، الذي هو نهاية قوس الميناء الشرقى «الكبير» .

وكان بالمدينة من الطرق الرئيسية ثلاثة : أحدها أخذ من الهبتاستاديوم مفرق الميناءين الشرقى والغربى وكان يشق المدينة حتى موضع ميدان المنشية ، ثم يتابع سيره إلى «السرايوم» المعبد الأكبر ، حيث كان البطالمة يعبدون «السرايس» أو «نجل أبليس» ، على نحو ما كان يفعل أو آخر الفراعنة .

أما الطريق الثانى فكان يؤدى من الميناء الكبير إلى فرسة الاسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط ، وكان لا يقل اتساعا وتنسيقاً عن سابقه . وكانت بدايته من ناحية البحر تعرف «بباب القمر» ونهايته عند البحيرة تعرف باسم «باب الشمس» .

أما الطريق الرئيسى الثالث ، فكان يجرى عرضاً ، وكان يعرف باسم «البولفار العظيم» ، وينتهى إلى «كاثوب» «أبي قير» من جهة الغرب ، ويمر بحى اليهود ، وكان به «الجنازيوم» أو الملعب الرياضى القديم . وكانت تحيط به من الجانبين العمدة والآزاج وكانت على درجة من الجمال تبعث على كثير من الدهشة والاعجاب... فإذا ما سرنا بهذا الطريق حتى

(١) وهى على الأرجح التلعة التى يقوم عليها الآن المتشفى الأمري

وصلنا العراء ، ألفينا ميادين السباق التي اشتهرت بها الاسكندرية من قديم . ومن عجب أن نرى ميادين السباق ما تزال قائمة في نفس المكان حتى اليوم في حي « سپورتج » ! وعلى طول هذا الطريق كانت يرى المار جماعات من النخيل مالت كلها نحو الجنوب من توالى عصف الريح عليها من ناحية البحر — ولا تزال بعض هذه الجماعات تشاهد في جهتي « غبريال و فيكتوريا »

وإلى الشمال من هذا « البولفار » وبمحاذاة ساحل البحر ، كانت ضاحية « نيقوبوليس » حيث كان يقوم عدد كبير من المقاصف وأماكن اللهو البرى . وغير البرى . يؤمها أخلاط من الناس لم يرعوا للأخلاق حرمة . وكان كرام الاسكندريين يعافون ارتياد هذه الأماكن ، ويفضلون أن يتحملوا مشقة الانتقال إلى الشرق القاصى ، حيث أقاموا جواسقهم على الساحل ، بمنأى عن شرور هذا الحى ، واصطافوا كما يصطاف أفاضل القوم الآن في جهات الساحل النائية عن المدينة شرقاً .

• • •

ولا بد لمن يدرس الاسكندرية دراسة علمية ، أن يلم إلماماً دقيقاً بأشهر المواقع والأبنية في المدينة القديمة ويكفيه من ذلك ما قدمنا كما لا بد لمن يدرسها من الوجهة المادية ، من أن يعرف شيئاً عن النثر الاسكندري ، « والفاروس » منار الاسكندرية الأعظم . كانت تقع أمام الاسكندرية جزيرة تعرف باسم « جزيرة فاروس »

رأى بطليموس « فيلادلف » أن ينشئ عليها مناراً لهداية السفن . . .
ونظراً لضخامة البناء ، وجد من الضروري أن تتصل الجزيرة بالساحل
ببرزخ صناعي ، حتى يصبح من السهل نقل مواد البناء إلى حيث اعتزم
إقامة المنار ، ولكي يسهل تموينه بما يلزم من الوقود ومواد الغذاء
التي تتطلبها إقامة حامية عسكرية على مقربة منه أو في بعض جهاته .
وعرف هذا البرزخ باسم « الهيتاستاديوم » . وبه انقسم الميناء
قسمين : يكون كل منهما قوساً عظيماً ، أحدهما — وهو الواقع إلى يسار
الداخل إلى الميناء من جهة البحر ، عرف باسم الميناء الكبير — والثاني ،
وهو الأيمن ، عرف باسم ميناء « العود السعيد » تفاؤلاً . وهو فرصة
الاسكندرية التجارية على البحر الأبيض .

وحدث في القرن الرابع الميلادي أن هوى زلزال عنيف بالجزء
الشرقي من جزيرة فاروس حيث كان يقوم المنار ، فأصاب ذلك من
المنار ما أصاب — وبعد ذلك فعل به الزمن شيئاً غير يسير من
التدمير ، وأجهز عليه زلزال شديد في القرن الرابع عشر الميلادي
فأغرقه عن آخره في مياه البحر — وأغرق هذا الزلزال فيما أغرق
الجزء الشمالي الشرقي من الميناء الكبير ، بما كان عليه من بقايا قصور
البطلمية ، وبقي هذا الشق من الميناء غير واضح التقوس منذ ذلك
الحين وضوح الشق الآخر الغربي .

• • •

أقام بطليموس فيلادلف على الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة

فاروس أكبر منار عرفه التاريخ الملاحى على الاطلاق ، بناء بأمره المهندس الملىطى « سوستراتس » فوق صخرة من الرخام الابيض على مثال برج بابل ، ولكى تسهل عملية بنائه ، أوصلت الجزيرة بالساحل بمر عظيم الاتساع هو « الهبستاديوم » روى أن تصل من تحته مياه جزئى الميناء ، فكان أشبه شئ بحجر (كوبرى) عظيم ، و تراكت الرمال على مر الزمن ، فسدت الفتحات التى كانت تصل ما بين شقى الميناء تحت الممر ، فتحول إلى برزخ صناعى ، يصل ما بين المدينة والجزيرة .

ويرجح أن يكون مكان الهبستاديوم هو أكثر جهات المدينة دخولا فى البحر فى الوقت الحاضر — الأنفوشى ورأس التين .

وكانت مهمة هذا الفنار العظيم هداية السفن القادمة فى البحر ، بوهج من النار الدائمة الاشتعال فى قمته .

وقيل أن بناء المنار كلف « فيلادلف » ما يقرب من مائتى ألف من الجنيهات . والذى يقيس هذا القدر من النفقات بعظمة البناء ، يعتقد أن السخرة لابد أن تكون قد لعبت دوراً كبيراً فى تشييده . وقد صن « سوستراتس » مهندس المنار بهذا الجهد العظيم ألا يقرن باسمه ، فنقش اسمه على قاعدة المنار وغطاه بطبقة من « الاسمنت » نقش عليها اسم سيده « بطليموس » ، مالبث أن أزالها الزمن وظهر اسم سوستراتس من خلفها . وقدر ارتفاع المنار بما يقرب من قامه الرجل مائة مرة . وكان بناؤه يتكون من طبقات أربع ، ثلاثها

السفلى مربعة، تصغر ثانيتهما عن أولاهما، وثالثتها عن ثانيتهما، ورابعتها مستديرة. وكانت تحيط بكل طبقة شرفة عريضة، ولكيلا تتأثر قاعدة البناء بارتطام أمواج البحر به، قيل أن الرصاص المذاب استخدم بدلا من « الأسمنت » في بناء القاعدة. وقيل أن المنار كان يحتوى على ما يقرب ثلثائة حجرة، تقيم به حامية عسكرية لأبأس بعددها. وكان الوقود يحمل اليه يوميا على عجلات تصل إلى الجزيرة بطريق الهيتاستاديوم، ومن ثم يرفع الوقود إلى القمة، بنوع من الآلات الرافعة عرفه المهندس سوستراتس إذ ذاك.



وفي أساطير العرب عن منار الاسكندرية شيء غير قليل من المبالغة، إذ يقولون انه أقيم على أساس زجاجي، لأن مهندس «جرب جميع المعادن ليرى أصلحها لبناء القاعدة، فوجد أن الزجاج هو المادة الوحيدة التي يمكن أن تصنع منها لثقله ! (كذا) .

وأهم ما استرعى نظر العرب الذين فتحوا الاسكندرية في القرن السابع الميلادى، المرأة العجيبة في قمة المنار — تلك المرأة التي روى أن مناظر القسطنطينية كانت تنعكس عليها فيراها سكان الاسكندرية! كما روى أيضاً أن أشعة الشمس كانت تنعكس على المرأة، ثم تصوب بما يتجمع فيها من حرارة إلى سفن الأعداء في البحر فتحرقها وهي على بعد مائة ميل !! ولا شك أن هذه القوة الخارقة التي أودعها سوستراتس مهندس المنار في انعكاس الاشعة على مرآته،

إن صحت ، لكأنت عما ينهر له العقل الحديث ، إذ يبعد أن تكون
نظرية العدسات قد عرفت في مثل ذلك الزمن الممعر في القدم .
فاذا صح أنها عرفت ، فلا بد أن يكون العلم اليوناني قد استنبطها
في « ميليطيا » Miletus أو في « مصر » ، قبل أن يعرفها الفكر
الحديث بألاف من السنين .

وقبل ان العرب استخدموا المنار في أغراض دينية ضد
المسيحيين ، فاستغلوا هذه المزايا التي ترونها الأساطير عن المنار
للانتقام من عدوهم في البحر ، بالوقوف على حركاته وتسليط الأشعة
المحرقة على سفنه . وظل أمر المنار هكذا حتى أرسل أحد أباطرة
الروم إلى الخليفة « الوليد » من يخدعه فيفهمه أن قاعدة المنار تقوم
على كثر ثمين . ونجحت الخديعة بعض النجاح ، إذ أخذ العرب
يهدمون المنار — ولكنهم ما لبثوا أن فطنوا إلى الخديعة ، فأوقفوا
معمل الهدم ، وعبثا حاولوا إعادة الجزء المتهدم إلى حالته الأولى .
وتهدمت المرأة الكبرى أثناء محاولة أرجاعها إلى مكانها الأول
في قمة البناء ، وما لم تعصف به يد الإنسان ، عصفت به يد الزمن ،
فعملت الزلازل عملها السيء . فيه في القرن الرابع عشر الميلادي ، فلم
تدع منه غير صخرة بيضاء ، غارقة في البحر في جهة « قايتاي » .

الباب الثانى

الجامعة فى المتحف الاسكندري

٣٠٥ — ٤٨ ق م.

الفصل الاول

سوتر وتأسيس المتحف الاسكندري - بعض معلوماتنا عن المتحف - نشأة الجامعة
فى المتحف على غرار الأكاديميات الاثنية - وجه الخلاف بينهما - الغرض من
اقامة المتحف - راعى المتحف - جامعة الاسكندرية وجامعات العصور الوسطى فى
أوروبا - كلية الملكة وكلية أول صول فى اكسفورد وجامعة الاسكندرية - النظام
الداخلى للجامعة - معاهد العلم اليهودية - اسكندرية - سوتر المندثرة والمتحف - مكتبة
المتحف - بعض علماء العصر الأول من عصور الجامعة : فليطس القوصى ، رنودوس
البيزنطى - زيارة ميتاندر الاثينى وافتتاح مسرح الاسكندرية - اكتشاف فيلون البحر
الاحمر الجنوبي - دراسة مانيتو ونيوتنوس وهيكاتيس للمعتقدات المصرية القديمة - إقليدس
وهيرقليطس - سوتر يكلف بالدراسة والتأليف آخر الأمر - قيمة كتاباته - الفن
الاسكندري والفن الاغريقى .

فى عصر بطليموس الاول « سوتر »

(٣٠٥ — ٢٨٥ ق م)

ينسب بناء المتحف الاسكندري خطأ إلى بطليموس الثانى
وفيلادلف ، ، والحقيقة أنه من منشآت بطليموس الاول ، أو بطليموس
« سوتر » ، أسسه بمشورة « ديمتريوس فاليريوس » Demetrios Phaleros ،
الخطيب الاثينى الذى استصحبه سوتر فى عودته من حرب « ديمتريوس » ،

للعلوم والآداب والفنون تدريجاً في ذهن بطليموس ، سوتر ،
ويرجع زمن إنشاء المتحف كما قدمنا إلى الوقت الذي وصل فيه
ديمتريوس فاليريوس إلى مصر ، وهو الذي ساعد سوتر على اخراج فكرة
المتحف إلى حيز الوجود ، على غرار الأكاديميات الاثينية . وتسمية
هذه المؤسسة العلمية باسم المتحف ، ترجع إلى أصل أتيكي ، (١) . ولا
ترال تطلق كلمة المتحف على بعض الأندية الأدبية في ألمانيا حتى الآن .

° ° °

وقد نشأت الأكاديميات الاثينية بأدى الأمر على شكل حلقات
للدروس ، تنظم حول معلم يتحدث إلى تلاميذه في ناحية من نواحي
المعرفة ؛ وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت هيئات علمية منتظمة ،
عرف كل منها باسم الأكاديمي ، وتسمى باسم معلمه الأول . وقد
كانت هذه الهيئات في بلاد اليونان غير خاضعة لأى إشراف حكومى ،
إلا حين كانت ترى الحكومة ضرورة قصوى للتدخل في حريتها
العلمية ابتغاء الحد منها ، محافظة على سلامة الاداة الحكومية من أى
شطط قد ينتجه التفكير الحر .

أما في مصر ، فقد ضمنتم البيروقراطية الحربية أن يكون المتحف
تحت الإشراف الحكومى المباشر ، وفي رعايته . وهكذا كان المتحف
الاسكندري منذ بدء نشأته ، هيئة حكومية تستمد وجودها مباشرة من
الملك ، ويستمد كل فرد فيها حريته منه .

إذا كان هذا — فلأى غرض أقيم المتحف ؟

(١) نسبة إلى أتيكا Attica من مقاطعات بلاد اليونان

الحق أن بطليموس سوتر لم يكن يرمى من وراء إنشاء المتحف إلى أداء رسالة معينة للعلم تصدر عن ذلك المعهد . ولم يكن هو يدري كثيرا أو قليلا من أوجه الفرق بين الجامعة التي خلقها بالمتحف ، وبين تلك الأكاديميات التي ازدهرت في أثينا ، كما لم يكن من المتعلقين بمذهب خاص من مذاهب الفلسفة يمكن أن يقال أنه أسس هذا المعهد ليشتغل فيه بتقصي مسائله الفلسفية .

لم يكن سوتر ذلك الرجل — وإن كان في ذاته شخصية من أعظم شخصيات التاريخ وأضخمها آثارا . قصد « سوتر » إلى غرض قد يكون سياسيا وقد لا يكون . قصد إلى جعل المدينة التي أسسها الاسكندر الأكبر ، مقرا لحكم العالم الهليني ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن أجل هذا كلف سوتر بالاستيلاء على مقدونية ، وفرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرقي . ولا شك أن سياسته هذه كانت ترمى إلى مثل ما كانت ترمى إليه سياسة الاسكندر من التوسع ، مع فرق جوهرى — فتمد كان الاسكندر يريد أن يجعل من مقدونيا نواة لامبراطوريته ، في حين كان سوتر يريد أن يجعل من مصر ، التي آلت إليه بعد وفاة سيده ، نواة لدولة هيلينية .

والذى يتأمل في شخصية سوتر ، لا يعجب من سعة رغباته ، ولا يرى غضاظة في أن يكون للرجل مثلبا كان لسيدته من الاطماع السياسية التي أصبح يحكم الظروف مركزها الطبيعي مدينة الاسكندرية ، لهذا — لم يأل سوتر جهدا في توفير مظاهر الأبهة والعظمة لعاصمته الخالدة ، وكان غرضه الأول والآخر من إنشاء المتحف ، أن يجمع

في الاسكندرية جبهة من العلماء — تفكر ، وتحاضر ، وتكتب
التوايف ، وتمتاز بتفوقها في الادب والعلم بغية التشبه بأثينا ، عاصمة
العلم الهليني ومستودعه — وهكذا كانت رغبات العاهل الكبير منحصرة
في أن يسلب ، مقدونيا ، نفوذها السياسي ، ليتركز في مصر ، وه أثينا ،
نفوذها العلمي ، ليستقر في الاسكندرية .

° ° °

وكانت هذه الجبهة من العلماء تسكن المتحف ، تحت اشراف
رئيس ديني يعينه الملك من الكهنة ، ويجدر أن نذكر هنا أنه لم يكن
مصريا كعظم أعضاء المتحف ، اقتصر مهمته على رعاية المتحف رعاية
دينية ، وذلك تقليد نقلته جامعة الاسكندرية عن جامعة أثينا ، مع شي
من الاختلاف ، هو أن راعي الأكاديمية الأتينية كان ينتخب انتخابا ،
أما راعي متحف الاسكندرية ، فقد كان يعين تعيينا لمدة تطول
وتقصر تبعاً لارادة الملك .

والاستطاع سوتر أن يجعل للاسكندرية مكانة سياسية ممتازة ،
وتتمكن في الوقت نفسه من أن يهيئ لها أجرا عليا خاصا ، أمضاها
الطلاب من كافة أنحاء العالم الهليني ، يطلبون العلم فيها على خير أساذته .

° ° °

واقصرت الجامعة الناشئة على البحث العلمي الذي كان مظهره
أول الامر النقد والنظر في مؤلفات السابقين ، دون أن تكون مبتدعة
أو مضيقة إلى الثروة العلمية جديداً . ويعوزنا الكثير من المعلومات
عن عدد الطلاب الذين كانوا يختلفون إلى حلقات الدرس بالجامعة ،

وعن نظام معيشتهم ، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أساتذتهم ، انكشف من تلك العلاقة شيئاً يشي بالغلة عن الروح الجامعي .

أما عن عدد الطلاب فلم نهتد إلى إحصاء ، ولم نقرأ هنا أو هناك الا شيئاً يفيد أن عدداً من الطلبة الغرباء أمم الاسكندرية طلبا للعلم . ولا بد أن يكون هذا العدد قد سكن المتحف أو سكن على مقربة منه ، حيث لم يكن له بالمدينة من غرض غير الدراسة .

حقاً — لقد كانت بالمتحف أروقة ، الشائع أنها كانت لسكن العلماء ، ولكن حقيقة معينة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الطلاب عامة ، سواء أكانوا من الأجانب النازحين إلى الاسكندرية أو من الوطنيين ، كانوا يسكنون الاساندة في أروقتهم ، هي تلك الحقيقة التي يذكرها الأستاذ دافي ، في كتابه ، الحياة والعقائد الاغريقية . ويقرر بها أن نظام جامعة الاسكندرية كان كنظام كلية الملكة ، Queen's College في اكسفورد في أول انشائها ، أشبه شيء بمدرسة داخلية ، يختلف الطلاب فيها إلى دروس يلقها الأساندة ، ثم ينصرفون في أوقات فراغهم إلى الاستدكار في حجراتهم . وأقل ما يؤخذ من ذلك ، أن الطلاب كانوا يعيشون بحكم هذا النظام مع أساتذتهم في بناء واحد . ومن شأن هذا أن يفسح مجالاً للتعاون العلمي ، بين الطلبة أنفسهم من ناحية ، وبين الطلبة وأساتذتهم من ناحية أخرى . — ومن شأنه في الوقت نفسه أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعي الذي من أوضح خصائصه والبحث العلمي ، وأخذ الطلاب به رويداً رويداً حتى تنمو فيهم ملكته .

وذلك ما فطنت اليه جامعة الاسكندرية فيما بعد ، فقد نزلت عن هذا النظام العقيم تدريجاً ، واشترك الطلبة في الأبحاث العلمية ، وقاموا أحياناً بمهمة الاساتذة ، تدريجاً لهم على مزاولة التدريس الجامعي ، ووقعت جامعات أوروبا في القرون الوسطى لاسيما كلية الملكة . أكسفورد في مثل ما وقعت فيه جامعة الاسكندرية أول عهد لها بالحياة ، ولكنها أدركت ما في هذا النظام من قصور ، وجاءت كلية « أول صولز » All Souls في شكلها الأخير ، مصححة لهذا الخطأ في النظام الجامعي ، فتقرر أن يقوم « الرفقاء » بأبحاث علمية وأدبية ، بعد أن يحصلوا من جامعة أكسفورد على درجاتهم العلمية .

o o o

ويحق للجامعة الاسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرأ بما سبقت اليه من جمع الآداب اليونانية وتنقيتها من الشوائب ، بفضل ما توفر لعلماؤها وطلابها في زمن بطليموس الثاني (فيلادلف) من المقدرة الفائقة على النقد الأدبي .

ولم تكن جامعة الاسكندرية المعهد العلمي الوحيد في المدينة ، بل كان لليهود معاهد خاصة يتلقى أبناؤهم العلم فيها على شرائعهم المتوارثة . وبقيت المعاهد اليهودية معاصرة للجامعة إلى أن قامت بالاسكندرية في عهد الامبراطور « كلوديوس » دور أخرى للعلم أهمها « الكلوديوم » لدراسة التشريع الروماني ، والاشادة بمؤلفات الامبراطور في تاريخ الاتروسكيين والتمراطاجين . وصحب دخول المسيحية إلى الاسكندرية ، قيام مدارس نصرانية تاوأت الجامعة

الوثنية كما تارأت المعاهد اليهودية على السواء . وفي هذه المعاهد ، وعلى أيدي معلميها ، تمت القومية المصرية ، ونضج الشعور العام ، وانتفض في الوقت المناسب على الآثار الاغريقية والرومانية .

ويذكر د ماني ، في كتابه ، امبراطورية البطلمة ، أن جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجا لكل الجامعات التي تلتها ، فعلى غرارها نشأت جامعات أوروبا الوسطى في العصر الوسيط .

حشد د سوتر ، في عاصمة ملكه جميع مظاهر الآبهة . وكان له الشرف الأكبر إذ نقل جثمان الاسكندر إلى مقبرة أقامها له بالاسكندرية « السما » : أسس أنعم القصور ، وكون أروع بلاط ملكي عرفه البطلمة . ذلك كله — إلى ما وفره المدينة من العتاد الادبي والعلمي هؤلاء الاكابر من رجال الادب والعلم ، الذين اجتذبهم الى الاسكندرية من كافة أنحاء العالم الهليني .

وبلغت الاسكندرية في عهد د سوتر ، من روعة المظهر مبلغا بهر زائريها من المؤرخين . وصفها وأخيلس تانيوس ، وصفا موجزا ، اسكنه بليخ ، شاد فيه يذكر أنماطها الهلنستية في البناء . تلك الأنماط التي امتازت بالأعمدة ذات الباتكات تقف المارة من حمارة القيقظ ، وتلك الضوضاء التي امتازت بها الاسكندرية من أثر وقع سنايك الخيل تخر العربات على طرقاتها المرصوفة ، ومبانيها العامة البالغة حد الكمال في العظمة والروعة ، ومرحبا وطربا أيام الاعياد ، وأضوائها الساطعة ليل نهار . وأسوارها التي أحاطت بها إحاطة السوار بالعصم ، وتلك

البيسنيين النضرة تتخلل القصور الملكية ، وفرضتها العظيمة ، وساحلها .
الرملي الجميل الذي يتلاشى فيه اليبس في الماء تلاشيا غير محس —
في طرقاتها تقابلت مختلف اللهجات والعادات ، اكتشفنا الضاحيات الجميلة :
كانوب وإلوزيس ونية وبوليس من الشرق — وجاورتها « نكروبوليس »
مدينة الموتى ، من الغرب .

ومما يدعو الى الأسف أن أحدا من المعاصرين الذين رأوا
الاسكندرية رأى العين ، لم يخلف لنا وصفا كاملا لها — فهذا وصف
« سترابو » لها مشوه مختصر — ولم تصل إلينا صورة حية بعض الحياة ،
سوى ما كتبه المؤرخ « بوليبيوس » في فصل عقده عن « تيويج » « بطليموس »
الخامس — ليس هنا مكان لسرده ، وكل الأوصاف التي انتهت إلينا
عن المدينة خالية من ذكر شيء يشفي الغلة في أمر المتحف الاسكندري
أو الجامعة .

ويرجح أن تكون أول مكتبة أنشئت بالمدينة قامت في وقت واحد
مع « المتحف » في حي البروكيوم — « الحي الملكي » . ولا يذكر
« سترابو » وقد زار الاسكندرية في عهده أغسطس ، شيئا ما عنها أو عن
احتراقها — يقال أنه سكنت عن ذلك عمدا ، تلبية لرغبة « إليوس جالوس »
الوالي الروماني . وكل ما ذكره « ديودور » الصقلي ، أنه اطلع على
نشرات كانت تصدر في البلاط الملكي ، استقى منها بعض معلوماته
التاريخية — ولم يشر قط الى « مكتبة » استمد منها معلوماته .

ويرجح « مافى » Mahaffy أن تكون مكتبة الاسكندرية قد جمعت
بطريقة مشابهة لتلك الطرق التي جمعت بها بعض المكتبات الانجليزية

الشهرة ، ككتبة «سندريلا» ، ومكتبة «سبنسر» ، وعلى نحو ما تجمع
وتقتنى قطع الخزف الثينة ، أو صور مشاهير المصورين .

فاذا ما كان الأمر كذلك - تعذر علينا أن نلم بفكرة واضحة عن
الحياة الأدبية في الاسكندرية في عهد بطليموس «سوتر» . والحق
أنه يصعب أن ننسب إلى عصر «سوتر» تلك النخبة من رجال الأدب
والعلم ممن يزخر العهد الأول باسمائهم . وتظل اسماؤهم مضطربة حائرة
بين أن تنسب إلى أواخر عصر بطليموس الأول (سوتر) ، أو أوائل
حكم بطليموس الثاني (فيلادلف) .

وإذا سلمنا بنتائج أبحاث الألمان في هذا الموضوع ، نسبنا هذه
النخبة في اطمئنان إلى عصر بطليموس الأول ، الذي يعتبره
«سوزميل» ، Susemil صاحب الفضل الأوفى في خلق حركة فكرية أدبية
علمية في الاسكندرية ، قام هر بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى إلى
مناقضاتها المحترمة التي خلعت في بعض الأحيان من الفائدة العلمية ،
واقصرت على اللجاج وحب المناقشة — ولا غرابة ، فهو تلميذ
وصديق لارسطو .

وكان بطليموس سوتر يعني «برية» ابنه بطليموس فيلادلف عناية
فائقة ، عهد بتثنيته إلى «فيليتاس القوصي» (١) وهو شاعر ينسب إليه
أول مجهرود أدبي عرف عن الاسكندرية في الشعر الرثائي — بل أول
مجهرود عرفه العالم القديم من هذا النوع من الشعر . وكان «فيليتاس»

(١) نسبة إلى جزيرة قوص من جزر بحر ايجة

الى هذا ، من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة حوت كل مصطلحاتها .

وفي هذا العصر تابع « زنودوتس البيزنطى » Zenodotus of Byzantium التأليف فى قواعد اللغة اليونانية ، وراجع مصنفات هومر — وامتاز عصر الجامعة الاول بالدراسات اللغوية ، أكثر من امتيازه بغيرها . ويحتمل أن يكون بطليموس « سوتر » قد أسس مسرح الاسكندرية ، وأن يكون قد دعا إليه « ميناندر » الاثنى المؤلف المسرحى الفذ . ليشرف المسرح الجديد ، باحدى مسرحياته تمثل فيه ، ويطوق جيد الجامعة الناشئة ، بزيارته لها .

ومن عجيب الامور أن تكون جامعة « سوتر » قد قامت فى ذلك الزمن السحيق ، برحلات كشفية فى البحر الاحمر ، لاسيما فى الجزء الجنوبي منه — بفضل أمير البحر « فيلون » Philon ، تصدبه نخبة من رجال علم الجغرافية الملاحية — وهى رحلات نذكر له بالاعجاب البالغ ، إذا ما عرفنا أن اليونان لم يكونوا قد تجاوزوا منطقة البحر الاحمر الشمالية ، فى تجوالهم فى البحار . وكان خليقاً حقاً بجامعة الاسكندرية أن تضيف إلى علم الجغرافية جديد .

وعنى هذا العصر فيما عنى ، بدراسة « العقائد المصرية القديمة » (الميثولوجيا) — فقد وكل بطليموس إلى « هكتاتيس الابديرى » و « مانيتو » المؤرخ المصرى السمندى ، والعالم « تيموثيوس » أمر هذه الدراسة ، قصد تزويد الامبراطورية البطلمية الناشئة ، بما يحتاج

إليه تدعيم كيائها ، من العقائد المصرية القديمة .

والحق أن كل هذه الجهود الأدبية ، على ما لها من قيمة ، كانت دون ما بلغتة الاسكندرية في علم الهندسة على يد « اقليدس » ، Euclid ، وفي التشریح على يد « هيروفيلوس » ، Herophilos . وأشهر معلمی هذا العصر قاطبة « اقليدس » ، أبو الهندسة غير متنازع ، ومؤسس مذهب البحث العلمی — وكتابه « المبادئ » ، أو « الاصول » ، أنماط في صميم المنطق ، أكثر منه موضوعات في الرياضيات . وإليه يرجع الفضل في جعل عصر « بطليموس » سوتر ، عصر تفوق ریاضی عظیم — له أثره البالغ في تقدم العلم والعقل البشری .

ويعتبر « هيروفيلوس » ، أباً « التشریح » ، على نحو ما يعتبر « ابقراط » ، أباً للطب . وبفضل « هيروفيلوس » ، سبقت مصر بلاد العالم طراً في دراسة الامعاء دراسة دقيقة . وكانت الحكومة تمده بالبحر من المقضى فيهم بعقوبة الاعدام ، كما أمدته حظيرة الحيوان الملحقة « بالمتحف » ، بأنواع من الحيوان — شرحها ودرسها واستبطن من كل ذلك طريقة علمية للتشریح ، ساعدت على رفع شأن الاسكندرية القديمة في العلوم الطبية .

وآزرت جهوده وجهوده « اقليدس » ، على خلق تلك المكنانة السامية التي بقيت مقترنة باسم المتحف الاسكندري حتى وقتنا هذا . وبينما كان الاسكندريون مشغوفين بمباحث العلوم البحتة ، كان

الاثنيون مشغولين بدراسة الفلسفة الرواقية والايقورية في بلاد اليونان ذاتها .

وهكذا كان عصر « سوتر » عصر نشاط أدبي ولغوي ورياضي وطبي عظيم - حقا لم تكن الاسكندرية بالفلسفة ، عناية « أثينا » التي كانت ماتزال معقل الدراسات الفلسفية بأنواعها - ولكن ذلك لم يقلل من قيمة الدراسات الاسكندرية ، ولم يحط من قدرها .

انتهت شواغل « سوتر » بأنتزاع السلطة البحرية من يد « ديمتريوس المقدوني » ، واستيلائه على قبرس ، وتفرغ للمدينة العظيمة يريد أن يجعل منها أعظم المدن الهلينية على الإطلاق . وإذا نحن أصغينا إلى رواية « پلوتارخ » عن نقل جثمان الاسكندر ، ضعف لدينا القول بأن « سوتر » هو الناقل له إلى الاسكندرية - وتلخص رواية « پلوتارخ » هذه في أن بطليموس « فيلادلف » هو الذي نقل جثمان الاسكندر إلى منف ، ومن ثم إلى الاسكندرية ، حيث دفن في « السبا » . ولكننا إذا ذكرنا حرص « سوتر » على أن يجمع كل مظاهر الآبهة حول اسمه الكبير ، شككنا في رواية « پلوتارخ » هذه ، وملا إلى الاعتقاد بأن « سوتر » صاحب ذلك الاسم الضخم ، هو الذي أنجز ذلك العمل الجليل .

وما أن اطمأنت نفس « سوتر » بنقل جثمان سيده ، وخلا من شواغله الخارجية ، حتى عنى بأمر المكتبة والمتحف ، وانبج آخر أمره إلى الدراسة والتأليف . وقد عرف عنه أنه وضع مصنفاً في

حروب الاسكندر الاكبر ، تلك الحروب التي ساهم هو فيها كأحد قوادها . ويضع «أريان» مؤلف «سوتر» هذا في رأس المراجع التي استمد منها تاريخه ، ويصفه بأنه خير مصدر رجع إليه !

والمذكرات الخاصة التي يكتبها القواد عن أعمال ساهموا فيها ، لا يمكن أن تكون مرجعا تاريخيا يعتمد عليه ، إذ النفس البشرية مجبولة على حسن تقديرها لذاتها ، ميالة في ذلك إلى المبالغة والاغراق والتورط في الكذب أحيانا . ولهذا لا يحمل أن تتخذ سندا من أسانيد التاريخ ، إلا بكثير من الحيطة والحذر . وينسب الى نابليون الاول شيء من هذا فيما كتب من مذكرات خاصة . وقلنا يكتب قائد أرسطو عن نفسه متحريرا الحقيقة ، ولم ينح «يوليوس قيصر» من الوقوع في الخطأ نفسه ، حين كتب مذكراته الخاصة عن الحرب الغالية .

ويذكر عن «سوتر» أنه كتب عددا من الرسائل عن الشؤون العامة في عصره ، أشهرها «ديونيسودورس» ، أحد تلاميذ «ارستارخاس» اللغوي — يوسفنا أننا لم نقر بشيء منها حتى الآن .

• • •

وفي أواخر أيام «سوتر» ، كان لا بد له من تسوية مسألة وراثته العرش ، حيث كان له أكثر من وريث . وكان أشدهم بأسا ابنه بطليموس ، وهو ولد له من يونانية ، أخذ «ديمترىوس المقدوني» لثبذ أزره وبناصره على بطليموس «فيلادلف» . وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعا في الحقيقة بين اليونانية والمصرية . وكان انتصار

أحدهما على الآخر تفوقاً نهائياً لأحدى الساحتين . وكان هوى الملك
المن مع بطليموس « فيلادلف » ، إذ كان يرى فيه خير مثل سياسته ،
سياسة الجمع بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية . وكان البطالة
أحرص ما يكونون تسمكاً بالمصرية ، يقيمون على قواعدها ملكهم
الجديد . لا مناص لهم من ذلك - خوفاً على دولتهم الناشئة من أن
تزعزع أركانها - فتديد .

والذى يتأمل كيف كان يعنى « سوتر » بترية ابنه « فيلادلف »
على أيدي خيرا الاساتذة المربين ، يرى كيف كان يحرص الحرص كله
على أن ينتهى ملكه إلى « فيلادلف » دون سواه . وأخيراً - نزل
« سوتر » عن العرش « فيلادلف » ، وظل دائماً على الظهور في بلاط
ابنه عامين ، كواحد من الرعايا . ومات سنة ٢٨٣ ق. م. ، تاركاً على
الزمن تاريخاً حافلاً بكثير من الحوادث الجسام .

• • •

استطاع « سوتر » أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسفة
والخطب في عاصمة ملكه - ولكن ، هل استطاع أن يجعل الاسكندرية
كعبة الفنون في ذلك العصر ؟

— إذا جاز لنا أن نحكم بالشواهد التى بين أيدينا ، وهى تلك
التقوش البديعة التى ترى على العملة المتخلفة من هذا العصر ، والمحفوطة
في دور العاديات ، لما توانينا عن الحكم بتقدم الفن في عصر البطالة ،
في شتى نواحي الفنون الدقيقة ، المعروفة بالفنون التطبيقية .

غير أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا ، ونحن نذكر الفنون ، أن الفن الاغريقى كان عليه أن يغالب فى مصر فنا من أقوى الفنون التى عرفها التاريخ ، هو الفن الفرعونى — فأما أن ينتهى إلى التفوق عليه ، فيغلبه على أمره ، وأما أن يدعى له فى موطنه ، فيستدج فيه . والمشاهد بصفة عامة أن المباني التى أقامها البطلمة خارج الاسكندرية روعى فيها أن تكون فرعونية الصبغة — غير أنها لم تخل من التأثر بالفن الاغريقى .

ويمكن القول إجمالا ، أن البطلمة تأثروا بالديانة المصرية ، أكثر مما تأثر المصريون بالفن الاغريقى — فأقاموا معابدهم على الطراز الفرعونى ، وهكذا طغت المصرية ، على الفن الاغريقى — اللهم إلا فى الاسكندرية ذاتها ، حيث بقى كل شئ يونانيا صرفا . وأقيم بالاسكندرية فى ذلك العهد عدد لا بأس به من الابنية العامة كالمتحف والملاعب والمسرح والسيما (قبر الاسكندر) . وكانت كلها آية فى إبداع الصنعة الاغريقية .

ومن الأدلة المادية على تقدم الفن الاغريقى فى هذا العصر ما أبدعته يد نحات إغريقى لتابوت من الرخام ، لا يزال باقيا فى متحف القسطنطينية ، ملكك بجهول الاسم من ملوك (صيدا) ، هو تحفة من تحف فن الحفر وحذق الألوان — ومنها كذلك ، تلك المشاهد التاريخية التى ترى محفورة على الأحجار ، تمثل المعارك الحربية التى وقعت للفرس مع الاغريق ، وتلك الصور الرمزية التى أنتجها

تخيل رجال الفن من الأغرقة ، وقصدوا بها أن تمثل امتزاج الغرب بالشرق بطريق الحضارة الاغريقية — وغير هذا وذاك من مناظر الصيد ، وزخرفة واجهات المعابد بالنحوت البارزة — وكلها آيات في الفن رائعات ، ماتزال باقية شاهدة بتفوق العصر في الفنون على اختلافها .

وأغلب الظن أن الاسكندرية ، بما توفر لها من سمو المسكاة بين مدن العالم الهليني ، لا بد أن تكون قد استهوت أمهر البنائين ورجال الفنون . وما من شك في أن عروس البحر المتوسط ، ووارثة أثينا في العمران والمدنية ، لم تكن إلا من صنع هؤلاء الفنانين وإبداعهم .

ويحدثنا « شريبر » Shreiber عن فن نشأ في الاسكندرية ، وازدهر فيها ، وانفردت به ، هو صناعة الآواني الذهبية والفضية التي تتخذ عادة مقياساً لتقدم الحرف اليدوية . وهو يحاول جاهداً أن يثبت أن الاسكندريين كانوا أساتذة العالم في هذا المضمار ، وهو في الوقت نفسه يدلل على أن المدرسة الشعرية الإيطالية التي يحتتمها « بنفثيتوسليني » ، والمدرسة التي تزعمها « سلفي » نفسه ، أخذتا بنصيب وافر من الأدب الاسكندري ، ويشير « شريبر » إلى حب الاسكندريين للطبيعة ومناظرها ، وتقديرهم لما فيها من روعة وجلال . وهو يحرص على الإشارة في حماس ، إلى أن الاسكندرية كانت في هذا العصر نقطة التقاء العلم بالفن ، ومركز امتزاج الشرق بالغرب ، وبثورة الجمع

بين القديم والحديث — أشبه ما تكون في هذا كله ، بثوب
« بزنطى » مختلط الوشى .

وليس الفن ناحية من نواحي نشاط الجامعات ، ولا هو عادة
يتصل باتاجها ، ولكننا عرضنا إلى الفن بهذه الكلمة القصيرة ، لنرى
مدى ما أثر فن الاغريق في مصر عامة ، وفي الاسكندرية خاصة —
ولا جدال في أن فن العمارة استدعى من الاسكندرانيين دراسة بدراسة
الاصول الهندسية . ونحن وإن كنا لا نحصل الآن على ما ثبت به
أن الهندسة التي اشتهرت بها الاسكندرية ، كانت تطبق أصولها ،
ويستفاد منها في فنون البناء استفادة عملية ، إلا أننا نرجح أن فن
العمارة لا بد أن يكون قد استفاد كثيراً من هندسة إقليدس .

تصويب

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٤	١٧	Achadémie	Académie (Akademia)
٤١	١٠	السيا	السيما
١١٦	٨	Portum	Partum
١٢٥	٩	De — جيد	Di — جيداً
١٨٧	١١	عنصران هامين	عنصرين هامين

Specimen

Date	Locality	Collector	Remarks
1911	S. 1000	H. C. G. & J. H. G.	Common
1911	S. 1000	H. C. G. & J. H. G.	Common
1911	S. 1000	H. C. G. & J. H. G.	Common
1911	S. 1000	H. C. G. & J. H. G.	Common
1911	S. 1000	H. C. G. & J. H. G.	Common

الفصل الثاني

في عصر بطليموس الثاني « فيلادلف »

٢٨٥ — ٢٤٧ ق م .

فيلادلف نصير الحركة العلمية والأدبية - شغف فيلادلف بالدراسة الطبيعية وتشجيعه لها - الكشف وخدماته للمتحف - فيلادلف يرأس مجالس الأدب والمناظرة - الأدب الذي نتج لهذا العصر - نخاضم للفلاسفة والأدباء - وأثره في الحالة الأدبية - بعض الآثار الأدبية لبوكريكس وأبولونيوس وأراتس وكلبياخوس وهيروداس - العناية بالمكتبة - أثر تلك العناية في التروة العلمية اليونانية - طبعة الشعر الاسكندري وأثر « ثيوكريتس » - مانتون يجمع تاريخه - ترجمة التوراة السبعينية الى الآغريقية - البردي المكتشف من هذا العصر - الرخاء المادي في عصر فيلادلف وأثره في تقدم العلم - الفاروس والمرآة ذات الأشعة الحارقة - إنشاء مكتبة فرعية في البراييوم

اعتلى بطليموس « فيلادلف » عرش مصر وسقط عاصفة من المنافسة الشديدة بينه وبين أخوة له من يونانية — كان « ديمتريوس المقدوني » يشد أزرهم ؛ وقدر لفيلادلف أن يفوز بالعرش ؛ وكان ذلك من حظ مصر ، لأن فيلادلف كان من أنصار سياسة الإدماج بين الحضارتين اليونانية والمصرية .

وكانت نشأة فيلادلف العلمية وتربيته كفيلتين بأن يخلقانه نصيراً للحركة العلمية . وكان قد أظهر منذ الصغر ميلاً إلى الدراسات الطبيعية كدراسة الحيوان والنبات . ويذكر « سترابو » و « ديودور » كلف البطالة عامة وفيلادلف خاصة ، بالكشف وما يتبعه من

اجتلاء الحقائق الجديدة في عالمي الحيوان والنبات .

ويرجع الفضل في تنمية الرغبة في دراسة الحيوان والنبات إلى « ديمتريوس فاليري » الذي اضطلع في عهد « سوتر » بإنشاء الأكاديمية ، بمعاونة نفر من جلة رجال العلم المعاصرين له .

وأدى شغف البطالة بالحيوان إلى جمع عدد لا يستهان به منه في حديقة الحيوان الملحقة بالمتحف ، فقد كانت تحوى من عجيب الحيوان ٢٤ أسداً ، ٢٦ ثوراً هندياً أبيض ، ٨ ثيراناً إثيوبية ، ١٤ لبؤة ، ١٦ فهداً ، ودياً أبيض ، وعدداً وفيراً من القيلة ، ١٤ وعلاً ، ٨ حمير وحشية ، وعدداً من القرود والجمال النينية ، وغير ذلك مما يستدل منه على أن سفن البطالة جاست خلال البحر الأحمر وبلغت بلاد « بونت » والسومال والمحيط الهندي حتى سواحل الهند ، وربما ارتحلت غرباً ، فشمالاً في المحيط الاطلسي ، حتى وصلت الأقاليم الباردة .

وأدت حركات الكشف والارتياح — فضلاً عما أسدت من خدمات للعلم في ميداني النبات والحيوان — إلى رواج التجارة بين الاسكندرية وتلك الانحاء النائية . وجلبت السفن إلى مصر ما كان يلزمها من الأخشاب والعطور والتوابل والابنوس وريش النعام وشن الفيل ، وهكذا كانت حركة التقدم المادى التجارية مصحوبة بحركة تقدم على — إذ لم تخل سفينة قادمة تحمل البضائع من جهات المحيط الهندي والبحر الأحمر ، من شيء تمد به المتحف ، من عجيب النبات أو غريب الحيوان .

ورغم ما صادف فيلادلف، من شواغل السياسة والحرب، فقد صرف عناية مشكورة في تشجيع دراسة الفلسفة والشعر والعلم البحت، وخص أعضاء المتحف بفضل العليم. ولم يدخر هؤلاء وسعاً بدورهم في تعليم الملك وتثقيفه، وإدخال السرور على نفسه. ولم تخل بحالهم من نقاش كان يخدم أحياناً إلى حد المهاترة، وكان من شأن هذا الاحتدام أن خلق روحاً أدبياً صاحباً، امتاز به مجتمع الاسكندرية في ذلك العصر. واختصم رجال العلم بالاسكندرية فيما بينهم، وتناذبوا، وتنافسوا بغية الحصول على الخطوة عند الملك الذي كان على ما يلوح يعجب بهذا النضال الأدبي بين فلاسفته، اعتقاداً بأن ذلك الوطيس الجامي بينهم، من شأنه أن يساعد على نضوج الأدب، وورق النقد الأدبي.

وأعظم مختصمين في هذا العصر «كليماخوس» Callimachus العالم الشاعر، و«أبولونيوس» الرودسي Apollonius of Rhodes وقد استفاد الأدب من الحرب الشعواء بينهما أيما استفادة.

كتب أدباء الاسكندرية في عصر فيلادلف كما كانت يكتب أدباء الجلفا من «سپنسر» و«تايلور» و«سوفت» و«بركلي» لطبقة خاصة من الشعب. أدباً متسامياً لا تتذوقه الطبقات الدنيا، لبعدهما بين لغتها الدارجة ولغة الأدب الرفيع. ولذلك حرم الاسكندريون من عامة الشعب من ذلك الأدب الذي كتب باليونانية

الفصحى للبلاط الاسكندري ، وخاصة المشككين باليونانية .

٥٥٥

ولكن الحركة الادبية شامت بعض الشيء من جراء ذلك التنايد ، واعتكر جو المتحف ، الاسكندري تلك الخلافات الشخصية ، ونزع الادباء إلى حب الظهور ، وتسقطوا الأخطاء بعضهم لبعض ، فضاءت الثمار الادبية ، وان لم تخل من جمال . ومن أمثلتها في هذا العصر أغاني « ثيوكريتس » Theocritus ، وقصائده عن حياة الرعاة في صقلية ، موطنه الاول ، ومقطوعة « أبولونيوس » الرائعة Rhodius ومنظومة « أراتس » Aratus التعليمية في الفلك والطقس ، وأناشيد « كليماخوس » للآلهة وعواهل البطالة ، وتصور « هيروداس » Hirondas للشخصيات البارزة ، وشعر الرثاء الذي ازدهر في هذا الوقت وعظم أمره على يد أستاذه كليماخوس ، وكانت له منزلة رفيعة بين فنون الشعر في ذلك الحين .

وكل فيلادلف أمر المكتبة الملحقة بالمتحف إلى « زنودوتس » البيزنطي Zenodotus of Byzantium وأمدّه بعلمين في علم المكتبات يساعده على تبويب « الرواية » وتقسيمها إلى « فاجعة » و « هازلة » — هما الاسكندر أنوتوليان وليسكوفورون ، في حين قام « زنودوتس » منفردا بتبويب الشعر الغنائي والشعر الروائي . من هذا نرى أن الاتاج الادبي المحلي في الاسكندرية كان بالإضافة إلى الادب الموروث عن اليونان ، يكون ثروة كبرى ، لا يقوى على تبويبها شخص واحد . وكثيراً ما وكل أمر المكتبة إلى أكثر من

أمين، واحد، ويتضح من ذلك عظم محتوياتها وتشعب العمل فيها .
ولقد كان ذلك العمل الجليل الذي قام به « زنودوتس » ومساعداه
وتابعه من بعدهم الشاعر الفيلسوف « كليماخوس » ، عظيم الأثر في
حفظ الثروة الأدبية اليونانية ، والتعليق عليها بما كفل لها حياة خالدة
أفادت الباحثين في تراث الاقدمين فائدة كبرى .

ولم تنف جهود علماء هذا العصر عند التعليق والت نقد ، بل تعدتها
إلى الوضع والتأليف . وكان العلماء يجدون في جزيرة « قوس » Cos
من جزر بحر ايجه مهرباً من ضوضاء المجتمع الاسكندري ، وهناك
أخذوا ينتجون في هدوء تلك الجزيرة ما قدر لهم أن ينتجوا . وما
يؤسف له أننا لم نتمكن بما كتب الاسكندريون في نقد الأدب اليوناني ،
وإن كنا قد فرنا ببعض ما وضعوا من الأشعار .

وأقوى شعراء هذا العصر على الإطلاق « ثيوكرتس » Theocritus
الذي صن بفنه أن يذهب بحمالة ملق أورياه ، فلم يسخره للمديح ،
وآثر أن يكتب عن الحياة الريفية في صقلية ، فوصف وهاد الجزيرة
ورباها ومراعيها وغاباتها وصفاً رائعاً ، وصور حياة الرعاة فيها أدق
التصوير — غُلق بما كتب روحاً جديداً في الشعراء الاسكندري ، بعد
كل البعد عن ذلك الزيف الشعري ، الذي جرى على السنة كثير غيره
من شعراء العصر .

ويؤخذ على « فيلادلف » حبه الشديد للملق ، وهو في هذه
الناحية يشبه « لويس الرابع عشر » . وكان في بلاطه تنافس بين
النساء على نيل الحظوة عنده ، وتنافس بين رجال الأدب في

التقرب منه — وإلى هذا يعزى ضعف الادب في جملته ، ويرجع السبب في قلة غنائه .

ومن مآثر « فيلادلف » على الزمن أنه كلف « مانيتون » Manethon بنقل تاريخ مصر إلى اللغة الاغريقية ، ولهذا العمل أهميته ، فقد ظلت المصادر اليونانية في تاريخ مصر العباد الوحيد في تاريخ البلاد إلى أن كشف « حجر رشيد » ، وأمكن الاتصال بأخبار المصريين القدماء اتصالاً مباشراً ، بطريق حذق « الهيروغليفية » رأساً .

وفي عهد فيلادلف قام جماعة من فلاسفة اليهود بترجمة التوراة إلى اللغة الاغريقية بأمر من الملك ، فظهرت النسخة المعروفة باسم « التوراة السبعينية » . ويونانيتها نموذج رائع من الاساليب اليونانية ، يرتفع كثيراً عن مستوى اليونانية التي كانت شائعة حينذاك في المستعمرات الاغريقية .

وعشر « سير فلندرز پتري » على مجموعة من أوراق البردى في منطقة الفيوم تحمل الآن اسمه ، هي قطع من « هومر » و « أفلاطون » و « يورپيدز » و « السكوميديا الجديدة » وغير ذلك من الشعر والنثر اليوناني ، نسبها جميعاً إلى عصر « فيلادلف » ، حيث كانت تقيم الفيوم على عهده جالية يونانية مثقفة ، تقرأ الادب وتتذوقه — وهي محفوظة كلها بالمتحف البريطاني .

ولا مفر من أن نذكر هنا أن عصر بطليموس فيلادلف امتاز برخاء مادی منقطع النظير — ولا بد أن يكون اتفاقه على معاهد العلم

وأندية الأدب ، وشراء الكتب لمكتبة المتحف ، قد بلغ حدا كبيرا من السخاء وبسط اليد .

هذا وقد أغراه تقدم المدينة التجارى ، على بناء أكبر «فنار» عرفه العالم القديم — بل والعالم الحديث أيضا ، ذلك الفنار الذى ما يزال يعد أعجوبة من أعاجيب البناء ، شاده له المهندس اليونانى «سوستراتس» Sostratus فى مفرق الميناءين الغربى والشرقى ، فى الطرف الشمال الشرقى من جزيرة «فاروس» Pharos واتخذ الفنار اسم «الفاروس» واشتهر به .

والفنار فى ذاته — بغض النظر عما كان فى المدينة من الابنية العامة ، نموذج فذ لتقدم فى البناء فى ذلك العصر الممعم فى التقدم ، وهو إلى ذلك ، دليل على تقدم علم الهندسة العملية ، وعلم الطبيعة الذى استعان به «سوستراتس» على إقامة قاعدة البناء الضخم فى ماء البحر ، ووضع المرأة الكبرى ذات الأشعة الحارقة فى قفته — بما كان لها من خصائص أحاطتها الافاصيص بكثير من المبالغات التى تجعلها فى عداد الاساطير .

ولكن — ترى هل كانت نظرية العدسات قد عرفت فى مثل ذلك الزمن ؟ وإن صح أنها عرفت — فهل كانت معرفتها فى بلاد اليونان — أم فى الاسكندرية ؟ وفى هذا يؤكد «ه . ج . ولز» فى تاريخه قعود الاسكندريين عن الاستفادة العملية من نظريات علمائهم . على أنه ليس غريبا فى عصر تقدمت فيه علوم الطب إلى حد ممارسة

نظرية التشريح الحى ، ورقت الهندسة إلى درجة العلوم الرفيعة ، أن تعرف نظرية العدسات ، وأن تستخدم أستخداما عمليا .

• • •

وهناك خلاف بين المؤرخين فى أمر مكتبة أنشئت بالمدينة بعيدا عن البحر فى موضع السراييوم ، عند ما ضاقت أبنية المكتبة الملحقة بالمتحف بكتبها ، يؤكد « كليل » Klippel أنها أنشئت حوالى عام ٢٥٠ ق. م. — فى حين يرى « ماطر » Matter أن الذى أنشأ هذه المكتبة الفرعية هو بطليموس أورجيتس الثانى (١٤٦—١١٧ ق. م) والأرجح أنها انشئت قبل عام ٢٥٠ ق. م بقليل ، وأن منشئها هو بطليموس فيلادلف . وعرفت هذه المكتبة باسم المكتبة « الوليدة » بالنسبة لمكتبة المتحف الكبرى التى ظلت تعرف باسم المكتبة « الام » .

الفصل الثالث

في عصر بطليموس الثالث «أورجيتس الاول»

(٢٤٧ / ٢٢٢ ق م)

أورجيتس وبهاء عصره - إراتوستينز عالم الأدب - دوسيتروس وكانون - قنطلة من إراتوستينز ينصها اليوناني وترجمتها العربية - أدب هذا العصر بوجه عام - المجموعات الألمانية المختوية على أهم الآداب المختلفة من عصر البطلمة - أرسطافانيس البنز نطلي وعقد الأشعار الهومرية .

هذا العصر في رأي بعض المؤرخين أزهى عصور جامعة الاسكندرية إنتاجا إذ وكان المتحف والمكتبة أظهر ما في الاسكندرية في عهد بطليموس الثالث . ويذكر سوزمیل Susemihl أن ميول بطليموس الثالث «أورجيتس الاول» كانت علمية بحتة ، فقد كلف بدراسة العلوم كل ما لا حد له ، في حين كان شغف سائده « فيلادلف » قاصرا على علمي النبات والحيوان . ويرجع الفضل في كلف « بطليموس الرحيم » بالعلم إلى هذا الحد ، إلى « إراتوستينز » Eratosthenes العالم الرياضي الأدب ، الذي استدعاه «أورجيتس» من « أثينا » ليحل محل « كلياخوس » أمين المكتبة بعد موته ، وليكون أستاذا خاصا لولي العهد — و « إراتو » ، بعد بحق ، لسعة معارفه ، وعلو كعبه في العلم « أفلاطون » عصره ، فقد صنف في الهندسة والنحو والفلسفة إلى جانب الجغرافيا والفلك .

شغل « إراتوستينز » وشغل معه أعضاء المتحف بمباحث الفلك

والجغرافيا الطبيعية بوجه خاص ، وهو أول من قاس محيط الأرض
 ووجد على الاسكندرية في هذا الوقت « ارشميدس » الطبيعي المعروف ،
 ومكث بها مدة في صحة « إراتوستينز » . وفي نفس الوقت تمكن
 « دوسيثيوس » Dosithios « وكانون » Canon وغيرهما من توسيع
 دائرة العلوم الرياضية . وتبدت هذا العصر رغبة واسعة في جمع
 المخطوطات ، أغرت كثيرا من الناس على تزويرها ، ومحاكاة أوراق
 البردي القديمة ، طمعا في الكسب .

وتمتع هذا العصر بتقدم في الآداب ، سائر التقدم العلمي والرياضي ،
 ففيه بذل العلماء جهودا لا بأس بها في الميدان الأدبي . وقد كانت
 ل« إراتوستينز » نفس شاعرة ، إلى جانب عقلية الرياضية . وقد وصلت
 بعض المقطوعات الشعرية من هذا العصر ، أشهرها مقطوعة « إراتوستينز »
 في بطليموس الثالث وولي عهده ، وهي اكتشاف كبير الخطر في دائرة
 الأدب والعلم ، وهي تحمل تحية للملك العظيم ، ودعاء للملك أن
 تتوحد دعائمه ، كما تتضمن بعض أبحاثه العلمية — ففيها عثرنا على حل
 عملي للمسألة الهندسية المعروفة بإيجاد الوسطين المتناسبين بين خطين ،
 Finding two mean proportions between any two lines.

هذا إلى جانب أبحاثه في الفلك ، وأشهرها « قياس محيط الكرة
 الأرضية » ، وجهوده في ناحية الجغرافيا الطبيعية ، والخريطة الدقيقة
 التي وضعها للعالم المعروف إذ ذاك .

وفيما يلي النص اليوناني لجزء من منظومة « إراتوس » :

Εὐαίω Πτολεμαίε, πατήρ δι παιδί συνηβὼν
 Πάνθ' ὅσα καὶ Μόνοαις, καὶ βασιλεῖοι Φίλα
 Αὐτός ἐδωρήσω δδῆς ὕστερου, οὐράνιε Ζεῦ,
 Καὶ σκήπτρῳ ἐκ οῆς ἀντιάσειε Χερὸς,
 Καὶ τὰ μὲν ὥς τυλεοίτο λεμοὶ δε τις
 αὐθέμα λεύσσῳι
 Τοῦ κυρηναίου τοῦτ' Ἑράτσα θευεὸς

وترجمته العربية :

« أنت يا بطليموس حقيق بالمدح
 إذ جوت ابنك بما صبت اليه آله الشعر (١)
 وأنت ما تزال في شرح الصبا ، وميعة الشباب .
 « أما أنه (٢) سليل السماء — حقى . . .
 ولنوف ينقل اليه «جوت» ، صولجان الملك من يدك .
 « اللهم حقق رجائي ، واستجب لدعائي !
 ان كل من يسمع هذا الثناء عليك
 سوف يهمس : « هذا قريض الكرنئوس اراتوسثينز » (٣)
 والادب الذي هذا شأنه ، أدب مادة لا أدب فن . وكنا نود
 أن نحصل على شيء مما كتب شاعرنا عن الحياة الريفية في صقلية ،
 فلا شك أن ما كتبه في ذلك المعنى ، كان أصدق تصويرا للشاعرية
 « اراتوسثينز » وشعر الطبيعة ، من هذا الشعر المادح .

(١) Muses (٢) ولي عهدك

(٣) لعل في ذلك إشارة الى أنه كان شاعر البلاط .

وهكذا كان الآداب يتجه نحو الملوك يمدحهم ، ويؤيد عرشهم ،
ويتسلقهم رغبة في عطاء يبدل أو حظوة تنال .

ويحملنا « مافى » على مجموعات « كلكتوت » ، « ورتشل » ،
« وهولم » ، « وونجر » ، « وسوزميل » ، — وتحتوى جميعها على كل
ما أمكن الحصول عليه من الآداب اليونانية الاسكندرية .

ومن علماء العصر البارزين « أرسطفانيس البيزنطى » وهو
تلميذ العالم « زينودوتس » الذى مر بنا ذكره ، والعالم « كليماخوس » .
وهو ناقد أدبى كبير ، نظر فيما كتب « زينودوتس » من نقد سابق
لأشعار « هوميروس » ، وزاد من فهرس الآداب اليونانية الذى
وضعه « كليماخوس » . وشغل أرسطفانيس وظيفة أمين مكتبة
المتحف ، ونيط به أمر تربية ولي العهد .

الفصل الرابع

من بطليموس الرابع إلى بطليموس السابع

(٢٢٢ — ١١٧ ق م)

عصر انحلال - بطليموس الرابع ينرم بالآداب والتصنيف الأدبي - العناية بالحواريات - الكشف والارتداد - كراهية اليهود والتجيب الى المصريين - أرسطو تيم - التقرب من الديانة المصرية - أرسنار كاس اللثوى - هباركس الفلسكى - بوليديوس المؤرخ -

كان بطليموس الرابع على خلاف من سبقه من ملوك البطالمة ، ميالاً إلى اللهو والمجانة ، كثير الانفاق ، غير محبوب من رعيته ، يحب الملق ويصغى إلى الأقاويل — ولكنه كان في الوقت نفسه حريصاً على سمعة الدولة التي أنشأها جده « سوتر » ، حارب من أجلها « أنطيوخوس » الثالث عام ٢١٦ ق م ، وهزمه في « رافيا » ودفع خطره عن مصر .

وعنى عناية سلفه بأمر المتحف والمسكبة . ويذكر « كليل » أنه هياً لها حياة لا بأس بها ، باستدعائه نخبة من كبار علماء اليونان إلى مصر . وكان كبير الشغف بدراسة « هومر » ، دعاه حبه للشاعر اليوناني الخالد أن يقيم له معبداً بالاسكندرية تخليداً لذكراه . وكان بطليموس الرابع أديباً : وضع رواية أسماها « أدونيس » Adonis ، حاكي فيها الشاعر اليوناني « يوربيديز » ، علق عليها ومدحها وزيره المتأدب « أجاثوكليس » Agathocles .

وفي هذا العصر مالت الاسكندرية ميلا ظاهرا إلى دراسة آثار
الاغريق الأدبية والتعليق عليها وتقويتها وتخليصها من الشوائب —
واليه يرجع الفضل في تيسير الهومريات وتقريبها من أذواق العامة ،
وتعوزنا أسماء تلك النخبة من رجال الأدب الذين اضطلعوا بهذا
العمل القيم ؛ وليست دراسة «هوميروس» وتفسير أشعاره بالأمر الهين ،
ولا شك في أن ذلك كان مجهودا ضخما ، يعترف به متذوقو اليونانية
الكلاسيكية . وعن هذه التيسيرات والتعليقات أخذت أوروبا في
العصور الوسطى وأذاعت بين أديرتها . ومنذ نشأت الجامعات
الأولى واستقرت برامج التعليم فيها ، كان «هوميروس» والأشعار الهومرية ،
وغيرهما ، موضوعات هامة للدراسة فيها . يقول «سوزميل» :
« ولولا جهود الاسكندريين في هذا السبيل ، لاستبحال على العالم
الامسام بأشعار «هوميروس» سائغة مذللة الصعاب ، يتوارثها العالم
جيلا بعد جيل . »

وعنى هذا العصر فيما عني بالكشف والارتياح ، فقد فطن
بطليموس الرابع ، كما فطن بطليموس الثاني من قبل ، إلى فضل الكشف
في توسيع مدارك الاسكندريين عن العالم الخارجي والاضافة إلى علم
الجغرافية الملاحية والحصول على نماذج جديدة من النبات والحيوان —
ولهذا أوفد «بطليموس» الرائد ليخاس ، Lichas في رحلة ثانية إلى
«أثيوبيا» ، توجت بالنجاح . وأحضر الرائد معه كل ما استطاع حمله من

أنواع النبات والحيوان، وأحضر فيما أحضر عددا من القبيلة الأثيوبية .

• • •

ويمتاز هذا العصر بكراهيته الشديدة لليهود وكل ما هو يهودي، وبميل واضح إلى التقرب من المصريين والتعجب إلى ديانتهم . ومن أدلة ذلك إنشاء بطليموس معبدين بالاسكندرية أحدهما للآلهة «إيزيس» والآخر للعبود «أيس» ، — غير ما أقام من المعابد في الوجه القبلي .

• • •

ومن أشهر شخصيات الاسكندرية في هذا الزمن الشاعر الهازل «أرسطونيم» Aristonyme ، وقد كانت حياته مضطربة بين الإقامة في الاسكندرية يقول فيها شعره ويعلم فيها فنه ، والارتحال إلى ملوك «برجام» في آسيا الصغرى ، وكانوا ينافسون ملوك مصر ، وقد وكل اليه في وقت ما أمر الاشراف على المكتبة العامة . لجأ آخر أمره إلى آسيا الصغرى وعاش في كنف ملوك «برجاموس» حتى مات .

• • •

ومن أنجبهم هذه الفترة العالم الفلكي «هباركس» Hipparchus (١٦١ / ١٢٧ ق. م) أشهر فلكي العالم القديم اطلاقا — أصلح من أخطاء «أراتوستينز» . وقرر أول نظرية صحيحة لدوران الأرض حول الشمس ، خطت أول الأمر ، ولكن الأيام أثبتت صحتها . وهولذلك يعتبر المبتدع لنظرية النظام الشمسي Solar System اعترف بفضل أبحاثه العلامة «كوبرنيك» البولندي .

ومن علماء هذا العصر غير هذين ، الفيلسوف «سفيروس» Sopherus

الذى جادل الملك المتأدب كثيرا . والذى كتب فى الثروة والنجدة والمقسوم
وغيرها من الموضوعات الفلسفية . قضى آخر أيامه بعيدا عن مصر كما
فعل « أرسطونيم » ، حيث لجأ إلى « اسيرطة » وأقام بها ونبغ ومات .

ومن العلماء المعدودين « أرسطاركاس » Aristarchus اللغوى الذى
كان على رأس المكتبة الكبرى (٢١٧ / ١٤٥ ق . م) . عاونه فى أمور
المكتبة نفر من العلماء هم « دنيس » لوثرىس Denys و « فلومين »
Philomine و « ديديم » Didime . وكان أرسطاركاس إلى جانب
اضطلاع به بأمر المكتبة محاضرا فى علوم اللغة والأدب بالجامعة ،
وأستاذا للملك وأولاده . عاش حتى أدرك عصر بطليموس السادس ،
ونشر كثيرا من مؤلفات « بندار » و « سفوكليس » و « اسكليوس » ،
وعلق على الأشعار الهومرية ، وله ترتيب خاص للالياذة والاوديسى ،
ومات فى حكم بطليموس السابع فى قبرس .

ومن أبرز الشخصيات المؤرخ (بوليبيوس) Polybius
(٢٠١ / ١٢٠ ق . م) وهو ليس أسكندريا ، ولكنه اختلف إلى
المدينة كثيرا . وله تاريخ عن « مصر » يتصف بالغموض ، أهم ما فيه
وأوضحه ، ذلك الفصل الذى عقده لتتويج بطليموس الخامس ، فيه
نرى وصفا دقيقا رائعا لمدينة الاسكندرية .

الفصل الخامس

من بطليموس السابع إلى كليوباترة

(١١٧ ق. م — ٤٨ ق. م)

أورجيتس ثنائي — نهضة علمية عامة في المستعمرات الهلنيزية — كراهية لبعض رجال العلم وأشتيتهم لهم — أثر ذلك التشتيت — وضوح سياسية الانتفاض على الحضارة الهلنيزية — تدهور المتحف الاسكندري بعده مباشرة — الملك يؤلف ويرجم بعض العلماء حوله — هو تليد لارستاركاس — التعلق على دومر — مجالس المناظرة — شغل أورجيتس بجمع الكتب ومناقبه للوك رجامرس — جهود الحالة الدولية في زمن بطليموس الثالث عشر ووقوف دولاب العمل في المتحف — آخر عهد الاسكندرية بقوة الانتاج — عصر كليوباترة — الميل إلى الفلسفة — أثر اليهود .

يقول ، أثنوز ، Athenaeus نقلا عن مؤرخ اسكندري يدعى « منكليس » Menekles إنه كانت هناك نهضة علمية في جميع أنحاء المستعمرات الاغريقية على طول عصر بطليموس السابع ، وذلك بالنسبة لما كانت عليه الحال في بلاد اليونان . وعلى الرغم من ذلك كانت في نفس الرجل موجدة لا يعرف سببها على رجال العلم عامة . ولعل الخلافات العائلية بين البطالمة هي التي أخفقت نفس بطليموس السابع على علماء عصر بطليموس السادس ، فتنى منهم الكثير إلى الجهات النائية . وهناك أخذ الفلاسفة ورجال اللغة والهندسة والموسيقى والفن يعلمون مأجورين على تعليمهم ، بسبب ما اعتراهم من جراء هذا التشتيت من الفاقة وضيق ذات اليد — ويذكره أثنوز ان الاسكندرية كانت في

هذا العهد كعبة العلم ما تزال ، يؤمها القصاد من بلاد اليونان ذاتها . ويقارن « شارب » Sharpe أثر هذا الحادث الذي دفع بهؤلاء العلماء الاسكندريين إلى خارج المدينة ، بالآثار التي نتجت عن فتح القسطنطينية على يد « محمد الفاتح » ١٤٥٣ م — ذلك الفتح الذي كان من أثره نشر العلم في أنحاء القارة الأوروبية ، بسبب هجرة العلماء من القسطنطينية .

ويلحظ الباحث في تاريخ هذا العصر ، أن سياسة جديدة أخذت تعلن عن وجودها ، ترمى إلى « تمصير » البلاد وإزالة الصبغة الهلينية عنها ، وكان ذلك على حساب العنصرين اليوناني واليهودي معا . بدأت بوادر هذه الروح تدب منذ أيام « بطليموس الرابع » . ويعجب الإنسان إذ يلحظ هذا ، ويحار في تعليقه — سيما ولم تكن قد مضت مدة طويلة على بذور بذور الحضارة الهلينية في البلاد — أما بطليموس السابع ، فقد خضع بمرور الزمن لتقاليد المصريين ، وانحاز إلى حضارتهم ، واستسلم لسلطانها القاهر .

والذي يهمننا من هذا نتيجته المحتمومة — ألا وهي الغض من شأن الثقافة الهلينية . وتعودنا الأدلة على حيوية المتحف الاسكندري أو الجامعة ، في هذا العصر الذي ينسب إليه (رغم الروح الجديدة التي بدأت تسود البلاد) ظهور عدد من أقدر رجال العلم الاغريق ، هو المتحف من بعدهم هويًا شديداً — حتى لكأنما كانت تلك صحوة الموت !

وكان الملك نفسه فضلا عن حمايته للعلماء ، مؤلفاً وناقداً . « وأرستاركاس » Aristarchus أظهر شخصيات الادب في هذا

العصر؛ وله تعليقات على الأشعار الهومرية . وكما وضع بطليموس «سوتر» مذكرات عن مغامراته في الشرق ، وضع «بطليموس السابع» مذكرات شبيهة بها عن حملاته الحربية .

وعلى الرغم من أن بطليموس السابع استبعد عدداً من صفوة رجال العلم أول عهده بالحكم ، فإنه عدداً آخر منهم بقى في الاسكندرية موالياً لخدمته للتحف — يذكر «ماتر» Matier أنهم لم يكونوا على جانب كبير من الثقافة ، واليهم يرجع الفضل في اكساب مجلس الملك روحاً أدبياً على كل حال .

° ° °

وهاك قطعة منسوبة إلى بطليموس «أورجيتس الثاني» (الحسن) ، فيها تعليق على بعض الهومريات التي شغف بها العاهل كل الشغف — عرف فيه رجال بلاطه من المتأدبين هذا الميل . فكثير ما كانوا يتناقشون في مجلسه إلى ساعة متأخرة من الليل . وهذه القطعة محفوظة ضمن مجموعة سوزميل Susemihl

Πτολεμαῖος ὁ δεύτερος Εὐεργέτης παρ' Ὁμήρω (ε 72) ἀξιοῖ γράφειν «ἀμφὶ δὲ λειμῶνες μαλακοὶ οἷον ἤδε σελῖνη». οἷα γὰρ μετὰ σελίνου φύεσθαι ἀλλὰ μὴ ἰα, (Athen. ii 61, C, and also) οὕτως δε και Πτ. φιλομαθεῖν δοκοῦντι περὶ γλῶττην καὶ οἰκιστοῦ καὶ ἱστορίας μαχόμενοι μέχρι μέσων νυκτῶν ἀπέτειναν. (Susemihl. i. 9.)

اشتغل بطليموس السابع بالأدب ، ، ونقد الآداب اليونانية ، وهو في هذا يمثل شغف الاسرة عامة بالدراسات اليونانية القديمة ، وحبها لرجال الأدب وحمايتهم - وليس من شك في أن ذلك قد ساعد على رواج الحركة الادبية في المتحف الاسكندري وفي بلاط بطليموس . وكان أرسطاركاس ، شيخ الأدباء النقاد في هذا العصر ، وهو من كبار المعلقين على اشعار هومر كما قدمنا ، ويعتبر استاذاً لسيده بطليموس في هذا المضمار .

وفي هذا النص المثبت في مجموعة « سوزميل » ، نرى بطليموس يحمل الناس على تفسير كلمة « ايون » التي في « هومر » بأنها نبات يكسو سطح الماء الراكد ، هو إلى فصيلة النباتات الدنيا (١) أقرب ، وهو لهذا أبعد ما يكون عن فصيلة الازهار - وبطليموس بتفسيره هذا يدحض آراء بعض النقاد شارحين لهومر .

وإن دل هذا على شيء ، فهو دال على أن البطالة الذين كانت « سوتره » أولهم شغفاً بالدراسة والبحث والتصنيف ، قد أفادوا كثيراً من اشتراكهم في مجالس المناظرة ، كحياة للأدب ، أو كأشخاص في الحوار - فأصبح من بينهم مع الزمن ، الباحث والناقد والاديب . ويشبه البطالة في تشجيعهم للأدب وترأسهم لمجالسه ، خلفاء العباسيين الذين كانوا يعقدون مجالس المناظرة ، ويصرفون في شهودها أوقاتاً طويلة - وكانما التاريخ يعيد نفسه في هذه المسألة ، شأنه

في غيرها من المسائل : ففي عصر المأمون العباسي حتى وطيس الجدل بين الأدباء والشعراء ، ولذا للخلفاء أن يشهدوا هذا الوطيس الحامي ، على نحو ما لذ لسابقيهم من عواهل البطالة أن يشهدوه سواء بسواء . ولعل هؤلاء هؤلاء كانوا يقصدون بما فعلوا إلى اذكاء روح الجدل والمناقشة ، واستثارة القرائح — أو لعلمهم كانوا يشبعون به رغبة خاصة في نفوسهم .

ولقد أفادت الحركة الأدبية والفلسفية في العصرين من جراء هذا التناظر كثيراً من أسباب نموها وازدهارها .

* * *

وعلى الرغم مما ينسب إلى بطليموس السابع من موقف غير محمود مع نفر من علماء عصره ، فإنه يتمتع بسمعة أدبية عجيبة ، والمعروف الذي يذكره الرواة أنه كان حريصاً كل الحرص على تزويد مكتبة الجامعة بنقائس الكتب . وكثيراً ما أرسل الرسل من التجار وغيرهم يبحثون له عن المخطوطات اليونانية — وقد يكون السبب الدافع له على ذلك حبه لاقتناء الكتب . رغم ما انطوت عليه نفسه من كراهية لنفر من العلماء . كما قد تكون رغبته في منافسة ملوك «برجام» بآسيا الصغرى هي السبب ، وكانوا في ذلك الحين يجمعون مكتبة كبرى في عاصمة ملكهم ، وليس أدل على ذلك مما يروى من أن «بطليموس السابع» منع اصدار البردي المصري إلى «برجاموس» — فاتخذ البرجاميون «الرق» Parchment بدلا منه في كتابة المخطوطات — وكان ذلك من خير العلم في مستقبل الزمن ، إذ

بذلك كسب العلم مادة أبقى على الدهر من البردى — كان لها فضل الاحتفاظ به قروناً عدة .

• • •

وليس صحيحاً ما يقال من أن بطليموس السابع أنشأ مكتبة السرايوم ، وهي المكتبة التي احتفظت بعدد كبير من كتب القدماء في الوقت الذي أحرقت فيه المكتبة الكبرى في حي البروكيوم ، عام ٤٨ ق . م . وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام على عصر بطليموس فيلادلف .

ومنذ عام ١١٧ ق . م ، أي منذ قضي بطليموس وأورجينس الثاني ، وقعت البلاد فريسة للخلافات الأسرية بين أفراد البيت الحاكم . وفي هذه الحقبة من الزمن تدخلت روماء في شئون البطالمة وشئون مصر الداخلية ، بسبب التجار هؤلاء إليها يتغنون عندها حلولاً لمشاكلهم الخاصة ، وفي هذا النزاع الذي طال أمده ، أفقرت البلاد ، ولم تعد قادرة على تزويد المتحف ، ومكتبته بالكتب . وشغل بطالمة العصر الأخير بالانقسام والتنافس على العرش عن أمور العلم . وكان هذا آخر عهد الجامعة والمكتبة معا بالقوة والانتاج .

وجرت الأمور على هذا المنوال حتى عصر بطليموس الثالث عشر ، وفي عهده جمدت الحركة العلمية في الاسكندرية ، وفقد الجمهور السكندري صبغته اليونانية ، وغدا — وكان ذلك من حسن الحظ — مصرى النزعة . وكاد دولاب العمل يتوقف نهائياً ، في المتحف الاسكندري .

وعلى الرغم من كل هذه الاحداث الهامة، ظهر في عصر «كيلوباطرة»
الذي يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين عهدين، نفر من تلاميذ
«ارستاركاس» أشهرهم «ديونيسيوس الثايرسي» Dionysius
Le Thrace، الذي درس أولا في روما، ثم رحل الى الاسكندرية
وعلم في جامعتها.

وفي عهد كيلوباطرة نشطت حركة كشف جغرافي ترأسها
«إبودوكس» Endoxe الذي رحل الى الهند للتجارة والكشف.
ومن به ذكرهم في هذا العصر الطبيب «ديسكوريدس» Dioscorides
وله مؤلفات كثيرة في الطب، وهو غير «ديسكوريدس» الباقى
المعروف صاحب كتات العقاقير الذي نقله العرب.

ويصف «ماتر» Matter الاسكندرية في هذا العصر الجديد، بأنها
كانت وكرا لبعض فلاسفة اليونان ازوت فيه اشخاصهم وجهودهم،
لأن أعظم ما كان يشغل بال الاباطرة، لم يكن علما ولا أدبا ولا فلسفة،
وانما كانت الإدارة والنظام واستتباب الامن شغلهم الشاغل. وليس
بعريب، والحال كذلك، أن ينزح علماء الاسكندرية الى «روما»
موطن الاباطرة وكبار الرومان. وهناك استطاع هؤلاء أن يجدوا
شيئا من التقدير لادبهم وفضلهم. وكان ذلك من سوء حظ الاسكندرية.
غير أن هذا التحول، كان من شأنه اضطلاع نفر من فلاسفة اليهود
في الاسكندرية بأمور العلم والفلسفة. ولا غرابة، فقد احتفظ اليهود
بكثير من كنوز العلم منذ فرق «أورجيتس» الثاني، شمل علماء الاسكندرية،
ومنذ مالوا هم الى دراسة الفلسفة وخطوها بتعاليمهم الدينية —

ومن زعماء هذه الحركة العلمية اليهودية «أرسطوبيول» Aristobule و «فيلون» Philo الاسكندري ، وتحمل مصنفاتهم في هذا العصر اسم «الهليزيم» Hellenisme .

شغلت الحروب بين مصر وسوريا «بطليموس الخامس» عن الالتفات الى الشؤون الداخلية ، كما شغلت المنازعات العائلية ومسألة التنافس على وراثة العرش ملوك البطلمة عامة على طول القرنين السابقين على الميلاد — وربما عجز تأخر الجامعة وتدهور الحركة العلمية الى هذين السنين دون غيرها .

وفي هذه الفترة بدأت الاسكندرية تفقد مكانتها العلمية والأدبية وتتخذ مظهراً جديداً من مظاهر الفكر الانساني ، فقد اتجهت منذ الحلقات الأخيرة من القرن الثاني قبل الميلاد نحو دراسة الفلسفة ، واجتمعت فيها في القرن الأول قبل ميلاد المسيح مذاهب متباينة منها مذهب الشك ، ومذهب الفيثاغورية الحديثة ومذهب خاص اخذته الاسكندرية عن الأكاديمية الجديدة (فلسفة أفلاطون) .

ومنذ استلبت روما مكانة الاسكندرية العلمية بسبب سقوط مصر في أيدي الرومان ، ضعف بها شأن اللغة الاغريقية بالتدريج ، وشاع استعمال اللغة المصرية «الديموتيقية» في أعقاب ذلك . ولكن على الرغم من هذا التحول ، بقي اليهود في مصر حافظة على العلم اليوناني واللغة اليونانية ، وعبروا بهما ميلاد المسيح ، وعدت خزانة كنوزاً للعلم اليوناني الوثني في العصور التالية للميلاد ، وظهر منهم كثير من

المتصلعين في نواحي العلم في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعده ، وكان لهم أدب ديني يتفق كل الاتفاق مع تعاليمهم الدينية والأخلاقية ، ويتشبه مع ما تورههم من ، حكمة سليمان .

وكرمهم لفضلهم ملوك البطالمة ، فيما عدا واحد منهم أو اثنين . وعاشوا في معزل عن جمهور الاسكندرية ، وسلبوا من حركة الانتقاض على الثقافة الهلينية ، وكان ذلك من حظ الاسكندرية ، إذ استطاع محبو العلم اليوناني أن يجدوا عند هؤلاء علماء أعادوا به إلى المدينة ، بعد انقضاء زمن على ذلك التحول السياسي الذي حرم الاسكندرية مكانتها العلمية الممتازة ورفع من شأن روما .

وكان أول أستاذ اسكندري علم الفلسفة ، بعد إذ انتقلت دراستها إلى روما ، « فيلو » اليهودي الاسكندري ، تلميذ عليه طلاب كان على يديهم أحياء العلم الوثني الذي ناضل المسيحية وناصلته ، في القرون التي أعقبت الميلاد ، حتى عام ٣٩١ م ، وهو الوقت الذي اندك فيه صرح الوثنية نهائياً بتخريب « السرابيوم » .

الباب الثالث الجامعة في العصر الروماني الاول

• الجامعة في المتحف •

٤٨ ق. م — ٢٧٣ م.

الفصل الاول

حريق المتحف والمكتبة - مكتبة برجاموس - اصلاح التقويم الروماني في الاسكندرية - أخذ علم المساحة عنها - نقل النظام المالي وتقاليد البلاط الى روما - تتبع مختصر للتروة العلمية اليونانية - الاسكندرية ما تزال وكر الدراسات اليونانية - انتماء روما من الوجهة العلمية على حساب الاسكندرية - علماء عصر كليوباترة - الاباطرة ومدى مؤازرتهم للعلم - الامبراطور كلوديوس والسكودريوم - سوسيجين واسترابو واجزنارفس - فسبازيان وهديان وماركوس أوريليوس واهتمامهم بالعلم - كراكلا ومكتبة العلم الاسكندرية - الاركاديوم والابانجيليوم •

دب الخلاف بين أبناء بطليموس السابع (أورجيتس الثاني) ، وتأمر ابنه الاسكندر على أمه كليوباترة قتلها ومنذ ذلك التاريخ دب الانقسام الشديد بين البطالمة . وفي عهد بطليموس الحادي عشر تدخلت روما في أمور البلاد حين لجأ هذا إلى أسرافها ليعينوه على استرداد عرشه .

ومنذ ذلك الوقت ، وبسبب النزاع الذي قام بين كليوباترة (١)

وأخبرها بطليموس على العرش ، أتيح للرومان أن يتدخلوا في أمور البلاد بشكل عملي .

ولما انتصر قيصر على خصمه «يومي» في موقعة «فارساليا» المعروفة ، هرب «يومي» إلى مصر وقدر له أن يقتل فيها . وحضر «قيصر» إلى الاسكندرية عام ٤٨ ق . م . مخفيا أغراضه الحقيقية الاستعمارية ، ولكن المصريين رأوا في مجيئه إلى بلادهم بجيش وأسطول اعتداء على العزة القومية ، فشارت ثائرتهم لذلك ، وزاد الطين بلة أن كليوباترة التي كانت قد هربت إلى سوريا ، عادت فتسللت إلى الاسكندرية منتبهة فرصة وجود قيصر بها ، متخذة منه عوناً لها على أخيها ومناصريه من الأوصياء عليه .

وانفجر بركان الثورة دفعة واحدة ، وجهز الأوصياء على الملك الصغير جيشاً يفوق جيش قيصر عدداً ، وتخرج مركز قيصر ، وانحصر بين الثوار في المدينة والبحر ، حيث كانت قطع الأسطول الروماني راسية في الميناء الشرقي . وفي هذا المأزق الحرج اضطر قيصر أن يشعل النار في السفن ، ليمتد منها لهيب يصيب البروكيوم ، والغواصة المجتمعين فيه وامتدت ألسنة النيران في هذا الحريق التاريخي إلى مخازن الذخيرة البحرية ، ثم اتصلت توالاً بالابنية العظمى في حي البروكيوم — فأصابت المتحف والمكتبة المحلقة به .

ومن أعجب الأمور ألا يشير إلى هذا الحريق «شسرو» Cicero

المؤرخ المعاصر لهذا الحادث الجلل. وهو لا شك عن كان يحزنهم أمر هذه الخسارة الأدبية. وسكت عنه أيضاً مؤرخ آخر زار الاسكندرية بعد ذلك الحادث بخمسة وعشرين عاماً، هو «سترابون». والمقول أن سكوت «سترابون»، كان بتحريض من الحاكم الروماني الذي حرص ألا تفرق خسارة جسيمة كهذه باسم قيصر الرومان. وأول ذكر صريح للحادث ورد على لسان الخطيب الروماني «سكاه». ولا بد أن يكون هذا الحريق قد أحدث أعظم الخسائر الأدبية، بأعظم مكتبة عرفها العالم القديم على الإطلاق.

واستولى قيصر بهذا الحريق على حي البروكيوم — وعهد إلى الاستيلاء على الميناء الغربي، ولكن جمهور الاسكندرية قام وعلى رأسه الأميرة «أرسنوية» شقيقة كليوباترة، يعبر عن روح السخط بين الاسكندرانيين، فأسرها «قيصر» على مشهد من أختها الملكة التي لم تحرك ساكناً.

ويذكر «بلوتارخ» أن «مارك أنطوان» أهدى كليوباترة مكتبة «برجاموس» العظيمة لتعويض بها الخسارة الفادحة التي حلت بالاسكندرية من جراء الحريق الكبير في البروكيوم.

ولا شك أنه كان لهذه الحوادث المؤسفة أثرها السيء على سير العلم في الاسكندرية. ومهما يكن من الأمر فقد أفادت روما كثيراً على حساب الاسكندرية — على نحو ما سوف نراه مفصلاً فيما بعد.

ويذكرون أن قيصر استطاع بفضل علماء الاسكندرية وجامعتها

أن يصلح التقويم الروماني ، وأن يحقق طول السنة الشمسية ، التي حددت في الاسكندرية بثلاثة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم ، وعرف التقويم منذ ذلك الحين بالتقويم « اليوليوسى » نسبة إلى « يوليوس قيصر » . كما يذكر أيضاً أن قيصر نقل عن الاسكندرية . علم المساحة ، الذي استخدم منذ ذلك الحين في أغراض خاصة بتنظيم الامبراطورية الرومانية . وعن الاسكندرية استعمار الرومان نظامهم المالى الذى عم استعماله أنحاء الامبراطورية كلها .

وتقوم الشواهد على أن الرومان نقلوا بعض التقاليد الهلينية من بلاط الاسكندرية إلى بلاط روما — وغدا الاسكندر البطل الهليني ، مؤسس الاسكندرية المثل الاعلى الذى احتذاه الرومان فى إقامة صرح امبراطوريتهم العظيمة .

وبهذا التحول السياسى الذى أخضع مصر لروما . بدأت الاسكندرية عصرأ جديداً من عصورها ، زالت فيه الصبغة الهلينية عنها زوالاً يكاد يكون تاماً .

ولا يذكر المؤرخون كثيراً عن حالة الاسكندرية العلمية فى هذا العصر سوى ما كان من أثر ذلك الحريق الذى قضى على المكتبة الكبرى ، وتلك الهدية القيمة التى قدمها (مارك أنطون) من كتب مكتبة (بروجاموس) لتعويض الخسارة الفادحة التى حلت بالمدينة .

ويذكر المؤرخ (شارب) Sharpe هجرة نفر من العلماء اضطروا

إلى ترك الاسكندرية بسبب اضطهاد «أورجيتس الثاني» ، وانتجاع جزر بحر «إيجية» ، التي اتخذها الفلاسفة الاسكندريون والعلماء مهربا من اضطهادهم .

ولاندري مدى لانتشار العلم الاسكندري على أثر ذلك ، لأن التاريخ لم يحدثنا عنه بأكثر مما يقرره «شارب» ، من ذبوع العلم على أثر هذا الحادث — على نحو شبيه بذبوعه في أثر فتح العثمانيين للقسطنطينية .

وقد مر بنا ذكر ما كان لليهود من فضل الاحتفاظ ببعض من الثروة العلمية ، عندما سلموا من الحركة العدائية التي قامت تعارض كل أثر هيلني في مصر . وبقى هؤلاء أمناء على العلم إلى ما بعد الميلاد ، حتى استطاع المشغوفون به أن يستردوا منهم الأمانة التي حملوها ، وأن يفيدوا العالم بها — وهكذا ظلت مكاتب اليهود الخاصة تحتوى كثيرا من كنوز العلم الاسكندري ردها من الزمن .

هذا وقد أودعت كتب «برجاموس» ، وهي ذخيرة علمية يونانية عظيمة القيمة في مكتبة «السرايوم» ، فأضافت كتبها إلى هذه المكتبة الفرعية التي كان قد أقامها «فيلادلف» إضافة ذات بال . وبقيت هذه المكتبة مرجع العلم الوثني حتى أواخر القرن الرابع الميلادي . على أن جامعة الاسكندرية لم تعد من الاباطرة من ناصر الحركة العلمية بها . والمعروف أن الامبراطور «أوغسطس» (٣٠ ق.م/ ٤١ م) كان محبا لليونانية ، لغة وثقافة — اختار لحكم مصر واليا مشغوقا بالعلم محبا للأدب ، هو «كورنيليوس جالوس» ، وفي ولايته نالت الجامعة

قسطاً لا بأس به من العناية ، غير أنه تعوزنا الأدلة المسادية على غنا
الانتاج في هذه الفترة .

وكان الامبراطور «كلوديوس» (٤١ / ٥٥٤م) محبا للعلم والتاريخ
بصفة خاصة . وكان له شغف بالغ بدراسة اللغة اليونانية ، وضع
مؤلفا في تاريخ القوطاجيين والأترورين باليونانية — والمعروف
أنه وسع الجامعة ، وأسس معهدا جديدا أطلق عليه اسم «الكلوديوم»
لعله كان معهدا يونانيا رومانيا يعني بالتشريع الروماني والدراسات
اليونانية في آن معا ، كان موقعه بالقرب من عمود دقلديانوس .

ومن عرفوا بأبحاثهم الفلسفية في هذا العصر «سوسيجين» Sosigène
ومن المؤرخين الثقات الذين أنجبهم هذا العصر «سترابون» Strabon
الاغريقى الذى جال في كثير من أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وحضر
إلى مصر وزار دلتاها وصعيدها ، وصحب إليها في جولاته في
ربوعها مكرما ، كتب في الجغرافيا كما كتب في التاريخ . وعليه اعتمد
«بلوتارخ» ، «چوزيفس» اليهودى — «يوبزيب» من بعدهما .
ومن أسف أن كثيرا مما كتب في التاريخ قد هلك ، ولم يصلنا منه
شيء . وكل اعتماد المؤرخين على «سترابون» إنما هو اعتماد في الحقيقة
على جغرافيته ، لا على تاريخه .

وحاضر في الاسكندرية «اكرناركس» Xenarchus من اشباع

أرسطو، درعس فلسفته للاسكندريين في هذا العصر — وعليه تتلذذ
«أرسطون» Ariston الجغرافي الفيلسوف، الذي برع في فلسفة أرسطو.

٥٥٥

وفي عصر «قسپاريان» (٦٨ / ٧٨ م)، وكان محبا للعلم والمعلمين،
تجلت عناية الامبراطور بجمع الكتب لمكتبة العاصمة الرومانية،
ويذكرون أنه أرسل إلى الاسكندرية من يفسخ الكثير من كتبها لتزويد
مكتبة «روما» بتفائس العلم اليوناني، وفي هذا ما فيه من الاشادة
بقيمة كتب مكتبة الاسكندرية في هذا العصر الذي لا يبعد كثيرا عن
عهد إحراق المكتبة الكبرى. ونما لاشك فيه أنه قد أصبحت
للاسكندرية المكانة الثانية بعد «روما» في كل شيء من سياسة أو علم،
ولم تعد مصدر النشاط الفكري في العالم القديم، وإن ظلت وكرا
من أوكاره على كل حال.

وعنى كل من الاباطرة الذين حكموا من القرن الأول حتى منتصف
القرن الثاني بأمر العلم، على نحو ما عنى به «قسپاريان». والمعروف
عن الامبراطور «هادريان» (١١٧ / ١٣٨ م) أنه كان من محبي العلم،
المؤلفين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وأنه أسس المكتبات في
روما وأثينا، واستمع إلى علماء الجامعة في الاسكندرية عند زيارته
لها — حرص على أن يكون العدد الأكبر من أعضاء هيئة التدريس
في الجامعة من أعوانه، بغض النظر عن مقدرتهم العلمية.

ولم يقل التفات الامبراطور المستنير «ماركوس أورليوس»
Marcus Aurelius (١٦١ / ١٧١ م) إلى الجامعة وعلومها، عما كان

من سلفه — فقد كان هو فيلسوفاً وناقداً من نقاد الأدب، وحامياً للعلم وأهله .

على أن الاسكندرية وجامعتها قد لقيتا هواناً شديداً على يد الامبراطور الموتور كراكلا (٢١١ / ٢١٧ م) ، فقد كانت في نفسه موجدة بالغة على الاسكندريين عامتهم وخاصتهم . وفي عهده فقدت المدينة حريتها ، وأحصيت حركات الناس وسكناتهم ، وأغلقت معاهد العلم ، ولا سيما القاعة العامة «قاعة المستقياء» (١) ، وشرد رجال العلم ونكل بهم ، ولا سيما أتباع أرسطو من المشائين . ويرى الدكتور بوتي Botti أن الجامعة التي كان قد أنشأها البطالمة في حي البروكيوم (في المتحف الاسكندري) ، قضى عليها في هذا العهد القضاء الأخير ، وحلت محلها في الاضطلاع بمهمة التعليم مؤسسة «كلوديوس» (الكلوديوم) سالفة الذكر ، ثم مؤسسة «أركاديوس» (٣٩٥ / ٤٠٨ م) الذي أطلق عليها اسم «الاركاديوم» ثم مؤسسة «جستيان» (٥٢٦ / ٥٦٥ م) التي عرفت باسم «الايقانجيلوم» .

(١) وهي البقية الباقية من مباني المتحف الاسكندري بعد حريق ٤٨ ق . م .

الجامعة في المتحف ،

٤٨ ق ٠ م — ٢٧٣ م

الفصل الثاني

بولس الخطيب - هليودور الشاعر - حنفة الشعر في العصر الروماني - دتيس
الاسكندري - كلود جالين الطبيب - الدراسات الطبيعية - مبلاتس - وديرون ،
الهندسيان - بايس يقرب ارثيديمس وإقليدس من أقسام الناس - ديوفانتس العالم
بالهندسة والجبر - كلوديوس بطليموس الجغرافي - أين المؤرخ - أدباء لنويون
ومثليون - ديمون ، أستاذ الآداب اليونانية بالجامعة والعالم في الجبر - ابنة الفيلسوفة
هابشيا - أبولونيوس ديوسكوليس الأجرومي - مذهب الأفلاطونية الحديثة - سكاس
وأفلوطين - بروغيري (فورفيروس) - سنت أثناس من آباء الكنيسة يمارض
الوثنية الحديثة .

ربما كانت الحياة العقلية في هذا العصر قوية في الاسكندرية ،
العاصمة الفكرية ذات المكانة الثانية في العصر الروماني بعد روما .
وبما يؤسف له أن الأدلة على قوة هذا العصر أو ضعفه تعوزنا ،
والذي لدينا منها ليس إلا تنقلا لا تقوم دليلا متماسكا على قوة العصر
أو ضعفه .

حقا لقد وجدت الجامعة عناية من بعض القياصرة مثلما وجدت
من عواهل البطالة ، سيما وقد أصبح القياصرة حماة للعلم بحكم ما آل
اليهم من تراث . ولما كانت الاسكندرية تحكم من روما ، وكان القياصرة
يقيمون هناك ، فقد وكل أمر حماية العلم إلى حكام الأقاليم ، وهؤلاء عرفوا

بشيء غير قليل من القساوة وغلظة الطبع ، أقصى عنهم رجال العلم
إقصاء . ورغم هذا فقد كان بالمدينة ذلك العنصر المتأدب ، الذي تابع
الحركة العلمية وقصد إلى الإنتاج الحر — واتسمت الحركة العلمية بمنافسة
غير بريئة ، ألحقت بالعلم صغارا وضعفا شديدين . وكان أعضاء المتحف
في هذا العصر يقيمون فيه ، ويتمتعون بمزايا مادية ، ويتملقون
القياصرة بالمديح يتردد في أشعارهم وخطبهم .

وتدل الوثائق المحفوظة من القرن الثاني للميلاد على أن جمهرة
من علية القوم ورجال الدين والضباط الرومانيين كانوا جميعا
أعضاء شرف في المدرسة الفلسفية بالجامعة . وكان عميد الجامعة في
هذا العصر موظفا حكوميا ذا كفاية خاصة في الإدارة ، ولم يكن
يشرط فيه أن يكون ذا كفاية علمية فائقة .

وكان الامبراطور هادريان ، يختلف إلى المتحف ، ويشترك في
المنافشات العلمية والأدبية كأحد الطلاب ، وكان اعتماد هذا العصر على
مكتاب السراييوم والقيصريون والمكاتب الخاصة ، فلما أن تلفت
كتب المعابد من انقضاء المسيحيين عليها ، لم يبق ما يعتمد عليه
سوى المكتاب الخاصة التي كانت لنفر من محبي العلم — وقد وصلت
أوراق بردية تحمل آثارا أدبية من هذا العصر والعصر السابق عليه .
وبقيت الاسكندرية كمبة طلاب العلم من كل فج . كما كانت في
عصرها الأول ، رغم انصراف الانظار عنها إلى روما ، وذلك
بالنسبة للبكأة الرقيقة التي كسبتها لنفسها ولم تستطع الأيام أن تنزعها .
هذا — وقد كان لمدينة نقراتس ، الاغريقية في غرب الدلتا فضل

إبراز بعض رجال الأدب أمثال «بولكس» Pollux الخطيب الذي أنشأ له الإمبراطور هدریان «كرسيًا لتدريس فن الخطابة في الجامعة» وهو أيضاً ممن اشتهروا بمعرفة تامة لقواعد اللغة اليونانية .

نعمت البلاد في بحبوحة من الحرية في العصر الاغريقي ، وكانت لتلك الحرية مزاياها التي عادت على الحركة العلمية فأكسبتها طيعتها الحرة ، وباستيلاء الرومان على مصر ، أخذت روح الانتاج تضعف بها تدريجاً ، لانعدام الحرية السياسية ، وشعور الاسكندرانيين بمهانة ليس من شأنها أن تساعد على الانتاج . وشامت الاسكندرية في هذا العصر . أثينا ، إبان خضوعها لروما — إذ شغلت بمصيرها السياسي ، أكثر مما شغلت بأمر العلوم والآداب .

وأشهر انتاج متوارث عن النصف الاول من القرن الاول الميلادي ، بعض كتابات أدبية عن علاقة حب نشأت بين « نيتوس » Ninus و« سميراميس » مدونة على قطعة من البردي ، وبعض أشعار تعرف « بالاثيوبيات » (Ethiopiques) لـ« هليودور » (١) كتبها في صعيد مصر .

ومهما قيل في الانتاج الشعري البطليموسي ، فقد كان على كل حال محتفظاً بأهم مزايا الشعر ، من طلاوة في العبارة ، إلى جدة في الموضوع ، الى غير ذلك من مزايا الشعر الصحيح . أما في هذا العصر فقد تأخر الشعر تأخراً ظاهراً ، وانعدم فيه التجديد ، وهو

(١) Heliodore D'Emèse

وأن جرى في موضوعه على سنن الماضين ، إلا أنه حاكمهم محاكاة شكلية ، لم تنتج في النهاية أدباً حقاً .

وما يعرف عن هذا العصر أن كتابه كانوا من غير الاسكندرانيين . كتب منهم في عصر هديران دنيس ، الاسكندري (Denys) الذي نظم بعض الحقائق الجغرافية في قالب شعري ، والذي وصف نقلا عن خريطة بطليموس ، أرض ليبيا ، ومعظم أجزاء أوروبا وآسيا . وبقيت هذه المنظومة حتى نقلها الى النثر اللاتيني « أفينوس » (Avienus) « وپرسين » Priscien .

تقدمت في زمن البطلمة دراسة الطب ، وعرف التشريح ، وجاء هذا العصر فتابع دراسة الطب والتشريح . وفيه شرح « كلود جالين » Claude Galien المولود في « پرجاموس » ، والمتوفى سنة ٢٠٠ م في روما ، بعضاً من الحيوانات والحنازير والقردة والاسماك والأفاعي ، ووصل من ذلك إلى نتائج قيمة زادت من مكانة الاسكندرية في هذه الناحية .

وقد انتهت إلى العصر الحديث رسالتان في الطب من هذا العصر ، واحدة مأثورة عن الطبيب « بالكي » ، والأخرى تحتوي على مبادئ واضحة لعلم « الجراحة » ، لمؤلف مجهول الاسم . وعرفت الاسكندرية في هذا العصر بوجود بعض الاختصاصيين في معالجة الأورام وتجبير الكسور .

وازدهرت في العصر الروماني بوجه عام الدراسات الطبيعية والرياضية. ولولا احتقار الرومان (وهم شعب عملي) للعلوم البحتة، اللهم إلا ماله مساس بإقامة صرح الامبراطورية — لحصلنا من مدرسة الاسكندرية الطبية على نتائج أكثر قيمة مما انتهى اليها.

وأنجبت الاسكندرية في أواخر القرن الأول الميلادي ومثيلاس، Menelas وهو هندسي صرف جداً كبيراً في دراسة «الدائرة»، و«سيرنوز» Sérénos المهندس الذي خطط مدينة «ارسنويه» (السويس)، متخذاً من الهندسة التي حذقها أساساً عملياً لإنشاء المدينة — «ويابس» Pappus أظهر شخصية علمية في أواخر القرن الثالث الميلادي، وينسب اليه عمل من أجل الأعمال العلمية، هو تنظيم المسائل الهندسية الموروثة عن سالفية من المشتغلين بهذا العلم تنظيماً دقيقاً، والتعليق عليها وشرحها. وهو يعتبر بحق أول من قرب «أقليدس»، و«أبولونيوس»، و«أشמידس» إلى أفهام الناس. وكان بدوره مبتدعاً ومكتشفاً لعدة فروض علمية، بقي بعضها قائماً يمهّد السبيل لفلسفة «ديكارت».

• • •

ومن أعلام القرن الثالث، «ديوفانتس» Diophantes العالم بالهندسة والجبر ويدين له العلم، ولا سيما علم الجبر بأعظم الفضل، و«كلوديوس بطليموس» الذي استوعب علم سابقه ومعاصريه في الجغرافيا وأضاف اليهما جهوداً شخصية في موضوعها، وهو استاذ من

أساتذة العرب ، نقلوا عنه تحت اسم « المجسطى » رسالة في « الفلك »
وهي رسالة جمعت كل أبحاثه التي أجراها في معبد (كانوب) والتي
أخذها عن « هباركس » — وله جداول في حساب الخسوف في
رسالة « التتراييلوس » Tetrabilos — ولم تقف معارفه عند حد
الجغرافيا والفلك ، بل تناولت فن الموسيقى ، فوضع فيها رسالة في
(الحارموني) تعتبر إحياء وإضافة لنظرية « ارسطوكسين »
Aristoxine ، وله رسالة مترجمة إلى اللاتينية عن إسقاط الكرة :
(عمل مسقط لها) Sur le déploiement de la surface de la sphère
واعظم آثاره على الإطلاق كتاب « الجغرافيا » وفي هذا السفر دون
بطليموس كثيراً من آثار السابقين ولا سيما آراء « مارينوس الصوري »
Marin de Tyr الذي جمع معلوماته من الملاحين ومن تقارير البعثات
التجارية والحملات الحربية .

وظل كتاب « اجاثوديمون » Agathodaemon الذي تنسب إليه
معظم المخطوطات الجغرافية خرائطها ، إلى جانب مصنفات بطليموس
في الجغرافيا عمدة المشتغلين بهذا العلم في العصور الوسطى .

ويعتبر بطليموس من أوائل واضعي الموسوعات ، وقد كان
شغوفاً إلى جانب الجغرافيا والفلك بدراسة التاريخ — وله فيه
جداول زمنية عن تواريخ الملوك Canon des Rois وهي سجل لتواريخ
ملوك اشور وبابل وميديا وفارس وأباطرة الرومان حتى عصر
« انتونينس بيوس » Antoninus Pius غير أن ما كتبه في التاريخ

لا يتسأى إلى ما وضع في علمي الجغرافية والفلك .
ومن أشهر المؤرخين في هذا العصر «أبين» Appien الذي كان
أول أمره محامياً ، وانتقل إلى روما حيث أصبح حاكماً لاحدى
المقاطعات الامبراطورية ، ومات في حكم «ماركوس أورليوس» . كتب
تاريخاً حافلاً ، لم يصلنا الا في نصف حجمه ، ولم تتجاوز حوادثه
عصر «هدريان» — وهو تاريخ يعالج القوميات ، كما يتناول
الشخصيات البارزة . «واپين» لا يتصل كثيراً بالعلم الاسكندري ،
وضع تاريخه هذا باللاتينية والاغريقية . ولعله كتب هذا التاريخ
في مرحلة التحول ، أى في الوقت الذي تحول فيه العلم من
الاسكندرية إلى روما ، ومن صبغته اليونانية إلى صبغة لاتينية
رومانية ، وهو مؤرخ من الطبقة الأولى .

وانتج البحث الاسكندري في هذا العصر افذاذا من اللغويين
والبيداجوجيين ونقاد الآداب والاطباء والمهندسين والرياضيين
والفلاسفة .

ونفخت الاسكندرية من روحها المنتجة في البلاد التي أخذت عنها
وأهمها «روما» — فهذا «فيلوكسين» ، «ويامقيل» معاصره الذي جمع
التعبيرات النادرة في اللغة والآداب الكلاسيكي ، و«أرستونيكوس»
Aristonikos الذي علق على «هومر» وشرح وأكمل ونقد الحواشي
التي وضعها «ارستاركاس» من قبل .

وفي نفس العصر قام «ثيون» Theon بوضع مفردات الرواية الجادة والرواية الهازلة ، وقد أسماه المؤرخ «تيدير» Tibère «ناقوس العالم» يريد بهذه التسمية الإشارة إلى نباهة ذكره .

وكان لثيون كرسي في الجامعة لتدريس الآداب اليونانية ، وهو من العلماء المكدودين في الدراسة والبحث . ولم ينصفه المؤرخ «أبين» Appien حين وصفه بالطليل الأجوف ، وضع في التاريخ شيئاً مشكوكاً في قيمته — وله شرح لمفردات هومر Glossaire homérique ، وقد أنحى على يهود مصر في كتاباته ، ولذلك انبرى له «چوزيفس» المؤرخ اليهودي بالرد المفحم في فصل من فصول تاريخه .

و «لثيون» بمجودات تذكر في علم الجبر ، سوف يأتي ذكرها في موضع آخر ، ساعدته فيها ابنته «هيشيا» الفيلسوفة الوثنية التي اضطهدتها مسيحيو الاسكندرية ، وقتلوا .

ومن أعلام هذا العصر «أبولونيوس ديوسكوليس» Apollonios Dyscoles الذي علم «الاجرومية» بطريقة النقد التي شاعت في القرن الثالث الميلادي ، وله عدة مقالات في أنواع الكلمة Parts of Speech وفي مصطلحات اللغة Syntax ما تزال باقية للآن .

وفي هذا العصر نضج مذهب الاسكندرية في الفلسفة ، وهو في مجموعه فلسفة أخلاق وتصوف ، أخذ على عاتقه اعداد النفس إلى حالة تجرد وتفكر في ذات الله ، مستعيراً بدوره الأولى من تعاليم اليهود الدينية ومن فلسفة أفلاطون .

وزعيم هذه المدرسة الفكرية اللاهوتية ، فيلو ،
ولد فيلو اليهودى سنة ٢٠ ق. م ، وتغذى من لبانات الادب
الاغريقى ، ودرس الفلسفة الأفلاطونية ، وغاص غوصاً شديداً فى
دراسة العهد القديم ، فاجتمعت له من كل ذلك فلسفة مستمدة من
الكتاب المقدس ومن تعاليم أفلاطون ، وامتزج الجانبان فى عقله
امتزاجاً قوياً ، وكونا نظاماً فلسفياً يهودياً يونانياً .

وكان فيلو ، يمتاز بعلم غزير وأخلاق فاضلة ، وحياة كلها طهر
وتقديس هيات له مكانة سامية بين علماء عصره . شغل أول
أمره بتدريس تعاليمه شفوياً فى الأوساط الخاصة والعامة ، ثم
دونها رغبة منه فى اثباتها وإذاعتها . وبقى من عمله الضخم بعض النسخ
الخطية كاملة ، وبعض الآثار المتفرقة ، وترجمت مخططاته إلى اللاتينية .

وعلق فيلو على أسفار يهودية يجمعها اسم « البنتاتيكة » Pentateuque
(أسفار موسى) ، منها سفر خاص بالخلقة منذ وجودها إلى تأسيس
ملك بن اسرائيل ، وسفراً آخر خاص بخروج بنى اسرائيل
من مصر ، وثالث عن الاعداد ، هو استعراض لقوى العالم المادية
المختلفة — وهى بالاجمال مجموعة أقوال دينية وفلسفية وتاريخية مأثورة .
وكتب فيلو رسائل عن حياة البطارقة ، وحياة موسى عليه السلام ،
ورسائل أخرى عرض فيها لبعض الفلسفات الرفيعة والأخلاق
الفاضلة ، بلهجة وميل مسيحي ظاهرين ، وقرأ آباء الكنيسة تعاليم
فيلو ، فاعجبوا بها وشاعت بينهم ، ومن ثم تأثرت المسيحية وعلى الأرجح
بفلسفة أفلاطون قبل أن تظهر فى الوجود فلسفة الأفلاطونية

الجديدة — وبقول آخر ، قبل أن يتناول « أفلوطين » فلسفة « فيلو » ،
بذلك التنظيم الذي جعل منها نظاماً فلسفياً تصوفياً .

وأسلوب « فيلو » أول ضرب من ضروب الكتابة التبعية ،
نقلته المسيحية فيما نقلت . وتعرض فيلو لحقوق الأفراد ، فكتب فيها
وفي المساواة الاقتصادية . كما تناول فكرة الاحسان .

ولما انتشرت المسيحية في مصر في غضون القرن الثالث الميلادي
انتشارها الواسع ، نشأت في الاسكندرية حركة معارضة للمسيحية ، زعمها
« أمونيوس سكاس » المؤسس الحقيقي للدرسة الفلسفية المعروفة
بالأفلاطونية الحديثة — وتلميذه « أفلوطين » .

تتلى « أفلوطين » أحد عشر عاما على « سكاس » (٢٢٣/٢٢٤ م)
وهو مصرى النشأة والتربية والنزعة ، وفلسفته مصرية صميمية .

• • •

ونافست الأفلاطونية الحديثة الديانة المسيحية منافسة حادة ،
وكان من أثر هذه المنافسة تلك الثورات المتوالية التي شهدتها
الاسكندرية ، معقل الديانة ومعقل الفلسفة في وقت واحد .

وتشيع لهذه الفلسفة تلاميذ أشهرهم « بروفيروس الصورى » ،
الذى كتب مؤلفه خصيصاً لمناوأة المسيحية ، وكتابه هذا أكبر عمل
عدائى ضد المسيحية . وكان « بروفيروس الصورى » خصماً عنيدا
للمسيحية في القرن الثالث الميلادى .

وحوالى نهاية القرن الرابع للميلاد ، ضعفت الوثنية ، ولم تقم العقائد
المصرية القديمة على الوقوف في وجه المسيحية ، وأخذ بعض آباء الكنيسة

يتحدون الوثنية الهلينية ، ومن أشهر هؤلاء ، سنت اثناس ، الذي كتب
عام ٣١٨ م كتابه ضد الوثنية الهلينية Discour contre les Hellènes
— ومن ذلك الحين أصبحت مصر معقلا مسيحياً منيعاً ، وغدت
لها مكانة ممتازة بين الأمم المسيحية .

الفصل الثالث

« الجامعة في السرايوم »

(من ٢٧٣ — ٢٩١ م)

معبد السرايوم — المكتبة التي ألحقته به — العلم يؤول إليه مرة بعد حريق المتحف
٤٨ ق.م — يؤول إليه مرة أخرى في عهد أورليان ٢٧٣ م — السرايوم بجامعة —
النزاع بين المسيحية والوثنية — أثره في السرايوم — العرب والسرايوم .

في المكان الذي لا يزال يشاهد فيه عمود « دقليديانوس » في الاسكندرية ،
كان يقوم معبد عظيم يعرف باسم معبد « السرايوم » حيث كان
يمجد المعبود « أيس » في العصر الأغريقي . يذكر المؤرخون أنه
كان يقوم على مرتفع من الصخر الطبيعي — وصفه الدكتور « بطر »
وصفاً دقيقاً مسهباً في كتابه « فتح العرب لمصر » .

كان هذا المعبد يقع في حي « راقودة » الحي الوطني في المدينة ،
وينسب إلى بطليموس فيلادلف أنه أنشأ به مكتبة تذكر أحياناً
باسم المكتبة الكبرى (١) وعرفت أيضاً باسم المكتبة « الوليدة »
تميزاً لها عن المكتبة الكبرى التي كانت ملحقة بالمتحف في حي
« البروكيوم » ، والتي قضى عليها حريق سنة ٤٨ ق.م .

ويقال إن الذي أنشأ هذه المكتبة الوليدة هو بطليموس

(١) وهي ليست المكتبة الكبرى التي أحرقت في حصار فيصر الاسكندرية —
فذلك كانت في « البروكيوم » وهذه المكتبة التي يذكرها بطر من الخبر أن تسمى
المكتبة القوية أو الصغرى — انظر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبي حديد لفتح العرب
لمصر (ص ٢٥٧)

« فيلادلف » (١) رغبة منه في تثقيف جمهور الاسكندرية في حى راقودة الوطنى . وهناك خلاف فى الغرض من انشائها ، أحقا كان لتثقيف العامة من الوطنيين أم كانت مكتبة « السرايوم » هذه مكتبة خاصة ؟ يميل « برناردى » و « سوزمىل » إلى اعتبارها مكتبة عامة أنشئت لسكان ذلك الحى . وينكر عليهما « مافى » فى كتابه « امبراطورية البطالمة » ذلك الزعم — لا اعتقاده أن البطالمة لم يقصدوا إلى تثقيف الشعب الاسكندرى خارج حدود المتحف .

وسواء أريد بهذه المكتبة أن تكون عامة أو خاصة ، فما لاشك فيه أنها أفادت العلم عند استقراره فى معبد « السرايوم » . وفى عهد « كليوباترة » أهدى « مارك أنطون » مصر مكتبة ملوك « پرجاموس » ويرجع أن تكون كتب هذه المكتبة قد أضيف بعضها إلى مكتبة السرايوم ، والبعض الآخر أودع فى خزائن معبد القيصريون .

ومما حققه الدكتور « بطر » أنه فى أوائل العصر المسيحى أنشئت مكتبة لتخلف مكتبة المتحف المحترقة ، أودعت كتبها فى (السرايوم) أيضاً ، وعرفت باسم المكتبة الوليدة (٢) . واذن يكون قد اجتمع للسرايوم مكتبات ثلاث : الأولى مكتبة « راقودة » التى أنشأها فيلادلف ، والثانية مكتبة « پرجاموس » كلها أو بعضها ، والثالثة هذه المكتبة المتأخرة التى أريد بها أن تعرض الخسارة الفادحة التى حلت بالعلم من جراء حريق البروكيوم .

(١) راجع صفحة ٥٩ (٢) هذه المسألة محل خلاف شديد بين المؤرخين

وايداع هذه الكتب في السراييوم، دون المتحف كبير الدلالة على أن أبنية المتحف لم تعد صالحة لأن تكون مكاناً للدراسة أو الاطلاع، وأن السراييوم، أخذ يحل محل المتحف في الاضطلاع بهذه المهمة، وأن العلم الاسكندري أصبح يلتمس في بعض جهاته، في المكان الذي أعد فيه لحفظ الكتب، أو على مقربة منه.

• • •

ونحن لا نرى في وصف بطر، للسراييوم ما يفيد أن المعبد كان يحتوي على قاعات خاصة بالدراسة العامة، أو أروقة لسكنى العلماء والطلاب، اللهم إلا بعض العبارات التاريخية التي يوردها بطر عن « أفثونيوس » الذي زار السراييوم، وعن « روفينوس » الذي شهد تخريب المعبد، فأولهما يلحق المكتبة، بالمعبد، وثانيهما يرى أن حجرات الدروس كانت على الأرجح موجودة في الأبنية الملحقة بالمعبد من الخارج.

ولم يرو كتاب النصف الأول من القرن الخامس الميلادي شيئاً قطعاً صريحاً في أمر المكتبة، وأكثرهم وضوحاً هو « تيوفيلوس » الذي يذكر أن الأبنية المحيطة بالمعبد بقيت بعد التخریب قائمة بما كان فيها من قاعات الدروس وأروقة السكن، أما المكتبة، فلأنها كانت ملحقة بأبنية المعبد ذاته، فقد دمرت معه، وإن كان قد نجا شيء من كتبها فان بعض المؤرخين (١) يعتقد أن تلك البقية أرسلت إلى روما أو القسطنطينية — بينما يرى البعض الآخر (٢) أن المسيحيين دمروا

المكتبة عن آخرها في ثورتهم على الوثنيين بقيادة « نيو فيلوس »
وهم بذلك ينفون احراق العرب لها .

ويرى ماتر Matter غير هذا الرأي (ويؤيده دكتور « بوتلي » Botli)
يرى أن التخريب الذي لحق « السرايوم » كان يسيراً بحيث
أمكن اصلاحه . وبقى « السرايوم » على هذا قائماً محل عمل والمتحف
في أداء مهمته العلمية ، حتى الفتح العربي .

ويشير العرب إلى « بيت الحكمة » أو « قبة أرسطو » التي
وجدوها ملحقة بأبنية السرايوم (١) ، وفي هذه الاشارة دلالة على أن
فلسفة أرسطو كانت تدرس في « السرايوم » كما كانت تدرس من قبل
في « المتحف » — ومن عجب أن يذكر « ماتر » Matter عن « بنيامين
التوديلي » أنه كان لا يزال يشاهد في الاسكندرية في بعض أطرافها
(في السرايوم ؟) في القرن الثاني عشر لليلاد (كذا) ! مدرسة
لأرسطو ليس هي بناء مكون من عشرين ساحة ، تتصل برواق ذي
عمد ، يذهب اليه الناس من كل أنحاء العالم يتلقون حكمة
« أرسطو » ليس . .

ولا نرى مناصاً من الاعتقاد بأن العلم الاسكندري وجد
سبيله بعد حريق البروكيوم سنة ٤٨ ق.م إلى مكان آخر أنسب
لاستقراره . ولم ينتقل إلى السرايوم من هذا العلم على الأرجح
إلا المكون منه بين دقات الكتب أول الأمر — أما العلم على

(١) انظر وصف الاسكندرية عند الفتح لبطر

أقوام العلماء ، فقد بقي متداولاً في السيسيتيا ، أو القاعة العامة التي بقيت قائمة بالمتحف بعد حريقه الكبير — ظلت قائمة إلى عهد الامبراطور كركالا ، الذي أنزل بالمدينة نوازل عظيمة ، كان منها منعه للناس من الاختلاف إلى تلك القاعة العامة للدرس ، وقد تم تدمير بقية المتحف عام ٢٧٣ م على يد «أورليان» ، وذهبت السيسيتيا ، وبذاتها لجأ أعضاء المتحف الاسكندري إلى السرايوم ، أو فروا إلى البحر .

• • •

وعانى العلم الاسكندري أزمة حادة بسبب اصطدامه بالمسيحية ، فكان من ذلك نزاع عنيف بين العلم الوثني في معاقله الوثنية وبين الدين الجديد .

وشهدت الاسكندرية في القرون التالية لليلاد أشد المحن والثورات التي كان من أثرها ضياع كثير من الثروة العلمية ، واتجهت ثورات المسيحيين على الوثنيين إلى «السرايوم» باعتباره معقلاً هاماً من معاقل الوثنية ، كما اتجهت دون شك إلى غيره من المعابد . وأشيع هؤلاء المسيحيون غيظهم بتدمير الآثار الوثنية . وأقاموا على انقاضها كنائس مسيحية ، وعيشوا بمؤلفات الوثنيين ، أو حاولوا أن يتخذوا منها عوناً وسنداً للدين الجديد .

ونما يؤسف له أن هذا النزاع كان محتمداً لا يعرف سبيلاً إلى الرحمة والشفقة ، مثل المسيحيون فيه بالوثنيين المشتغلين بمسائل العلم أبشع تمثيل . وكان تمثيلهم بالفيلسوفة «هيباشيا» Hypatia ابنة «ثيون» العالم في الرياضيات والجبر ، ومعاونته في أبحاثه العلمية ، وزعيمة

من زعماء الأفلاطونية الحديثة بالغاغاية القسوة — فقد اتهمها غوغاء
المسيحيين بالسحر وقتلوا هاشر قتلة، ويعتبر تمثيلهم بها مضرب الأمثال في
الوحشية، فقد مزقوا جسمها تمزيقا في أحد محارب معبد القيصريون،
لا لذنوب سوى أنها وثنية العقيدة، مشغلة بمسائل العلم والفلسفة.
وأشد هذه الثورات هولا الثورة التي تزعمها « تيوفيلوس » في
أواخر القرن الرابع (٣٩١ م)، وفيها حطم المسيحيون المعبد تحطيا
تاما لم يبق على المكتبة، وأن أبقى على بعض الأروقة الخارجية.

• • •

بهذا نكاد نجزم بأن آثار العلم الاسكندري في السرايوم، وهي
كل ما كان قد بقي من عتاد الاسكندرية العلى، قد تلاشت في هذا
الخلاف المستحكم انتقاما من الوثنيين، وأن السرايوم كجامعة لم يعد
له وجود بعد الثورة التي قادها تيوفيلوس، والتي لم تبق على
شيء من الكتب ولم تذر وأن امتداد عهد الجامعة إلى الفتح العربي
أمر يصعب تصديقه، إلا إذا قامت عليه الأدلة المادية.

أما عن المكاتب، فقد ظل بعض المؤرخين على عقيدتهم — رغم
ما أثبتت الأدلة القاطعة من عدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية
عند الفتح — بأن العرب وجدوا مكتبة وأحرقوها بعد استئذان
عمرو بن العاص للخليقة عمر بن الخطاب في شأنها. ونحن نحيل
القارىء إلى القسم الثالث، وهو القسم الخاص بالشروح والتعليقات،
فهو واجد فيه بعض ما يشقى الغلة في مسألة كثر حولها اللفظ — هي
مسألة اتهام العرب بحرق مكتبة الاسكندرية.

على أن الصراع الذى احتدم بين الوثنيين كان غرضه
الاول القضاء على الوثنية باعتبارها دينا — ولكنه ما لبث أن
أصبح يرمى إلى خلق جمهرة من العلماء المسيحيين الذين يرغبون في
حذف فلسفة اليونان ، ابتغاء استخدامها في الترويج للدين المسيحى ، إذ
لم يكن لهم مفر ، وعم في الاسكندرية ، موطن الحياة العقلية ، من أن
يتسلحوا بمنطق اليونان وفلسفتهم وعلومهم ، ليكونوا بذلك أقدر
على الاقناع .

والحركة الفكرية التى خلصت لهذا العصر لم تكن حركة
تنظيمها سياق واحد ، ولم تخضع لاشراف واحد ، على نحو ما تخضع
الحركات العلمية في الجامعات . ومهما يكن من الامر ، فقد أخرجت
هذه الحركة « سنت كلنت » الاسكندري Saint Clement و « أوريجين »
Origène والبطريق « ثيوفيلوس » Theophilos ، وكانوا جميعا حريبا
على الوثنية . وينسب إلى الاول منهم أنه درس الفلسفة ، وجال في
بلاد اليونان وإيطاليا ، وبلغ الاسكندرية وأقام بها ، وتزعم المدرسة
المسيحية المتفلسفة فيها .

الباب الرابع

الجامعة في العصر الروماني الثاني

(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

هل ما تزال الجامعة والمتحف كائنين ؟ - رأى بير جوجيه Jouget - علماء في اللغة والفلسفة (ثيون) وبهاشيا - وثيقة بردية هامة - أساتذة وثييون في الجامعة يلقنون علومهم للوثنيين - احتشاد (زينو) للوثنيين - حركة نهوض مسيحية - حنا فلبونس العالم بالتوحيد معارضته للأفلاطونية الجديدة - معارضة الفطريق بياامين له - تأريخه لعدة حوادث - اسطفان القيسري يحارب عقيدة الطليعة الواحدة - أثر حرية الفكر في انضاج الشعور القومي - حركة النهوض القبطية - ظهور أدب قبطي وفن قبطي .

بملا شك فيه أن « المتحف » خرب بعض الشيء في حريق ٤٨ ق. م ، وأنه إن ظل باقيا إلى أيام عهد دكرا كلاه يختلف إليه الناس طلبا للعلم ، فإن هذا الامبراطور منع الجماهير من الذهاب إليه وأغلق قاعة السيستيا ، عام ٢١٧ للميلاد — وتم تخريب المتحف في عهد الامبراطور « أورليان » سنة ٢٧٣ للميلاد ، وفر علماءؤه إلى « السرايوم » حيث احتموا فيه . والمفهوم من هذه الحوادث الثابتة أن المتحف لم يعد له وجود بعد عام ٢٧٣ ميلادية .

ويعجب الانسان عند ما يرى بعض المؤرخين يصرون على بقاء « المتحف » والمكتبة الملحقة به حتى زمن متأخر كهذا ، مع قيام الأدلة

على قيام المتحف والمكتبة الملحقة به ، وانتقال الحركة العلمية إلى السرايوم .

يقول «بير جوجيه» ما خلاصته أن الاسكندرية بقيت بفضل المكتبة والمتحف حاضرة العلوم والآداب ، ووسطا شهيرا بالبحث والاستقصاء العلمى الدقيق .

وفي العصر البيزنطى (١) ، احتفظت جامعة الاسكندرية بنفس المكانة الممتازة التى كانت لها فى سابق الزمن ، وكانت متاحف الحاضرة المصرية وكنياتها ذائعة الذكر فى كل أنحاء الامبراطورية .

"Capitale savante, lettrée et artiste, Alexandrie avait été durant des siècles, grace à sa **Bibliothèque** et à son **musée**, le centre d'un puissant mouvement scientifique, d'une grande école d'érudition, d'une activité intellectuelle prodigieuse. A l'époque byzantine encore, son **université** conservait sa gloire d'autrefois. Les 'Musées', les académies de la Capital égyptienne étaient célèbres dans tous l'empire."

وأما جامعة الاسكندرية طلاب من أمم الشرق المختلفة ، من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، تلقوا العلم فيها على أسانذتها ، وكان الاسانذة معروفين فى ذلك الوقت باسم «الفسطاطيين» ، يعلمون الطب والعلوم الرياضية والخطابة إلى جانب علوم اللغة والفلسفة .

(١) العصر الرومانى الأخير

ومن علماء اللغة في العصر البيزنطى « ثيودوت » Theodote
الاسكندرى و « أوريون » Orion ، ومصنفون آخرون مكثرون من أمثال
« هسيخيوس » Hesychios و « هلاذوا » Helladois . ومن شغلوا
بدراسة الفلسفة « مپاشيا » وكانت بارعة الجمال ، عالمة فيلسوفة ،
تلميذ عليها « سينسيوس القورينى » Synesius de Cyrene الذى جمع
كثيرا من المعلومات عن حياتها الخاصة ومباحثها .

ولدينا وثيقة ذات خطر من أواخر القرن الخامس كتبها
« زكرى » عن حياة العالم « سفير » Severe تطلعنا على نواح من
الحياة العلمية فى الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، تذكر الوثيقة أسمى
« هيراسكوس » و « هورابولون » كأستاذين فى الجامعة ، استطاع
أولهما أن يشيع بين تلاميذه من الشبان حماسا بالغاً للدراسة والبحث ،
لا فرق عنده بين مسيحيين ووثنيين . قرب منه هؤلاء وهؤلاء
يطلبون علمه ، واحتدمت المناقشات بين فريقى الشبان ، واشتد بينهم
الجدل — ولا سيما فى المسائل الدينية .

وكان كثير من الأساتذة فى الجامعة فى العصر الرومانى المتأخر من
الوثنيين الذين لم يمتنعوا المسيحيين من الاستماع إلى علومهم . وكان أثر
هؤلاء عظيماً فى الاسكندرية ، تمتعوا فيها — رغم وثنياتهم ، ورغم
المسيحية الغالبة على المدينة — بمكانة رفيعة فى عالم الفلسفة والعلم البحث .
وكانت الفلسفة التى علمها هؤلاء وثنية طبعاً . سمح بدراستها فى الجامعة
أخيراً ، لأن الحساس الدينى الذى منع من دراستها فى القرون الأولى
للمسيحية ، يظهر أنه كان قد فتر نوعاً — أو لأن الحرية ربما عادت

سيرتها الأولى في الأوساط العلمية بعد أن حرمتها زمناً طويلاً — هذا ، ولم يخل الأمر من الانتقاض من وقت إلى آخر على الوثنيين وعلومهم .
وبقي هؤلاء الوثنيون حملة للعلم الهليني ، وإلى جانبهم كان يوجد علماء من المسيحيين ، اضطرد عددهم منذ أواخر القرن الخامس بسبب اضطهاد الإمبراطور زينو ، للأساتذة الوثنيين وتمثيلهم .

وفي أوائل القرن السادس ظهر « حنا » الملقب « فلپونس » وهو لغوى وعالم من علماء التوحيد ، ومعلق على فلسفة أرسطو ، ومفكر حر رغم مسيحيته ، وكان يميل بطبعه إلى الأقيسة المنطقية ، والأدلة العقلية . وهو في مؤلفيه « أبدية العالم » و « خلق العالم » La création du monde & L'éternité du monde يميل إلى اتباع آراء أرسطو الحرة . كتب فيما كتب مؤلفات عارض بها الوثنيين والأفلاطونية الحديثة والأورثوذكسية ، إذ كان من المتحمسين لعقيدة « الطبيعة الواحدة » للمسيح ، والدليل على ذلك وضعه كتابه الضخم في التوحيد المسمى L'Arbitre وهو مفقود الآن .

وكانت للفيلسوف « حنا فلپونس » مكانة ممتازة في جامعة الاسكندرية ، وكثيراً ما كانت كتابته تثير ضجة لاحتوائها على آراء نسبها بعض الاسكندريين وبعض البطارقة إلى الهرطقة ، وقام البطريق « بنيامين » يعارض آراء « فلپونس » في كتابه « البعث » La Résurrection .
وقلپونس فوق هذا مؤرخ لعدة حوادث مصرية — شهدا بنفسه ، اعتمد عليه « بطار » مؤلف « فتح العرب لمصر » في كثير من فصوله .

وفي خواتيم القرن السادس الميلادي ظهر أستاذ مسيحي آخر هو اسطفان، الفيلسوف الذي درس وعلق بدوره على مؤلفات أرسطو، وعمل جاهدا على إضعاف عقيدة الطبيعة الواحدة في المسيح، ولم تستعج الاسكندرية منه ذلك، وعاقبه بطريقهما «دميان» على خروجه هذا، بإعلانه طريداً من الكنيسة الرئيسية، سيما وقد أصر اسطفان على رأيه — وأدى هذا الموقف إلى انقلابه «أورثوذكيا» متطرفا واضطر على أثر ذلك إلى مغادرة الاسكندرية.

وكانت منذ القرن الثالث الميلادي، قد بدأت تدب بين المصريين حركة مناوئة للثقافة الهلينية. ليست الأولى كما نعلم في الاسكندرية، تبعها حركة أحياء للعقائد والتقاليد المصرية القديمة. وقامت في نفس الوقت تقريبا حركات انتقاض مشابهة في الشرق الأدنى عامة، ترى إلى الغرض من شأن المدنية اليونانية في سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى. والمرجح أن يكون الفرس هم الذين أذكوا نارها. وكانت مدن مصر العليا معقل هذه الحركة المعارضة. والحق أنه عند ما قبل الوطنيون المصريون، العقيدة المسيحية، خلقت فيهم الديانة الجديدة شعورا بقوتهم وقيمتهم، كان من شأنه أن يحرق الوثنية الألفية أيا تحقير — وقام رجال الدين المصريون يعطون الجماهير باللغة المصرية بعد أن كانوا يعطونهم باليونانية. وأخذت الكتب اللدنية تنقل إلى اللغة المصرية القبطية تباعا، ولم تقف حركة المعارضة عند هذا الحد، بل اتخذ المصريون لأنفسهم فنا قبطيا عارضوا به الفن

الأغريق ، ولكنه لم يخل من التأثير به على كل حال .

وكان انتصار المسيحية على الوثنية في حقيقة الأمر انتصاراً لمصر القبطية (الوطنية) على مصر البيزنطية ، وبدأ أقباط مصر يشعرون بقوميتهم ، وبالدور الهام الذي يحق لهم أن يلعبوه في شئون البلاد كورثة للفراعنة ، وأمتلات نفوسهم كراهية للرومان الذين ظالموا نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب .

وبلغت روح التفاخر بعراقة الأصل المصري بين أقباط مصر أعظم شأولها في القرن السادس ، حين أخذ المصريون يشيرون أنهم أقدم شعوب الأرض ، وأن بلادهم اخترعت الكتابة والهندسة فضلاً عن غيرها من العلوم — وبعبارة أخرى أنها مهد المدنية . واعتقد الأقباط اعتقاداً جازماً ، إن خطأ وإن صواباً ، أنه مامن شيء عظيم الشأن في هذا العالم ، إلا كان من خلق متحمسيهم ، وبالغ هؤلاء في تفاخرهم إلى درجة أخطأت الحقائق المقررة في التاريخ ، فانتحلوا لمصر شخصية الإمبراطور « قلديانوس » والإمبراطور « ثيودوسيوس » والإمبراطورة « تيودورا » ، وذهبوا في حماسهم إلى اختراع دعوى ظاهرة البطلان مؤداها أن السيد المسيح لم يولد في بيت لحم ، وإنما ولد في « هيراقليوبوليس » في الطيبايد ، في صعيد مصر .

وكانت مصر في نظرهم بلاد الله المختارة ، وأقربها إلى قلب المسيح ، وأخلصها لعقيدته . ولا شك في أن تلك الحركة في جملتها إنما هي حركة انتعاش قومي ، بلغت منتهأها من الحدة خارج مدينة الاسكندرية ، وعمت المدن المصرية جميعاً ، وتكررت البلاد للأجانب .

وأقطعت صلاتها الروحية، أو كادت، بالامبراطورية الرومانية، ولم يبق لها بها من علاقته سوى علاقة التبعية السياسية. وغدونا نرى في مصر منذ القرن السادس الميلادي شعباً مصرياً يحس لنفسه بوجود شخصي مستقل.

وكثيراً ما يلاحظ في الأدب المحلي في القرنين الرابع والخامس الميلاديين كلمة الأهلـي أو القومـي، صفة لكل شيء مصري، من علوم أو آداب أو ديانة — حتى لقد يحق أن يقال أن المسيحية المصرية، كلمة رادفت « القومية المصرية »، وأصبحت علماً عليها. وفي القرن السادس الميلادي أخذ ظل كل شيء أغريقـي أو روماني في التقمص؛ ونلاحظ فيما كتب « ديل » Ch. Diehl الأستاذ بالسربون، في الفصل الذي عقده للأدب القبطي في مؤلفه « مصر البيزنطية، رغبة الأقباط في تجنب اليونانية تجنباً تاماً كان من شأنه أنه قطع الصلة بين مصر والثقافة اليونانية قطعاً نهائياً.

وبدأ الأقباط يغفلون الآداب الأغريقية إغفالاً، ويكتفون أدبهم الخاص بلغتهم القبطية — فيها فدوتوا كتاباتهم الدينية عن حياة القديسين، وكتبوا بعض الأشعار وتواريخ الشهداء وسير مشاهير المترهبين في الأديرة، غير أن الخاس أخذ عليهم طريقهم فيما كتبوا، فجاوزوا الصواب وأخطأوا القصد.

ورغم هذا، فقد ظلت الاسكندرية محتفظة بمكانتها في عالم الفن، فلم يهبط بها فن العمارة، ولم تفارقها مهارة أهلها في صناعة المرمـر وفن التصوير، وصناعة الفسيفساء الزجاجية. وظل الأقباط، على

الأرجح ، الأبدى العاملة في هذه الميادين حتى أدرك الإسلام البلاد ،
وحينئذ ساهموا في زخرفة المساجد التي ازدانت بها القاهرة منذ
العصر الطولوني — وهكذا كان الفن الاسكندري مقدمة لبعض فنون
القرون الوسطى الاسلامية في مصر .

وكانت صناعة الورق مزدهرة بالاسكندرية قبل الفتح العربي
بزمن طويل . والورق عماد الكتب كما هو معروف ، وقد برع
الاسكندريون في صناعته ، كما برعوا في تصوير المصورات الجغرافية ،
منذ وضعها « أراتوستين » و « بطليموس » الاسكندرانيان .

وحقق الاسكندريون فن تصوير الكتب ، وزخرفتها وإيضاحها
بالرسوم الدقيقة Miniature ، واستعانوا المسيحية بهذه الصناعة على
شرح عقائدها ، كما استفادت صناعة النسيج زخارفها الجميلة من مهارة
المصورين — وكل هذه الزخارف أو جعلها مستمد من الصور
الدينية المسيحية .

وازدهرت بالاسكندرية صناعة الزجاج والسفن والمنسوجات
الحريرية والكتانية . وعرفت المدينة بطرازها (١) الخاص في العصر
البيزنطي .

(١) الطراز مكان صناعة النسيج

الباب الخامس آخرى العلم الاسكندرى

الفصل الأول

بداية النهاية

آخر الزمان العلم اليونانى — حركة النهوض القومى ومناواة اللغة اليونانية —
آداب قبطية - شيوخ اللغة السريانية — هى لغة العلم والطب خاصة — حنا النقيوس
يؤلف بالقبطية — ترجمة العهد الجديد ، — موقف المصريين الأباط من العلم
الاسكندرى — نفر عن علماء هذا العصر — ليس للجامعة وجود فى الغالب —
المكتبات الخاصة هى عماد العلم — الحركة العلمية الحرة تتمثل فى حنا مكوس
ومصفر ونيوس — بقية من الطب والهندسة والفقه والفلسفة والآداب اليونانية —
ترجمة التوراة إلى السريانية فى مصر — انطونيس العالم بالهندسة والطبيعة .

كان آخر عهد الاسكندرية بالعلم اليونانى فى القرن السادس
الميلادى ذلك اللون من الجدل الفلسفى الذى اشتد بين أنصار
المسيحية والوثنيين ، وهو نوع من فقه الدين احتلج إلى الاستعانة
بالفلسفة والمنطق اللذين راجحت دراستهما فى العصر الرومانى الثانى
مقتربة بحركة الجدل الدينى أشد الاقتران وأقواء .

وكانت لغة البلاد الرسمية فى العصر الرومانى هى اليونانية ، غير
أنه منذ القرن الرابع الميلادى ، أخذت روح القومية المصرية فى
الظهور والقوة . وكان من أثر ذلك أن بدأ رجال الدين المصريين
يعطون الناس باللغة المصرية ، بعد أن كانوا يعطونهم باليونانية

لغة الحكومة والكنيسة الرسمية . وبدأ القبط منذ ذلك التاريخ يغفلون
الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القومية ، فدونوا
بها تآليهم في حياة القديسين وتواريخ الشهداء ، وكتبوا بها شعرا
ونثرا عارضوا بهما الفث والشعر اليونانيين .

• • •

وسارت اللغة المصرية (القبطية) جنبا إلى جنب مع اللغة اليونانية
التي بقيت لغة البلاد الرسمية إلى ما بعد الفتح العربى بزمان ليس
بالقصير ، غير أنه على الرغم من نهوض اللغة القبطية في العصر
الرومانى ، لم ينتج بها القبط أدبا يتنافس الآداب اليونانية التي ظلت
صاحبة الغلبة والنفوذ — والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور
الآدباء طوال عصر الانتقاص ، ضرورة ثقافية لا غنى عنها ،
وظل الآدباء يكتبون بها نثرا وشعرا . ومن أشهر كتاب القرن الرابع
الميلادى « لوسيانوس » صاحب كتاب محاورات الموتى « وأخيلاس
تانيوس » المؤلف الروائى ، ومن أديعهم صيتا في القرن الخامس
الشاعر المصرى « فيرس الاتيمى » ، وفي القرن السادس الشاعر
الطبيب « كريستودورس » ، ومن علماء هذا العصر المتأخر
« ديسكوريدس » النبائى المصرى المعروف ، صاحب كتاب
خواص العقاقير الذى حرص العرب على اقتنائه ، وصوروه
في العراق .

وإلى جانب اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، كانت هناك لغة
ثالثة هي لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو

الفارسي على بلدان آسيا الغربية ، واحتموا في وادي النطرون في غرب
الدلتا ، وعكفوا على العمل في هديوثه . ومن عجب أن تصبح لغة
السريان هذه — لغة العلم ، ولا سيما العلم الطبي ، فيها دون سواها كانت
تدرس العلوم الطبية في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، وإن
دل ذلك على شيء ، فدلالته قوية على أن هؤلاء السريان كانوا في نقلهم
لعلوم اليونان جبابرة ، لم يدعوا منها بلغتها الأصلية شيئا تقريباً ، ثم
جاءت حوادث السياسة الهوج ، وفي أعقابها حوادث الفتح العربي ، فاخفى
من الوجود أو هلك كثير من كتب اليونان ، وعندما بقي منها من الكنوز
التي لا يحمل أن تداول ، فاخفت عن الأعين — وكان للسريان على
الأرجح أكبر الأثر في اختفائها ، وراجت ترجماتهم وارتفع شأنها
وارتفع معها شأن لغتهم ، ولا يبعد أن يكون السريان قد
اشتغلوا على طول هذه الفترة بتجارة المخطوطات ، وأن يكونوا قد
أثروا من وراء ذلك ثراء طيباً — إذ لا شك أن عودة المخطوطات
اليونانية إلى الظهور في عصر النقل الأعظم ، كان عظيم الوقع ، كبير
القيمة ، وكان حرص الخلفاء على اقتناء هذه المخطوطات بالغاً ، فلم
يدخر المغنيون منهم بحركة نقل العلوم القسدية وسعاً في اقتناء
المخطوطات منها غلا ثمنها ، إمال للنقل منها رأساً ، أو لمراجعة المترجمات
السريانية عليها .

وبلغ من شيوخ لغة السريان ومنافستها للغتين اليونانية والقبطية ،
أن ترجم إليها الكتاب المقدس — وكتب بها القسس « اهرود »
الاسكندري ، مقالاته في الطب ، وغدت السريانية بالاجمال ضرورة

من ضرورات العصر الادبية ، لا تقل شأناً من حيث هي لغة علم
عن اليونانية ذاتها ، وحذقها كثير من محبي العلم ، وخدموا بها العرب
خدمة جلي في عصر النقل الاعظم .

وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين ، اليونانية والسريانية ، كانت
لغة البلاد القومية تكافح وتناضل ، لتتخذ لنفسها مكانة تليق بأمة تطمح
إلى الاستقلال ، وتعمل له جاهدة . وما لبثت القبطية أن استخدمت
في الوعظ والصلاة والتأليف . وكتب « حنا النقيوسي » ديوانه
المشهور بها ، وأن يكن قد دون جزءاً منه باليونانية ، وكتب بها
الرهبان توارخ القديسين والشهداء وأخبار البطارقة ، وترجم إليها
« العهد الجديد » .

ولكن الآداب القبطية لم تعد أن تكون آداباً دينية في مجموعها ،
وليس للقبط في حقيقة الامر آداب يمكن أن يفخروا بها — اللهم
غير قليل من مآثور الحكم وبعض الأشعار .

وظلت غالبية القبط إبان حركة النهوض بمعزل عن الاسكندريين
ورثة العلم اليوناني ، ولعلمهم كانوا مايزالون على اعتقادهم القديم بأن
العلم الاسكندري علم وثني لا يحمل بهم أن يتناولوه .

وأدرك العرب الاسكندرية وبها بقية من العلم اليوناني
أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات عن طب « جالينوس » ومآثور
من حكم « بقراط » ، وشئ كثير من التنجيم والمعجزات وعلم
الصنعة (الكيمياء) ، وفلسفة ممتزجة بالدين أشد الامتزاج ، ترى

إلى خدمة المثل الأعلى المسيحي ، على أساس من فلسفة أفلاطون وأرسطو .

وكان العلم الديني أهم ميدان جال فيه مسيحيو الاسكندرية وأغلب الظن أن الكثرة من هؤلاء المسيحيين الذين اشتغلوا بمسائل العلم الاسكندري لم تكن من متعصي القبط ، فقد كره هؤلاء على ما يظهر دراسة فلسفة الاسكندرانيين ؛ ولم تحاول غالبية الأقباط ما حاول غيرهم من استخدام الفلسفة لتقوية العقيدة المسيحية ، خوفاً من أن تزل قدمهم فيرمون بالهرطقة ، كما رعى بها « حنا فليونس » في دفاعه عن فكرة « الطبيعة الواحدة » للمسيح ، إذ عارضه البطريرق « بنيامين » وسفه من آرائه في كتابه « البعث » — وكان لهم في الدفاع عن مسيحيتهم أسلوبهم الخاص في الإقناع . لهذا كله ، وفد العرب على القبط ، فلم يجدوا بين أيديهم علماً أو فلسفة ، وإن وجدوا عندهم دراية بالفنون اليدوية لا تبارى ولا يجحد فضلها .

وجاء القرن الخامس وليس في الاسكندرية مكتبة كبرى عامة بل كان كل ما فيها مكاتب خاصة أشهرها مكتبة عالم يدعى « كرماس » جعل منها خير عوض عن مكتبة الاسكندرية العامة ، وكان يعير من كتبه لنحبي القراءة والاطلاع في كثير من الرغبة الصادقة في الاستفادة . وكان الرجل في ذاته مكباً على القراءة والتصنيف ، يجادل اليهود جدالاً عنيفاً ، ويرد على كتاباتهم .

وقد انتفع بعلم « كرماس » وبيكتب مكتبته الخاصة ، المؤرخان
« حنا مسكوس » (٥٥٠ / ٦١٩ م) وتلميذه « صفرونيوس » ، وهما
لا يذكران شيئا عن مكتبة عامة كانت بالاسكندرية في ذلك الوقت .
ولا شك أن مبالغتهما في تقدير قيمة مكتبة « كرماس » ، وسكوتهما
عن ذكر مكتبة الاسكندرية ، بالإضافة إلى صمت غيرهما من المؤرخين ،
دليل قوي على خلو المدينة من مكتبة ذات صفة عامة ، كانت — إن
وجدت — خير عون لهما على البحث والافاضة .

كتب حنا مسكوس كتابه « مسارح الروح » *Portum Sprituale*
وصكتب « صفرونيوس » مؤلفاته ، ولم يتطرقا إلى ذكر مكتبة
« السرايوم » بكلمة يكون فيها فصل الخطاب في هذا الموضوع الذي
طال فيه الجدل ، وعزت الأدلة المادية .

وكان بالاسكندرية خلاف مكتبة العالم « كرماس » مكتبة أخرى
خاصة هي مكتبة « مطران » « آمد » التي ذاع ذكرها في أوائل القرن
السادس . ويذكر الدكتور « بطر » أن هذا المطران استطاع أن
يجمع كتباً ذات قيمة أثناء مقامه بالاسكندرية ، مما يدل على أن
الاسكندرية كانت في ذلك الوقت سوقاً لتجارة الكتب ، وبموت
اختفت هذه المكتبة من الاسكندرية ، حيث نقلت كتبها إلى كنيسة
« آمد » في شمال الجزيرة العراقية (١) .

يضاف إلى هاتين المكتبتين الخاصتين ، مكتبات الأديرة والكنائس .
وكانت الأديرة والكنائس مستودعاً للعلم في ذلك الزمن الذي

(١) بطر : فتح العرب لمصر — التعريب

ندرت فيه الكتب وتفرقت أيدي سبا ، ولكن الكتب الوثنية كانت قد فنيت كلها أو جلّتها ، ومن غير المعقول أن تحوى الأديرة والكنائس كتباً للوثنيين . وأغلب الظن أن محتويات هذه المكتبات الكنسية كانت إما كتباً مسيحية بحثة ، أو كتباً دينية استخدمت فيها أساليب أرسطو وأفلاطون في الاقناع ، لا تخرج في موضوعها عن أن تكون كتب دين ، أو علم لا يتعارض مع الدين .

على أن أكثر المكتبات شهرة كانت مكتبة دير الهانطون ، ومكتبة دير السريان ، من أديرة الصحراء في غرب الدلتا .

وكان العلم في هذا العصر يعتمد الاعتقاد كله على محتويات المكتبات الخاصة ومكتبات الأديرة والكنائس . وكان العلماء أشبه ما يكونون بالهواة ، يقتنى الواحد منهم مكتبة يحرص عليها ، ويعير من كتبها لأصدقائه وعارفه ، أو يتصل بعالم فيلسوف أو رحالة يحول في أرجاء الامبراطورية يفيد من شتات الكتب في أنحاء المختلفة ، أو يرتاد أديرة الصحراء ينهل مما فيها من آراء تؤيد الدين وتباهض الوثنية واليهودية ، ينتفع الواحد منهم بعلم الآخر ، على نحو ما انتفع « مكسوس » و « صنرونيوس » بعلم « كرماس » — بطريقة التلقين التي تسود عادة في عصور التأخر ، حين تندر الكتب ويصعب الحصول عليها بسبب قلتها — أو حين يحول دون الانتفاع بها عامل من عوامل الاضطهاد الديني أو السياسي .

والغالب على الظن أن الحركة العلمية الجرة كانت تتمثل في أولئك العلماء الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، من أمثال « حنامسكوس »

وهـ صفرونيوس ، الجاثلين اللذين ارتحلا من الاسكندرية إلى الجزائر
اليونانية ، وبلغا «روما» حيث هذب «مسكوس» ككتانه «مسارح
الروح» Parfum Sprituale ، وهو عبارة عن قصص لشفاء الأمراض
بطريقة روحانية . وكان هذان العالمان صديقين «لتيودور الحكيم»
رئيس أحد الأديرة ، وكان عالما وفيلسوفاً بقدر ما كانت المسيحية
تتيح لرجالها الخوض في أمور الفلسفة . ومن معلنى هذا العصر
«زويلوس» القارىء ، ونكامن شراح الكتب .

ooo

على أن الشيء الذى يستدعى الانتباه هو شيوع «السريانية» كلغة للعلم
في هذا الزمن — فكان لابد لمن يطلب العلم من أن يحذق لغة السريان.
والعلاقة بين هذه اللغة وبين دراسة الطب وثيقة . وكانت آداب
اللغة السريانية شائعة تدرس في الاسكندرية منذ زمن بعيد قبل
الغزو الفارسى لسوريا وهجرة فريق من علماء السريان إلى مصر
تحت ضغط ذلك الغزو .

والمعروف أن أعظم ما كتب في الطب كان بالسريانية ، فيها
كتب القس «أهرون» الاسكندرى رسائل في الطب أفاد منها العرب
فائدة كبرى ، ويذكر «أبو الفرج بن العبري» أن مقالاته بالسريانية
تجاوزت الثلاثين مقالة .

ويلاحظ على هذا العصر أن رجال الدين فيه كانوا رجال علم ،
ومن هؤلاء «أهرون» الذى تقدم ذكره ، و«سرجيوس الرسغنى»

و « سعيد بن بطريق » المعروف باسم « يوتيوخوس » ، وكانوا جميعاً فقهاء في الدين وعلماء في الطب في نفس الوقت .
 هذا إلى أن الرهبان في الصحارى كانوا قد أخذوا يكتبون باللغة القبطية المحلية كتباً عن حياة البطارقة ، وعجالات في الخلافات المذهبية ، ولكنهم لم يكتبوا بها كثيراً في التاريخ ، وأشهر ما عرف عن هذا العصر من المؤرخات « ديوان بسكال » ، وفيه وصف لا بأس به لحالة الاسكندرية في أواخر القرن السابع الميلادي . ومن المراجع الهامة في تاريخ مصر بعد فتح العرب كتاب « حنا النقيوسي » . وهو من أعظم الكتب التاريخية ، التي لا تزال حافظة لقيمتها العلمية حتى الوقت الحاضر .

وكان معظم الانتاج الاسكندري دينياً ، يعالج موضوعات في الدين ، أو موضوعات في العلم كتبها رجال الدين بروحهم الخاصة في التأليف ، ناهين فيها منحنى يبعد كثيراً عن أساليب التدقيق العلمي .
 ورغم هذا فقد ازدهرت بالاسكندرية مدارس طبية وفقهية وفلسفية . وكان طلاب العلم من كل صوب ما يزالون يقصدونها ، يتلقون العلم في مدارسها .

وعلى الرغم من أن حوادث الفتح العربي لا بد أن تكون قد قضت على كثير من الآثار الأدبية ، فقد أثر عن « بولص السلتيتاري » أنه كتب شعراً هو مرياً من ذى المقاطع الستة في فضائل القديسة « صوفيا » . وكتب « صفرونيوس » شعراً غزلياً حن فيه إلى الأرض المقدسة على نسق ما كان يكتبه الشاعر اليوناني « أناكريون » .

ونحن نعلم أنه تحت ضغط الفتح الفارسي لسوريا ، قرأت جماعة من
العلماء السوريين ، واتخذوا أديرة الصحراء في وادي التطرون متجراً
لهم ، وهناك عكفوا على ترجمة « التوراة السبعينية » إلى السريانية ترجمة
جديدة ، ومراجعة الترجمة السريانية للإنجيل . وزعيم هذه الحركة
« توما الحرقي » و « بواس التلوي » ، وكان دير « الهانطون » المكان
الذي قامت فيه هذه الحركة وتمت .

ويلاحظ على الحركة الدينية في هذا العصر بصفة عامة أنها
اصطحبت بكثير من التلقيق الذي قصده تفريق مذهب ديني على آخر .
وهذا العصر في جملته شير بأنه عصر تفلسف وتفقه في الدين ،
وميله في مجموعها أدينية قسبية ، ولذلك يصعب أن يتصور الإنسان أنه
كان يجمع إلى جانب ذلك شيئاً من المهارة العملية — ويذكر بين علماء
هذا العصر اسم « انطونينس » Antoninus الذي أدركه العرب في
الاسكندرية عند الفتح ، ويعتبر متهما « لارشميدس » و « اقليدس » ،
وهو الواضع لمبادئ علم المساحة الحديثة ، يقال أنه قاس سرعة
المقذوفات ، وابتدع مضخة الحريق ، و « الهيدرومتر » ، وحاول
استخدام البخار ، ووضع تصميماً عملياً لبناء « الباكيات » Voûtes
أخذ عنه « إيزيدور الملبطي » Isidore de Milet أحد مهندسي
كنيسة « أيا صوفيا » . وهو أول من حاول استخدام الهواء المضغوط
والتيارات الحارة والباردة في تحريك بعض الأشياء . وبفضل محاولاته
هذه أمكن اندفاع الماء من النافورات ، كما أمكن إسالة الدموع
والعطور من بعض أجزاء التماثيل المقدسة !

الفصل الثاني

نهاية العلم الاسكندري

تحقيق هذه النهاية

غرض نهاية الجامعة - كتاب بطارقة الاسكندرية ينير الطريق - برودة عظيمة القيمة يحدثنا عنها مايرهوف - الفلاسفة الفيلسوفون - الفلاسفة المعلقون - خلاقات مذهبية بين المسيحيين - حنا الأجرومي - اسطفان الاسكندري - شيوع طريقه آثاره - طو في الألفاظ وأثرها في اليهود والمسلمين - الحركة الطبية - حركة فلسفية مسيحية يمثلها «حنا الأمامي» و «مرجيوس الرسعني» - اختلاط الفلسفة بالدين - القاراني يروي شيئاً عن نهاية العلم الاسكندري - أثر النسطرة في حفظ العلم الاسكندري - احتفاظ مدارس حران وانطاكية وحتة إسايور بالتراث الاسكندري - وثائق هامة عن انتقال العلم الاسكندري الى انطاكية وحران - فضل الكتب العربية في الاحتفاظ بالثروة العلمية اليونانية .

نشيت سحابة كثيفة جامعة الاسكندرية آخر عهدها بالحياة ، على ما كان لهذه المؤسسة من رفعة المكانة وعلو السكع ورسوخها في شتى نواحي العلم الانساني . وبقيت تلك السحابة السكيفة تعزو وجه العلم طيلة القرنين الأخيرين من حياة الجامعة ، فتزيد من جهلنا بأمر نهاية هذه المؤسسة العلمية الخالدة . ولقد حفزت هذه النهاية الغامضة العلامة المستشرق الدكتور وماكس مايرهوف ، M. Mayerhoff ، إلى كتابة عجالة عظيمة القيمة ، حقق فيها أمر تلك النهاية ، معتبداً على مصادر عربية بحتة . ولقد أمدتنا عجالة مايرهوف ، بحقيقتين كبيرتين الأولى ، أن رواة فناء جامعة الاسكندرية كانوا شهوداً أعين

من العرب ، صادف انتجاعهم للاسكندرية زمن احتضار العلم الاسكندري في أوائل القرن السابع الميلادي — والثانية ، أن هؤلاء العرب ، فوق شهودهم أخريات أيام العلم الاسكندري ، ظلوا أفناء عليه ، حفظه له ، ونقله لتراثه القيم إلى أنحاء من الشرق الأدنى ، حيث قدر له البعث في عصر أحياء علوم الاقدمين من فرس ويونان وهنود ، في خلافتي المنصور والمأمون .

وقد كفانا الدكتور « مايرهوف » Mayerhoff مؤونة بحث هذه المسألة ، وأمدتنا عجائته عن نهاية الجامعة (١) بما فيه الكفاية .

يقول : يكاد يكون من الحقائق التي أجمع عليها المؤرخون أنه لم تكن بالاسكندرية مكتبة كبرى عامة بعد نهاية القرن الرابع الميلادي ، حيث كانت قد ضاعت معالم تلك المكتبة إبان الصراع الهائل بين المسيحية والوثنية ، على طول القرون الاربعة التي أعقبت الميلاد . والمطلع على تاريخ بطارقة الاسكندرية لمسيو ، جان ماسيرو ، لا يجد هناك مجالا لحركة علمية يمكن أن تسير على أقدام في مدينة اتنايتها عواصف هوج من الفتن الدينية ، كان عمادها أكثر العناصر ميلا إلى التخريب والاتلاف ألا وهو عنصر الغوغاء ، تحركه عوامل خللت من التعقل خلوا أكسبها عنفا وقسوة بالغين وقد أثار لنا « ماسيرو » السيل بدراسته لورقة بردية على جانب

(١) M. Mayerhoff : La fin de l'école d'Alexandrie d'après quelques auteurs Arabes.

كبير من الالهية يعدد فيها هوراپولون، Horapollon عالم النحور
المدارس والمتاحف التي كانت بالاسكندرية على عهده (القرن
السادس) ويظهر بأنه من سلالة أسرة كل أفرادها من العلماء الذين
تلقوا علومهم في مدرسة الاسكندرية الشهيرة .

يقول مايرهوف : ويعاصر « هوراپولون » ، هذا ، عالم آخر هو
الخطيب « زكريى » Zachari الذي كان يدرس بالاسكندرية مع
زميله سفير Severe الذي أصبح فيما بعد بطريق « انطاكية » . وكان
عضواً متحمساً في جماعة دينية مسيحية تعرف باسم « الفلپونيين » ،
Philoponois . (نسبة إلى فلپونس ؟) ، كان دأبها مناوأة الاساتذة
والطلاب الوثنيين ، والانقضاض على المعابد الوثنية من وقت إلى
آخر ، وأعمال معاول الهدم فيها — كما يذكر أيضا أن شباب الشرق
الأدنى كانت يفتد على الاسكندرية لدراسة الحقوق والطب
والرياضيات والفلسفة والخطابة .

° ° °

ومن المعروفين بتواليهم في خواتيم عصر الانحلال
« أمثيوس بن أرمياس » . وهرفيلسوف فذ من فلاسفة نهاية
القرن الخامس الميلادى وأوائل القرن السادس ، وهو ائمن الذي
يحدد آخر العهد بأخبار جامعة الاسكندرية . وكان على رأس جماعة
فلسفية تناولت مؤلفات « أرسطو » بالشرح والتعليق ، وتسمّى
أشباغة بأسم الفلاسفة المعلقين ، ومنهم : « سيمبلكيوس » Simplicius
و« دماسكيوس » Damascius و« اليميودور » Olympiodore الصغير

وهو أسكليبيوس ، Asklepios وحنافليونس ، Jean Philiponus ، وكان كل هؤلاء الفلاسفة أول أمرهم وثنيين ، ما لبثوا أن تحولوا بعد زمن إلى المسيحية ، وأصبحوا أعوانا لها ، أكثر حماسا من أبنائها الأقدمين . وشهدت الاسكندرية في منتصف القرن السادس الميلادي خلافات مذهبية بين المسيحيين أنفسهم ، وظهر بها ثلاثة بطارقة ، قوى النزاع بين أتباعهم حتى اتخذ شكلا عنيفا ، وتجلت في هذا العصر كراهية الأقباط الوطنيين للحكم البيزنطي والكاثوليكية الرسمية .

ooo

ومن أشهر شخصيات القرن السادس الميلادي بالاسكندرية ، حنا فليونس ، وهو المعروف عند السوريين والعرب بأسم «حنا الاجرومي» (Le Grammairien) ويعتبر حياته غموض كبير ، ولكن من المعروف أنه نزع من الاسكندرية في أول القرن السادس ، واستمع ، لامونيوس بن أرمياس ، ووضع أول تعليقاته على فلسفة «أرسطو» ، حوالي ٥١٢ للميلاد ، ويحمل تعليقه المسمى «الطبيعة» تاريخ : «١٠٠٠» يآخون من عصر الشهداء — ٥ مايو ٥١٧ ميلادية ، وبلى هذا تعليقه المسمى «ما وراء الطبيعة» ، وهو لا يعرض في كتاباته بناتا إلى الآراء المسيحية . وهذا ما حدا «بجودمان» Gudeman إلى اعتبار «فليونس» وثنيا يبق على وثنيته في ذلك العصر المسيحي حتى ارغم على اعتناق المسيحية سنة ٥٢٠ ميلادية . وبلغ مجموع تعليقاته على «أرسطو» أحد عشر تعليقا ، عدا ماله من التصانيف في قواعد اللغة الاغريقية والعلوم الرياضية . ومن

المحتمل أنه كان استاذاً من اساتذة جامعة الاسكندرية، ما لبث تحول
إلى المسيحية ووضع كتاباً هاماً ضد التعاليم الوثنية أن أكسبه مكانة
سامية وشهرة فائقة. ومؤلفه «خلود العالم» Sur L'Éternité du Monde
حرب على الافلاطونية الحديثة. وهذا السفر مؤرخ في عام
٥٢٩ م، وهو نفس العام الذى أغلق فيه «جستيان» الامبراطور
مدارس أثينا الفلسفية. وشرّد أتباع «بروكلوس» Proclus
وأفلوطين، Platon الذين كانوا ما يزالون يلقنون تعاليم الافلاطونية
الحديثة فى الاكاديمية الاثينية شر مشرد. ولم يلبث «فلپونس» أن
وضع كتابه De Opificio Mundi الذى دافع فيه دفاعاً مجيداً
عن كيان المسيحية وتحدى الآراء الدينية الوثنية. وكان فى كل
كتابات يتبع أسلوب «أرسطو» فى الاقناع بصحة الآراء الدينية
المسيحية، فكان بذلك أول من أخضع الدين المسيحى للقوانين المنطقية.
ومن بعده لعب المنطق دوراً هاماً بين اليهود والعرب المسلمين
والمسيحيين اللاتينيين فى العصور الوسطى، وتاريخ حياته غير معروف
على وجه الدقة، ولكن «فورلانى» Furlani أثبت حديثاً أن كتاب
«فلپونس» إلى الامبراطور «جستيان» دفاعاً عن فكرة الطبيعة
الواحدة للمسيح Le Monophysisme كان حولى ٥٥١ م.
ويعتبر المؤرخون السوريون والمؤرخون العرب «حنا الأجرى»
أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية، وآخر رجالاتها.
ويليه فى نباهة الذكر «اصطفان» الاسكندري الفيلسوف السفسطاني،
والعالم الفلكى الذى عاش فى أواخر القرن السادس، والذى انتقل

فما بعد إلى القسطنطينية يعلم هناك . وتاريخه لا يقل غموضا عن تاريخ « فليونس » ، عرف العرب اسمه عند فتحهم لمصر مقرونا ببعض الأسرار الكيماوية والتنجيم .

ويختلط اسم « اسطفان الاسكندري » هذا باسم « اسطفان الطيب الآثيني » مؤلف « المحاضرات الأبقراطية » ، وصاحب التعليقات على بعض تصانيف « جالينوس » الطيب الاسكندري .

أما « فليونس » فقد ثبت أنه ليس الجامع للمقالات الطبية التي ترجمت إلى العربية . وقد نفي الدكتور « تمكين » التركي نسبة كتابين يونانيين من كتب الطب إلى (فليونس) اعتاد الناس نسبتها إليه (١) .

والحق أننا لا نكاد نعرف شيئا عن جامعة الاسكندرية في القرنين السادس والسابع الميلاديين سوى ما يذكره « حنين بن اسحق » من أعظم الناقلين لعلوم الاسكندرية في صدد نقله لمقالات جالينوس إلى السريانية والعربية ، من أنه قبل الفتح العربي بقليل . تضافرت جهود الأطباء الاسكندريين على جمع سبعة من مصنفات « الطيب جالينوس » أصبحت أساسا ثابتا للدراسات الطبية .

ولم يكن للحياة العلمية من مظهر في المدينة في القرن السادس الميلادي ، سوى جماعات كانت تتذاكر بعضها بما كان « جالينوس » قد كتب في الطب . وكان هؤلاء يقومون في الوقت نفسه بنقل هذه المقالات إلى اللغات الأخرى ، من غير كبير تمديد بتعاليم « جالينوس » نفسها .

(١) مابرهوف : نهاية مدرسة الاسكندرية

ومن اشتركوا في هذا العمل الطبي آنف الذكر ، حنا فلپونس ،
و « أسطفان الاسكندري » ، و « جسيوس » Gessius ، و « بولاديوس »
Palladius و « مارينوس » Marinus ، وقد علقوا جميعا على مؤلفات
أبقراط و جالينوس كل بمقدار .

هذا في ميدان الطب ، أما في ناحية الفلسفة ، فقد نشأت بالاسكندرية
بعده « أمونيوس سكا » ، وأتباعه ممن وضعوا النواة لفلسفة الاسكندرية ،
مدرسة فلسفية مسيحية ، كان من أشهر فلاسفتها في القرن السادس
الميلادي الفيلسوف المسيحي السرياني « يوحنا الافامى (١) » ، والطبيب
« مرجيوس الرسعنى » (٢) المعروف باسم « ثيودوسيوس بولس »
Theodosiopolis ، الذي نقل عددا كبيرا من مؤلفات « جالين » إلى
السريانية .

وأنتجت المدرسة نفسها في القرن السابع الميلادي الفيلبيين
المصنفين « بولس الأجاينيلى » Paul d'Aeginae و « أهرون »
Ahrôn صاحب « الحيل الميكانيكية » . ومن أشهر ما كتب هذا
الآخر كتابه « سبعة كتب في الطب » Sept livres de Médecine ، باللغة
اليونانية ، وكتابه الموسوم Les pandectes médicales باللغة
السريانية ، وقد ترجم إلى العربية وعرف فيها باسم « المجموعة الطبية » .
وكان له أثره المحسوس في الطب الاسلامى في أوائل عهد العرب
بالاشتغال بالعلوم الطبية .

ويجدر بنا أن نعرف أنه بعد أقول نجم الفلسفة الوثنية بظهور

(١) Yuhannan d'Apamé رأس عين (٢) Sergius de Rôs 'Ain

المسيحية وتغلبيها على كل ما هو وثني من علم أو فلسفة ، خضعت روح البحث العلمي في الاسكندرية لتعصب ديني ، اتخذ بعض الاحيان اشكالا غاية في القسوة والعنف .

ومما قد تلذ للانسان معرفته ، أن الحججة الذي يحدثننا عن جامعة الاسكندرية ومدارسها المنحلة ، في عصر من عصور الاضطراب والقوضى والركود العلمي ، هو المؤرخ العربي المسلم ، والفيلسوف البغدادى « الفارابى » ، في منتصف القرن العاشر الميلادى (٩٥٠ م) . ومن سوء الحظ أن يكون كتابه عن الفلسفة اليونانية الذي كان يعرف باسم : *Sur les débuts de la philosophie grèque* مفقودا الآن — ووصلتنا منه بعض عبارات تضمنها كتاب « تاريخ الطب » المعروف باسم « عيون الانباء » لابن أبى أصيبعة — يقول الفارابى : « أن امبراطور المسيحيين في حربه على فلسفة الوثنيين وفلسفة أرسطو خاصة في القرن السادس ، أباح دراسة كتب المنطق لارسطو حتى مسألة الاشكال الوجودية » *Des Figures de l'Existence* ، وحرّم ما عدا ذلك لتعارضه مع التعاليم الدينية المسيحية . ومن هذا نفهم أن الفلسفة أخذت منذ ذلك الحين تروح في قيد شديد ، وظل الحال كذلك حتى ظهور الاسلام . ويضيف الفارابى : أن أستاذه المسيحي ويوحنا بن حيلان *Youhannan b. Hailân* رفض أن يعلمه تفصيلا بذاتها من عالم المنطق لارسطو ، كان محظورا على الفلاسفة الاسكندريين في ختام القرن التاسع الميلادى تعليمها لغير المسيحيين — ثم غدا مباحا تعليم هذه الفصول بذاتها في وقت ما لطلاب العلم من غير المسيحيين .

والظاهر أن الحركة العلمية كانت منذ القرن السادس وفقاً على رجال الدين المسيحيين — ولاغربة فقد كان «سرجيوس» و«أهرون» قيسيين يعقوبيين . ولا يعزب عن البال أن انتشار النسطورية في آسيا الغربية، وامتدادها إلى جوف الإمبراطورية الفارسية الساسانية، أيقظ في تلك الأرجاء رغبة صادقة في العلم اليوناني في شكله الهليني السرياني . وكان قد حدث عام ٤٨٩ م أن أمر الإمبراطور «زينو» Zenon بتحطيم المدرسة العلمية النسطورية التي كانت مزدهرة في «أداسيا» (الرها)، فلم تلبث أن قامت على إثرها مدرسة نمائلة في نصيبين Nisibis ببلاد القرس .

وعاصرت هذه المدارس مدرسة طيبة ذات بال قامت في «جنديسابور» وظلت عامرة حتى القرن التاسع . وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسي في بغداد وكثيرون من المسيحيين . ولا يشق التاريخ غلطنا عن حالة الاسكندرية قبل الفتح العربي مباشرة ، وما كانت فيها من المدارس ، ولا هو يطلعنا على مدى غناء الدراسات الفلسفية والطبية فيها ، ولا نكاد ندري مقدار ما كان جمهور المدينة العريقة يفيد من كتب المكتبات الخاصة فيها . ولقد استطاع «حنين بن اسحق» بعد ذلك بزمان أن يشتري كثيراً من المخطوطات الأخرقية لمكتبته الخاصة ببغداد ، وهي المكتبة التي كان لها شأن كبير في حركة الترجمة والنقل إلى العربية .

هذا — والمكتب العربية والفارسية التي تعرضت لوصف حال الاسكندرية قبل الفتح العربي تحوى كثيراً من الأغلاط في التواريخ ،

وتحاطب خططا ظاهرا عند الكلام على بعض الشخصيات ، فقد جعلت من « حنا فليونس » ، أو « حنا الأجرومي » شخصا عاش حتى شاهد حوادث الفتح العربي (٦٤٢ ميلادية) واتصل بالقائد عمرو بن العاص . وقام الدليل على خطأ هذا الزعم ، ونفاه فيمن نفوه « فورلاني » الإيطالي — ومن عجب أن يجعل منه المؤرخ الفارسي « ظهير الدين البهقي » (١١٧٥ م) شخصا من الديلم عاش حتى أدرك عصر معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ / ٦٨٠ م) ، وهو حين يزعم ذلك ، يعتمد على وثيقة مكذوبة وجدت في حيازة طبيب مسيحي من طوس في بلاد الفرس ، قيل إنها من « علي بن أبي طالب » ، إلى « حنا فليونس » ، خطاب تقدير ورعاية لجهوده العلمية ؛ اطلع عليها « البهقي » ، ثم ساق روايته . وتضيف الرواية إلى ذلك أن الأمير « خالد بن معاوية » تلمذ على « حنا فليونس » ، هذا ، وتلك رواية شائقة حقاً ، ولكنها لا تعتمد على أي سند صحيح . ولا يخلو من الطرافة أيضاً ، ما يذهب اليه « عبيد الله بن جبرائيل » الطبيب ، في مؤلف له عن الطب مفقود الآن ، من أن « حنا فليونس » كان ملاحاً يقوم بالخدمة في قارب صغير ، كان يروح ويغدو بين الاسكندرية وجزيرة فاروس الواقعة أمامها ، وكان في غدوه ورواحه ينقل العلماء الأفاضل (علماء الأكاديمية الاسكندرية) ، ويفيد من علمهم أيما فائدة ، بالاستماع إلى أحاديثهم ومحاوراتهم ، حتى أن ذلك أيقظ في نفسه شغفا فائقا بالاطلاع والمذاكرة . ولكن شكاً كبيراً داخل « حنا » أول الأمر في مقدرة على الاضطلاع بأعباء العلم ، غير أن طول تفرسه في غلة كانت تحاول

أن ترقى إلى قمة مرتفع، أخذت تصعد ثم تسقط، ولم تزل بين صعود وسقوط، لا تعرف للبلل سيلا، حتى استطاعت بفضل المثابرة أن تدرك غايتها. — رأى ذلك فثارت همته، وسرعان ما باع قاربه وتفرغ للاشتغال بالعلم، وبدأ جهوده بدراسة قواعد اللغة، ومن هنا جاءت تسميته باسم حنا الأجرومي والنحوي، (كذا)

درس الأستاذ ماكس مايرهوف، مسألة فناء جامعة الاسكندرية، وخص الكتب العربية بمزيد العناية مبتدئا بتاريخ ابن عبد الحكم «فتوح مصر» (٨٧١م) ومنتها بالخطط التوفيقية لعل باشا مبارك. وقد استطاع العثور على مذكرات شخصية هي بمثابة الوثائق، أمكنه أن يستخلص منها حقائق أربع ذات بال.

الاولى: عبارة منقولة من كتاب لأبي نصر محمد «الفارابي» (٩٥٠م) مفقود الآن كان يبحث في أصل كلمة فلسفة تفيد أنه: بعد خضوع البلاد للإسلام، انتقل مركز العلم من الاسكندرية إلى أنطاكية، وهناك استقر طويلا حتى هلك معظم رجاله غير واحد كان من تلاميذه رجلان هجرا أنطاكية يحملان كتبهما، أحدهما من مواطني «حاران»، وهي بلدة في أعالي أرض الجزيرة — والثاني من «مرو» في بلاد العجم، وكان من تلاميذه هذا الأخير «ابراهيم المروزي» و«يوحنا بن حيلان». أما تلاميذه «الحاراني» فكان منهم القس «اسرائيل»، و«الكويري» (والكلمة على الأرجح تحريف للاسم السرياني «كيوريه» Qiyôre أو «قيرس» Cyrus)

وهذان الأخيران رحلا إلى بغداد حيث انكب إسرائيل على ديانته انكبائيا ، أما الكويرى فقد ابتدأ يعلم الناس ، في حين انصرف ابن حيلان بدوره إلى أمور الدين — واستقر « المروزي » ببغداد وكان من تلاميذه « متى بن يونان » .

والثانية : تروى أن « الفارابي » كان نفسه تلميذا ليوحنا بن حيلان ، ويؤكد هذا القول نفسه « ابن سعيد » المؤرخ العربى الأسبانى فى كتابه طبقات الأمم Categories des Nations . ويشير « المسعودى » صاحب « مروج الذهب » إلى ذلك عند كلامه عن الفلسفة فى كتابه مفقود بما معناه : « نحن تكلمنا عن الفلسفة وتحديداتها وانقساماتها ، وذكرنا كيف انتقل مركز العلم (١) من أثينا إلى الاسكندرية ، ولأى الأسباب كان ذلك الانتقال ، كما انتقل بعد ذلك بزمان ليس بالقصير فى خلافة « عمر بن عبد العزيز » من الاسكندرية إلى انطاكية ، ثم إلى « حران » فى زمان « المتوكل » العباسى ، وكيف انتهى العلم فى زمان « المعتضد » إلى عالين هما « الكويرى » و « يوحنا بن حيلان » الذى قضى نحبه فى بغداد فى حكم « المقتدر » ، ومنهما إلى « ابراهيم المروزي » ثم إلى « أبى محمد بن كرتيب » و « أبى بشر متى بن يونس » . وهما تلميذان للبروزى . وينسب إلى « متى » أنه علق على كتب « أرسطو » فى المنطق ، ذلك التعليق الذى لا يزال مرجعا من مراجع العصر الحاضر . وتوفى « متى » ببغداد فى خلافة « الراضى » ، فانتقل العلم إلى « أبى نصر محمد بن محمد الفارابى » تلميذ يوحنا الذى كانت وفاته

(١) « مجلس التعليم » فى النص الأصيل

بدمشق في رجب (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) وهو أشهر من يرجع اليهم في الفلسفة من علماء العرب ، لم يزه فيها غير مسيحي من بغداد هو « أبو زكريا يحيى بن عدى » .

ويميل الدكتور ماير هوف إلى الاعتماد على نص المسعودى أكثر من ميله إلى الاعتماد على النص المنسوب إلى « الفارابى » ، ذلك لأن نص المسعودى في هذا الصدد أدق ، من حيث تحديده للزمن الذى تم فيه انتقال العلم من الاسكندرية إلى الشرق الأدنى .

أما الحقيقة الثالثة التى تهمنا فى التدليل على انتقال مركز العلم من الاسكندرية ، فهى نص موجود فى كتاب محفوظ بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٣ ط ١) لعل بن رضوان ، طبيب الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، فى الصفحة ٧ سطر ٤ وما بعده ما يفيد أن الإباضة عارضوا بشدة حركة الاشتغال بالعلوم والقنون الطبية ، وأن الخلفاء على العكس من ذلك شجعوا هذه الحركة ، وأن الدراسة الطبية فى الاسكندرية كانت قبل الفتح العربى تشمل أربعة مقالات لابهرراط ، وست عشرة مقالة لجالين ، وأن تلك الدراسة استمرت حتى زمن « عمر بن عبد العزيز » ، وفى هذا يتفق « ابن رضوان » مع غيره من الكتاب فى تحديد الوقت الذى انتهت فيه الدراسات العلمية بالاسكندرية . والحقيقة الرابعة يعيها لنا كتاب « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة ، وخلاصتها أنه كان بالاسكندرية فى ولاية « عمر بن عبد العزيز » على مصر معلم للطب هو « عبد الملك بن أيجر الكنائى » وكان يدرس فى

الاسكندرية قبل فتح العرب لها ، ثم تحول إلى الاسلام على يد
عمر بن عبد العزيز وإلى مصر ، وأصبح له صديقا حميما . ولما أن صارت
الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، وسكن الشام بحكم ما آل إليه من
خلافة المسلمين ، تحول مركز العلم إلى انطاكية ، حران ، وبقيت الصلة
وثيقة بين الخليفة و « ابن أبحر الكنانى » ، الذى أصبح طيبا خالصا له .
وهذه الرواية وإن كانت تتفق مع ما يذكره بعض المؤرخين ،
إلا أن بها اضطرابا ظاهرا ، هو أن « ابن أبحر » أدرك العصرين البيزنطى
والاسلامى ، وعاش حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ) ، ولو
صح هذا لنيف عمر « ابن أبحر » على المائة . وفضلا عن ذلك فالرجل
يحمل اسما عربيا بحتا ، وينسب إلى قبيلة « كنانة » — التى لم تهاجر
قط إلى مصر .

وتكاد تتفق المصادر الأربعة المتقدمة على أن مركز الثقافة اليونانية
ظل بالاسكندرية مدة من الزمن بعد الفتح العربى ، وأنه انتقل منها
مهاجرا إلى انطاكية وحران حوالى سنة ٧١٨ ميلادية فى خلافة
« عمر بن عبد العزيز » ، وأن ذلك لم يكن بدافع القضاء على مكانة
الاسكندرية ، وإنما كان بحكم انتقال الخليفة إلى مقر حكمه فى الشام .
ولم تكن دمشق بأصلح الأماكن لتوطن فيها الحركة الثقافية ، لأن
العلم اليونانى كان قد وجد سبيله قبل هذا الوقت بزمن إلى معقلين
هامين ، هما أنطاكية وحران .

القسم الثاني

في النقل عن الاسكندرية

« وتأثر العقل العربي بعلومها »

الباب السادس

في النقل عن الاسكندرية

الفصل الأول

نقل اليعاقبة والنساطرة والسريان

الاختلاف بين المسيحيين على طبيعة المسيح — اليعاقبة والنساطرة وأثرهما في
الاذاعة والنقل — السريان وحركة النقل — امتزاج الفلسفة بالدين — المذهب
الاسكندري في الفلسفة وانتشاره في العراق وفارس — دراسة العرب له — أثره
في تصوف الاسلام — المسيحيون يخرجون كتباً دينية دعاتها الافلاطونية
الحدیثة — بعض النقلة من السريان — السريان هم الوسطاء بين اليونان والعرب
— النساطرة ونقل الطب الاسكندري — جامعة حران تحتفظ بالعلم اليوناني حتى
عصر النبل الأعظم .

انقسم النصارى فيما بينهم شيعاً اختلفت على طبيعة المسيح عليه
السلام ، فكان منهم ، اليعاقبة ، الذين انتشروا في مصر والنوبة
والحبشة ، وهـ النساطرة ، الذين انتشروا في العراق وفارس وانطاكية ،
لكل منهما رأي في المسيح : فاليعاقبة يعتقدون أن المسيح هو الله :
امتزج الانسان والله وكونا « طبيعة واحدة » — أما النساطرة
فيعتقدون أن للمسيح طبيعة متميزة تمام التميز عن طبيعة الاله :
فطبيعة المسيح « ناسوتية » (بشرية) صرفة ، وطبيعة الاله ،
« لاهوتية » صرفة ، ولا امتزاج بينهما البتة (١) .

وأدى هذا الانقسام إلى جدال شديد في هذه المسألة وغيرها

(١) نظرية الأثومين في المسيح

من المسائل المتفرعة عنها ، ولجأ كل فريق إلى المحاجة والمساجلة ، يريد التفوق على الفريق الآخر .

وكان اليعاقبة يحكم وجودهم في مصر ألصق بالفلسفة اليونانية المصرية ، وبعبارة أخرى ألصق بفلسفة « أفلوطين » ، « الاسكندري » . وسارع رجال منهم إلى الاستفادة منها في تقوية حججهم أمام مخالفيهم من النساطرة والوثنيين على السواء . واعتنق بعض رجال الدين المسيحي مذهب الاسكندرية الفلسفي ، كالأب « اوغسطينوس » ، فبدأ بذلك عصر جديد امتزجت فيه الفلسفة بالدين ، تؤيده وتناصره ، وأصبحت الاسكندرية الوسط الطبيعي لهذا الامتزاج ، ففيها اجتمعت آراء الغربيين والشرقيين على ما بينهما من تباين ، وحثمت الضرورة هذا الجمع بين آراء الشرقيين ، ومعظمها الهام وتصوف ، وآراء الغربيين ، وقوامها التفكير والتأمل — ووجد المسيحيون في فلسفة الاسكندرية اجتماع هذين العنصرين معا . وانبعث عن الاسكندرية مذهب « الافلاطونية الحديثة » قويا من جديد ، اعتنقه اليعاقبة وكأئنا أخذوا على عاتقهم نشره في الشرق الأدنى ، فانتشر بادية الامر في انطاكية ، حيث كثر جدل اليعاقبة مع النساطرة ، ومن ثم تسرب المذهب إلى نسطرة الموصل والعراق ، وجد سبيله إلى فارس . وجاور العرب في العصر الأموي ، فكان لهم به علم — فلما أن مالت نفوسهم إلى تعرفه ، لما فيه من تصوف ظاهر ، أخذوا فلسفة المسلمين من المعتزلة والمتصوفة ودرسوه ، وقروا به حركاتهم — وهكذا كان لبعث هذا المذهب أثر واضح في الاسلام ، كما كان له

أثره البين في المسيحية ، في مصر وفي خارجها .

« ولما انتصرت المسيحية ، وجاء « جستنيان » وأغلق المدارس
اللاينية ، واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر ، ومنهم من تنصر ،
أخرج المسيحيون كتباً في الأفلاطونية الحديثة ، مصبوغة بالصبغة
النصرانية ، ككتاب « ديونيسيوس » Dionysius الذي ألفه
« أفلوطيني مجهول » ، في منتصف القرن السادس للمسيح باسم
(ديونيسيوس) ، ادعى أنه من تلاميذ بولس الحواري ، وقد شرح فيه
أسرار الألوهية ودرجات عالم الملكوت ، والكنيسة السماوية على
المذهب الأفلوطيني الاسكندري ، وصار من ذلك الوقت عمدة
للمسيحيين — ثم دخل هذا المذهب في الاسلام ، عن طريق
فريق من المعتزلة والحكماء والمتصوفة ، ومنهم أخذت جل أفكارها
جماعة « إخوان الصفا » .

وقام السريانيون بنصيب كبير في نقل آراء الاسكندريين في
الفلسفة لآلامهم باليونانية والعربية معاً . واليه يرجع الفضل في ذيوها
بعد اليعاقبة الذين أثاروها لأول مرة في جدلهم الديني مع النسطوريين ،
أذاعوها في العراق وما جاورها — وأشهر الناقلين من اليونانية إلى
السريانية « أبو الفرج بن العبري » مؤلف كتاب « مختصر الدول »
الذي وفد في وقت ما على الاسكندرية ، ودرس فيها بعض العلوم
اليونانية : و « ابن الناعم » الذي نقل من السريانية إلى العربية كتاب
« فورفيروس الصوري » (بروفيري) ، أحد تلاميذ أفلوطين الاسكندري ،
وقد طبع هذا الكتاب في برلين ١٧٨٢ م .

وظل السريان حملة للعلم اليوناني إلى ما بعد تمام انتشار الاسلام في الشرق الأدنى . وبقيت « حران » معقل الدراسات اليونانية من رياضة وفلك وفلسفة حتى العصر العباسي ، حيث اشتغل كثير من علماءهم نقلة للآمون من اليونانية والسريانية إلى العربية . وكانت للسريانية فضل حفظ مادة الكتب اليونانية التي انعدم أصلها . وعلى ترجماتهم لكتب الفلسفة اعتمد العرب عند أول اشتغالهم بهذا العلم . وقد كان السريان نقلة مدققين في كل ما نقلوه من علوم المنطق والطب والطبيعات والرياضيات ، أما الروحانيات فقد نقلوها نقلا معدلا بحيث أصبحت تلائم تعاليمهم المسيحية ، وهم في هذا المسخ جعلوا من أفلوطين أحد مترهبهم ، وأسكنوه في البراري منعزلا يتعبد في معبد أقامه لنفسه (كذا) — ونحا نحوه المسلمون عند ما راحوا ينقلون بدورهم ، فقد أسقطوا من الروحانيات اليونانية كل ما يخالف تعاليم الاسلام ، غير أنهم حرصوا على نسبة المذهب إلى صاحبه أفلوطين . الاسكندري ، الذي أطلقوا عليه اسم « الشيخ اليوناني » .

° ° °

ويعتبر « سرجيوس الرسفي » ، المتوفى سنة ٥٣٦ للميلاد من أشهر الناقلين . ترجم عن اليونانية كثيرا من الكتب ، أخصها رسائل لأرسطو وفورفيروس وجالينوس ، ووضع في علم المنطق رسالة ناقصة وصلنا منها مقالات في الجنس والفصل ، والإيجاب والسلب ، والمقولات العشر . وله غير ذلك رسالة فلكية تبحث في حركة الشمس وفي تأثيرات القمر .

وهو عند اليعاقبة والنسطوريين عميد الباحثين في الطب اليوناني والمنطق والفلسفة — ذاعت كتبه بينهم ذيوغا عظيما .
ومهم غير « الرسعني » ، « حنين بن اسحق » ، وابن أخيه ،
« وابن البتاعي » . ويتبين فضل النساطرة في نقل علم الطب
بوجه خاص ، وهم حلقة الاتصال بين الطب اليوناني والعرب . وأشهر
التاقلين منهم إطلاقا « حنين بن اسحق العبادي » الذي كان في وقت
ما في العصر العباسي زعيم المدرسة الطبية في بغداد .

الفصل الثاني

فيما نقل العرب عن الاسكندرية

الطب - الكيمياء - الفلسفة - الهندسة - الجبر - الجغرافيا - الفلك

في الطب والكيمياء

كان للطب شأن عظيم في عصر البطالمة ، وكانت مباحثه متنوعة .
عندهم . وأنجبت الاسكندرية أشهر جراحين في العالم القديم قاطبة ،
هما : هيروفيلوس ، و « إراسستراتس » ، وعلى ايديهما تقدم في
التشريح تقدما عظيما في المتحف الاسكندري .

ولما أدرك الضعف جامعة الاسكندرية ، وشغلت عن متابعة
التقدم العلمي بالفلسفة في عصورها المتأخرة ، انحط شأن الطب
واعتراه قصور بين ، تناول مادته وطريقة تدريسه .

وصادف العرب عند فتحهم للاسكندرية ، آخر يمثل للدراسة
الطبية ، وهو « بولس الاجانيطي » (١) يلقى محاضراته التي لم تعدت
عشرة مقالة مأثورة عن « جالينوس » ، ومقالات جالينوس هذه كانت
تعتبر الحجة لدارسي الطب جميعا . ولم يتعد منهج دراسة الطب
بجامعة الاسكندرية في آخريات أيامها تلك المقالات .

وهكذا صادف العرب الطب الاسكندري في آخر مراحلها ،

(١) Paul' of Aeginae

ولم يدركوا شيئا من الآثار الطبية القديمة لتقدم العهد عليها .
وأول ما نقل العرب من طب الاسكندرية مقالات جالينوس
هذه ، وماثور من حكمة ، بقراط ، ، وخلاصة آراء ، بولس
الاجانيطى ، ، ولا سيما فى فن التوليد .

ويختلط العلم عادة فى عصور الضعف بكثير من الخرافة —
والمرجع أن يكون العرب قد نقلوا الطب الاسكندرى مشوبا بالتنجيم
والشعوذة والسحر ، فى عصر انفسح فيه المجال لكل هذه الأباطيل —
وسرت هذه الروح نفسها من جامعة الاسكندرية إلى جامعة بادوا ،
الاطالية التى أخذت نظامها عن جامعة الاسكندرية .

وللاسكندريين مباحث قيمة فى علم الكيمياء ، ارتبطت بآدى
أمرها ارتباطاً وثيقاً بالطب ، لما لها من وثيق الصلة به ، ثم عادت
فتأثرت بالروح التى سادت فى عصر ضعف الجامعة ، فامتزجت
بالشعوذة ، ونقلها العرب بصفقتها هذه ، وزادوا عليها من مباحثهم
الخاصة ، وسخروها لخدمة الطب ، فى استنباط العقاقير ، (كما
سخروها لكشف حجر الفلاسفة الذى زعموه يحول جميع المعادن
إلى ذهب)

ومن أوائل النافلين للطب الاسكندرى الطيب ، ابن أبحر الكنانى ،
الذى استخدمه الخليفة ، عمر بن عبد العزيز ، فى نقل الطب
إلى العريصة ، ومنهم كذلك ، سرجيوس الرسغنى ، . من رأس
عين ، ومن أشهرهم فى عصر النقل الأعظم أبو زيد ، حنين ابن اسحق ،

العبادى، المتوفى ٨٧٦ م ، وهو نسطورى جال في جمع كتب الطب اليونانى، وانتبى اليه كثير من طب الاسكندريين، ثم استقر في بيت الحكمة ، في بغداد وترجم جالينوس ، وأبقراط ، إلى العربية. ولم تقف جهود ، حينئذ ، في الترجمة عند حد الطب ، فقد ترجم أيضاً بعض مؤلفات « افليدس » و « أبولونيوس » و « أرشيدس » في الهندسة والطبيعة .

في الفلسفة

لعل أحب الاشياء إلى العرب هو هذا الجانب الفلسفى من علوم الاسكندرية، المعروف «بالأفلاطونية الحديثة» لأنها فلسفة تصوف، والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التصوف ويحبون مباحثه .

نقل اليعاقبة هذا الضرب من الفلسفة إلى سوريا وغيرها من بلاد الامبراطورية ، مستعينين به على نشر مذهبهم الدينى ، فوضعوه بهذا على مرأى من العرب في عصر ازدهاد فيه تشوق هؤلاء إلى الاطلاع على آثار الاعاجم .

ونقل هذه الفلسفة إلى السريانية « ابن الناعمى » في ترجمة غير دقيقة خلطت خلطاً ظاهراً بين أفلوطين شيخ هذا المذهب وأفلاطون الفيلسوف اليونانى — وبهذا الخلط سبب « ابن الناعمى » للفارابى متاعب جمة ، إذ حاول الفارابى أن يوفق بين تعاليم أفلوطين باعتباره « أفلاطون » وتعاليم « أرسطو » .

وسيج عن دراسة العرب ونقلهم لأرسطو أن اكتسبوا

أسلوبه المنطقي في الجدل — كما نتج عن دراستهم ونقلهم للأفلاطونية الحديثة ، أن اكتسبوا روحها التصوفية ، فكان من أثره أرسطو ، عندهم نشوء مذهب « الاعتزال » ، كما كان ومن أثر دراسة الأفلاطونية الحديثة ، تقوية روح « التصوف » الاسلامي .

وللعرب أسلوبهم الخاص في نقل الفلسفة — من ذلك ما نقله الشهرستاني عن الشيخ اليوناني (١) (أفلاطون) في فصل بسيط فيه فكرته في الآله والعقل والمادة ، وأورد فيه كثيراً من الرموز الفلسفية التي أثرها لشرح الفسكرة (٢) .

في الهندسة

بلغت الهندسة شأوا عظيما على يد « اقليدس » الرياضي الاسكندري (٣٠٦ / ٢٨٣ ق م) مؤسس المدرسة الرياضية بالاسكندرية . والمعروف ان « اقليدس » وضع في هذا الباب ثلاثة عشر كتابا ، عصففت يد الزمن ببعضها ، وأبقت على البعض الآخر (٣) .

(١) ليس أفلاطون يونانياً . إنما هو مصري ولد في أسيوط ، ولعل الخطأ الذي وقع فيه « الشهرستاني » راجع إلى الخطأ الذي شاع في وقت ما ، من أن أفلاطون هو أفلاطون .

(٢) ومن رزموه وأمثاله التي توضح أسلوبه الفلسفي قوله :

« أن أمك روم ، أمكها فقيرة رعتنا » ، وإن أباك لحدث ، أمكها جواد مندر .
يفسد بالأم الحيولى وبالأب الصورة . وبالروم انقيادها ، وبالفقر احتياجها إلى الصورة . وبالرعيونة قلة أباؤها على ما تحصل عليه — أما حدادتها الصورة فهي أثراتها بلبسة الحيولى . أما جودها فاما تصرد به أن النقص لا يعترضها من قبل ذاتها ، فهي جواد ولكن من قبل الحيولى عن والمثل والنحل .

(٣) خمسة منها في مكتبة « دليدن » أخذت لها صور فوتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية .

وقد ترجم هذا البعض إلى العربية، وعرف باسم «الاصول» Elements وله غير الاصول الهندسية مصنقات أخرى .

عنى العرب بنقل «أقليدس»، وظهرت أول ترجمة عربية لمؤلفاته في عهد أبي جعفر المنصور، ترجمها «أبو زيد حنين بن اسحق العبادي» وترجم معها رسالة «أبولونيوس» في المخروطات وبعض آثار أرسطو في القوانين الطبيعية .

ثم نقلها لهرון الرشيد «الحجاج بن يوسف بن مطر» (٧٨٦/٨٠٩ م) الذى نقلها مرة ثانية للباثون (٨١٣/٨٣٣ م) .

وترجمها أيضا «ناصر الدين الطوسي» و«ابن الهيثم» وعن هذه الترجمات العربية نقلت آثار «أقليدس» إلى اللاتينية، وأشهر ترجمة لاتينية لأقليدس هي ترجمة «كماندينوس» Commandinos وأول ترجمة انجليزية لأقليدس قام بها سير «هنرى بلنجستى» Billingsley عمدة لندن ١٧٥٠ م .

وتسابق الأفرنج في نقل «أقليدس» من «العربية» مرجعه الوحيد، بعد أن عفت مؤلفاته الأصلية، وبلغ عندهم الشغف بنقله إلى حد أن تسكر «اثلارد» Athelhard of Bate في زى طالب عربى، ونقل إلى اللاتينية نسخة عربية كانت في بعض مكتبات الأندلس .

وطبعت جامعة اكسفورد (١٧٠٣ م) مؤلفات «أقليدس» الاغريقية واللاتينية، طبعا «دافيد جريجورى» David Gregory ثم أعيد طبعا بالأغريقية مرة ثانية (١٨١٤/١٨١٨ م)، طبعا «بيرارد» (Peyrard's Greek Text) في ثلاثة مجلدات .

وبقيت مؤلفاته الهندسية أكثر من التي عام خالدة على الدهر،
لم تظهر في خلالها أية حركة مناهضة، إلا في منتصف القرن التاسع
عشر، حين ظهرت في إنجلترا حركة قصدت إلى الغرض من شأن
الهندسة الاقليدية. ولا تزال هندسة « اقليدس » قيمة حتى وقتنا
هذا — يدل على ذلك أن ملخصا لبعض هندسة اقليدس ما يزال
يستعمل الآن ككتاب مدرسي يدرس في المدارس الانجليزية وغيرها
من مدارس العالم.

في الجبر

من أساطين الرياضة في مدرسة الاسكندرية « ثيون » Theon
وابنته الرياضية التابعة « هيباشيا » Hypatia . علق ثيون على
ما وضع « اقليدس » في الهندسة، وما كتب « كلوديوس بطليموس »
في الفلك، واشتركت معه في هذا العمل الجليل ابنته .

وعنى « ثيون » وابنته هيباشيا، بعلم الجبر الذي وضعه « ديوفانتس »
من قبل . وديوفانتس هذا رياضي يوناني في نظر البعض، وعلى هذا
تكون نشأة الجبر يونانية تبعا، وهو في نظر البعض الآخر اسكندري،
عاش في القرن الخامس الميلادي، وعلى هذا الزعم تكون نشأة علم
الجبر اسكندرية متأخرة، لا يونانية قديمة .

ومهما يكن من شيء، فقد نشأ الجبر متأخرا عن الهندسة مراحل
واسعة، فقد عرف التحليل في الهندسة قبل أن يعرف في الجبر .
وظل علم الجبر متاقلا حتى أدركه العرب فتقلا ما أثبت فيه ديوفانتس
من ناحية، ووضع، « محمد بن موسى الخوارزمي »، في عصر المأمون

مقالة مبتدعة فيه ، نقلت إلى اللاتينية في عصر النهضة الأوربية . وما تزال النسخة العربية ترى في إحدى مكتبات أكسفورد حتى الآن . وعلى هذا يكون العرب قد أضافوا إلى الجبر شيئا ونقلوا شيئا آخر . وربما كانت هذه المقالة الجبرية التي وضعها الخوارزمي ، نقلا عن الهنود : والمعروف أنه أخذ كثيرا عن هؤلاء ، وكانوا على دراية تامة بالجبر والحساب .

وفي نهاية القرن العاشر للميلاد ، استطاع محمد أبو الوفاء ، أن يتناول كتاب ديوفانتس ، في الجبر بالنقل والتعليق . وبعد الخوارزمي ، و « أبي الوفاء » ركزت ربح هذا العلم .

وينسب إلى محمد بن موسى الخوارزمي أنه أول من نشر بالعربية مصطلح هذا العلم واسمه الذي نقل واستعمل في اللغات الأوربية ، في مؤلف له كان محفوظا في خزانة كتب المأمون . وعن الخوارزمي ، ترجم الجبر إلى لغات أوربية مختلفة — وتناول مؤلفه هذا الجمع والطرح والضرب الجبري ، والمعادلات الآنية من الدرجة الثانية ، والجذور ، ورفع الكميات ذات الحد الواحد .

وأول من ربط الجبر بالهندسة ، وبرهن على إمكان استخدامها في الحلول الهندسية ، ثابت بن قرة ، من رياضي العصر العباسي . وكتب العرب بعد ذلك في علم الجبر ، ولكنهم لم يضيفوا شيئا إلى مجهودات الخوارزمي ، و « أبي الوفاء » ، و « ابن قرة » .

في الجغرافيا والفلك

أشهر ما كتب في الجغرافيا والفلك في الاسكندرية ، ما وضعه

فيهما « إراتوستينيز » و « كلوديوس بطليموس » .

وأول ما نقل العرب منهما كان في زمن « أبي جعفر المنصور » ، حين ترجم « المجسطى » ، Almageste ، أعظم مؤلفات بطليموس ، إلى اللغة العربية . وما يؤسف له أن الترجمة العربية لكتاب « المجسطى » ليست موجودة في أية مكتبة من مكاتب الغرب أو الشرق (١) .

ولكن « محمد بن موسى الخوارزمي » (٢) ، الفلكي الشهير ، أمين دار كتب المأمون الذي تقدم ذكره في علم الجبر ، وضع كتابا في الفلك استقاه من « بطليموس » ، وفيه يتفق مع أستاذه في مسألة درجات الطول ودرجات العرض . ويعرف كتاب « الخوارزمي » هذا باسم « السند هند » ، وهو خلاصة آراء « كلوديوس بطليموس » . — وكان هذا الكتاب موضوع الدراسات الجغرافية والفلكية على طول العصور الوسطى ، وهو المرجع الوحيد الباقي للآن من آثار بطليموس .

وأضاف « الخوارزمي » إلى الجغرافية إضافة قيمة ، فله فيها نظرية تقسيم الكرة الأرضية إلى سبعة أقاليم مناخية متباينة .

ومنذ أخذ « الخوارزمي » عن بطليموس ، بدأ فلكيو العرب يشتغلون بوضع علم الهيئة ، ويبحثون في الأفلاك والنجوم ، فوضع « الفرغاني » (٣) ،

(١) وأهم ما كان يحتوي « المجسطى » ، زيج زمني ، وحساب لحركات الشمس والقمر ، وجدول باسماء النجوم الشمالية ، وحركات الكواكب .

(٢) والخوارزمي هو الراضع لعلم اللوغاريتم Algorithm ، والكلمة تحريف لاسمه هو — وقائدة اللوغاريتم في الجبر معروفة . وبه أضاف الخوارزمي إلى مادة الجبر إضافة ذات بال .

مؤلفاً يحتوى على ثلاثين مبحثاً في الهيئة، والافلاك، وحركات النجوم، أساسها كلها معارف بطليموس الفلكية.

وتناول «البثاني» (٢) بعض مقالات بطليموس فشرحها، ووضع «زيجاً» يعرف باسم «الزيج الصابى» وهو أدق من زيج بطليموس المثبت فى «المجسطى».

وترجم «زيج البثاني» إلى اللاتينية، وهو محفوظ فى مكتبة القاتيكان، ومنه نسخة أخرى فى مكتبة الاسكوريال فى أسبانيا.

وتعتبر الحقائق التى قررها البثاني فى الفلك أدق حقائق وصل إليها الفلكيون حتى العصر المتأخر. وقد حسب مقدار ميل دائرة فلك البروج، وقرر أنه يبلغ $23^{\circ} 25'$ ، وهو لا يختلف كثيراً عما قرره أخيراً العالم الفلكي «لالاند» وهو $23^{\circ} 25' 41''$ — كما حقق أيضاً طول السنة الشمسية، وخالف فى تقديره بطليموس بعض المخالفة، ولم يسلم تحقيقه من الخطأ بسبب اعتماده على أرصاد هذا الأخير.

وجاء بعده البثاني كثير من اشتغلوا بمسائل الفلك والجغرافية، منهم «ابن يونس المصرى»، صاحب الزيج الحاكى الذى اشتغل بالفلك فى عصر الحاكم بأمر الله، وه البيرونى، المؤرخ المعروف، صاحب

(١) احمد بن محمد الفرغانى، أحد العلماء المصنفين بالنجوم فى عصر المأمون، ومؤلف كتاب «المدخل».

(٢) محمد بن جابر بن سنان، أحد المشهورين برصد الكواكب وحساب النجوم فى العصر العباسى.

كتاب ، التفهيم ، ، وكتاب ، القانون المسعودي ، الذي وضعه بأمر من السلطان ، مسعود بن محمد ابن سبكتكين ، الغزنوي .
واشتغل فريق من فلكي العرب بقياس الدرجة الأرضية ، متخذين من معلومات ، أراتوسثينز ، أساساً لأبحاثهم ، وقدرها بعضهم بستة وخمسين ميلاً ، والبعض الآخر بستة وخمسين ميلاً وثلاثين ، وفريق ثالث قدرها بسبعة وخمسين ميلاً — اختلفوا في تقديرها بسبب افتقارهم إلى آلات الرصد الدقيقة . وكانت المحاولة الأولى لقياسها في عصر أبي جعفر ، المنصور ، .

ومن اشتغلوا بقياس الدرجة الأرضية ، سناد بن علي ، وه خالد ابن عبد الملك ، ، وه علي بن عيسى الأسطرلابي ، وه علي بن البحري . في عصر المأمون — وكانت بركة « سنجار » مسرح أعمالهم الفلكية . وهكذا كانت جهود بطليموس ، وإراتو ، الاسكندر بن أساساً لكل مباحث العرب في علم الفلك والهيئة .

وقدر لعلم بطليموس وإراتوسثينز أن ينتقل مندجاً في أبحاث العرب إلى أوروبا ، حيث ترجم إلى اللاتينية والأغريقية ، وحفظ في مكتبات الجامعات ، حتى تناوله يد البحث الحديث ، فاستفادت منه استفادة كبرى في وضع « الفلك الحديث » .

انصرف العرب في العصر العباسي ، بفضل مؤازرة الخلفاء إلى النقل من اللغات الأعجمية : من الهندية والفارسية والبربرانية ، واليونانية ، فاجتمعت لديهم بهذا ذخيرة علمية ، لم يسمع بمثلا إلا في عصر

النهضة الأوروبية . واكتسب العرب من هذا النقل ملكات خاصة ، استطاعوا بها أن يضيفوا إلى كل ما نقلوا شيئاً جديراً بالتقدير ، خليقاً بالاعجاب .

واهتم الأوروبيون في عصر أحياء العلوم بهذا التراث العليّ القيم ، فنقلوا منه الشيء الكثير إلى اللاتينية والأغريقية ؛ وعينت الجامعات الأوروبية في أنحاء القارة ، بالتسابق إلى اقتناء المخطوطات العربية أو ترجمتها — وعنى المستشرقون أخيراً بنقل هذه الآثار إلى لغاتهم .

وحفلت دور الكتب في الحواضر الإسلامية بهذه الذخائر زماناً ؛ في بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، ونيسابور ، وقرطبة ، وغيرها ، ثم شاعت منها في أنحاء أوروبا بطريق النقل ، ونزحت إلى الأندلس خاصة طوائف من محبي العلم ، من إيطاليا ، وجرمانيا ، وفرنسا ، وبلاد الإنجليز ، نهلت من علومها العربية أو المعربة ، ثم عادت إلى مواطنها ، وعرضت ما تلقفت من كنوز العلم على جماهير الراغبين فيه . فانظر كيف كان فضل الاسكندرية على العرب ، وكيف كان فضل العرب على أوروبا الحديثة ؟؟

الفصل الثالث

في الاقتباس والنقل غير المباشر

نقل العرب — الاقتباس من الاسكندرية — جمع المخطوطات القديمة للدارس الإسلامية — نشر كتب مكتبة الاسكندرية إلى أوروبا — نشر العلم الاسكندري إليها — وما نقل ذلك النشر — تفصيل ذلك — نقل النظام الجامعي .

منذ أسس البطالمة في الاسكندرية جامعة ، ومنذ تركزت الثقافة الهلينية فيها ، أمها طلاب العلم من كل صوب وحذب ، لدراسة الطب والرياضيات والفلسفة والفلك وغيرها من شعاب المعارف الانسانية . وفي عصر قوة الجامعة ، كانت « أثينا » ما تزال عامرة بالفلسفة فلم يكن بد لحبي العلوم البحتة من الاستماع إلى أساتذة الاسكندرية ، وفي عصر ضعفها ، كانت ريح الزمن قد عصفت بكل مافي « أثينا » من علم وفلسفة . ورغم هذا الضعف الذي منيت به جامعة الاسكندرية على أثر دخول المسيحية ، ظلت وحدها في العالم القديم قاطبة منهل العلم حتى القرن السادس الميلادي .

وأم الاسكندرية في هذا العصر الأخير راغبون في العلم من كل جنس ، وأفادوا من علمها الشيء الكثير . وكان من هؤلاء الوافدين على جامعة الاسكندرية في عصرها المتأخر ، نساطرة من انطاكية ، وعرب من بغداد ، ويونانيون وإيطاليون ، تزودوا جميعاً بثروة طيبة من اللغة الاغريقية — لغة العلم والثقافة . ونقل هؤلاء عن الاسكندرية نقلاً مباشراً ، وأذاعوا كل ما نقلوه في في بلادهم ، غفقت ألوية العلم

على ربوع البحر الأبيض الشرقي ، وعمرت خزائن بغداد ، بنفائس اليونان عامة ، والاسكندرية خاصة ، وأخذ العرب يضيفون إلى ما نقلوا ، ويوفقون بين شوارده ، فرادى وجماعات — وأنشأوا المعاهد العلمية لتدريس العلوم في العصر الاسلامي . وأول من أنشأ المدارس في الاسلام « نظام الملك » الطوسي ، وزير ملكشاه السلجوقي ، في أواسط القرن الخامس الهجري ، (الحادي عشر الميلادي) ، وأقدم هذه المدارس جميعاً كانت « المدرسة النظامية » في بغداد ، بناها « نظام الملك » وجعلها مركزاً لدراسة العلوم الدينية والكلامية . وكان لهذه المدرسة وغيرها من المدارس في مصر وسوريا والاندلس شأن في العلم الاسلامي في العصور الوسطى يشبه شأن جامعات « سالرنو » و « بولونيا » و « بادوا » الايطالية . وتضافرت جهود هذه المعاهد ، كل في زمنه وموطنه ، على الاحتفاظ بالثروة العلمية القديمة المنقولة عن اليونان والهنود والفرس والاسكندرانيين ، إلى أن أدركها العصر الحديث ، فألقى عليها من نوره ضوءاً وهاجاً ، واستغلها في تكوين المعارف الحديثة .

وعلى نحو ما فعل « نظام الملك » الطوسي ، أسس أنصار العلم المدارس في كل ناحية من نواحي الدولة الاسلامية ، في الاندلس ، في أشيلية وقرطبة وغرناطة وطليطلة — وفي مصر ، في القاهرة ، والاسكندرية — وفي الشام ، في دمشق وحلب وحماة وحمص وبعبك . وأسس العرب « دور الكتب » بعد أن توفر لهم من الكتب عدد يحل عن الحصر ، ومنها « بيت الحكمة » في بغداد ، دار كتب

الرشيد والمأمون ، ودار الكتب في قرطبة ، وهي التي أنشأها ، الحكيم ابن الناصر ، وكانت لا تقل عن دار كتب بغداد شأنها ، ويقال إن الحكيم ابن الناصر ، كان يرسل التجار في طلب الكتب من كل أسواق العالم المعروف . وفي مصر كانت قصور المؤسرين حافلة بنقائس الكتب ، وكانت كذلك دار كتب الحاكم الفاطمي التي تسمت أيضاً باسم بيت الحكمة .

□ □ □

تقدم بنا ذكر موجز لاشهر ما نقل العرب من علوم الاسكندرانيين ، وليس ثمة شك في أن ما نقلوه ظل محفوظاً في خزانهم إلى أن نقله عنهم الأفرنج ، من مكاتب الأندلس بادي الأمر ، ومن بلدان الشرق الأدنى أبان الحروب الصليبية ، وعن غير هذين السبلين ، بطريق تجار الكتب ، والباحثين عنها من المستشرقين وهواة القديم . وعلينا الآن أن نناقش الوسائل الأخرى التي يمكن أن يكون قد انتقل بها تراث الاسكندرية إلى أوروبا . ورجح أن تكون هذه الوسائل منحصرة في ثلاثة أمور :

الاول — ما يمكن أن يكون قد تسرب إلى « بزنطة » و « روما » من تراث الاسكندرية مدة الهدنة التي منحت للروم ، عند تسليم الاسكندرية للعرب .

الثاني — ما انتهى إلى بعض الجامعات الأوروبية من هذا التراث بطريق النقل والاقتباس ، وأعلى الجامعات كعباً في هذا المضمار ، الجامعات الإيطالية .

الثالث — ما يمكن أن تكون قد احتوته الاديرة الاوربية من آثار العلم الاسكندري عامة والفلسفة خاصة .

أما عن الامر الاول — فالمطلع على شروط تسليم الاسكندرية للعرب ، يرى أن العرب قد تهادنوا مع الروم أحد عشر شهرا ، سمح فيها للروم بنقل متاعهم بحرا إلى القسطنطينية ، ولا يكاد المرء يتردد في الاعتقاد ، بأن كثرة هائلة من كتب الاسكندرية ، بما كان مملوكا للأفراد ، أو مخبوءا في الاديرة والكنائس ، لابد أن تكون قد تسربت إلى أوروبا ، مع ما خرج من المدينة من متاع مدة الهدنة .

يؤيد هذا الرأي ما هو شائع الآن بين مؤرخي الفلسفة عموما ، من أن أساس الحركة الفلسفية « المدرسية » ، يلتمس عادة في جهتين : احدهما بزنطية والثانية الاندلس — ولو عرفنا أن هذه الحركة الفلسفية تعتمد في جوهرها على أساس اسكندري من فلسفة افلوطين وأمونياس سكاس ، لاتجه الفكر بنا إلى أن الفتح العربي لابد أن يكون قد دفع بنصيب وافر من تراث الاسكندرية ، بما فيه من فلسفة الافلاطونية الحديثة ، إلى بزنطية وغيرها من جهات أوروبا .

أما عن الامر الثاني — فقد كانت الاسكندرية ، مستقر العلم منذ نشأت الجامعة فيها ، واستمرت كذلك زمانا طويلا حتى الفتح العربي . وكان العالم الغربي وثيق الصلة بالاسكندرية طول هذه المدة ، ينقل عنها نشاطها الفكري ، وكانت أكثر دول الغرب أخذاً عنها ، إيطاليا ، بحكم ما كان بين إيطاليا ومصر من العلاقات القديمة . وبعد زمن أصبحت جامعة وسالرنو ، الإيطالية أوثق الجامعات الإيطالية صلة بالعلم الاسكندري ، ورثت

الكثير من ثروتها العلمية، بطريق الاخذ غير المباشر. والمعروف أن جامعة بادوا، وغيرها من جامعات إيطاليا قد تأثرت على نحو ما بروح الاسكندرية العلمية في عصورها الاخيرة، وهي روح مشوبة بشئ غير قليل من التعجيم في ثنايا الفلك، والخرافات في ثنايا الطب — وكان شأنها في هذا النقل المشوب، شأن العرب في نقلهم عنها. ومهما يكن من أمر تلك الشوائب التي لحقت بالعلم الاسكندري، فقد أمدت الاسكندرية أوروبا بغذاء فكري طيب، في وقت كانت فيه الجامعات الاوربية الناشئة أحوج ما تكون إلى مادة علمية.

وكانت فلسفة أرسطو وأفلاطون، وآراء افلوطين في الفلسفة والتصوف، وغير هذه وتلك لما انتهى إلى الجامعات الايطالية، سبباً في انتعاش الجامعات الاوربية في العصور الوسطى، الأمر الذي كان من أجل نتائجه، أن غدا العلم في متناول الجماهير، بعد أن كان وقفاً على الآباء المسيحيين في الاديرة والكنائس.

وما تزال بعض مؤلفات الاسكندرانيين منذ ذلك العهد موجودة في مكتبة «الفاتيكان» وغيرها من المكتبات الاوربية، في «ليدن» و«الاسكوريال»، وغيرهما، بالشكل الذي صاغه فيها المترجمون العرب.

أما عن الأمر الثالث — فالمعروف أن مذهب أفلاطونية الحديثة، خرج من الاسكندرية، وتشكل في أثينا بشكل وثيق متطرف، وفي سوريا وغرب إيران امتزج بالزرادشتية والمسيحية الشرقية. وفي روما كان أقل اعتماداً على التصوف وأقل غموضاً،

— وفي القرن السادس الميلادي ، انحلت كل الآثار الوثنية الفلسفية ، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية ، تمت إلى المسيحية بأقوى الاسباب ، اتخذت لها من أرسطو وأفلاطون ، ومن فلسفة « أفلوطين » سنداً تحيا به . واستقرت الثروة الفلسفية اجمالاً في الاديرة ، فعمرت خزائنها بآثار أفلاطون وأرسطو وأفلوطين . وشغف آباء الكنيسة بالمجادلات الدينية ، من أثر أتباعهم أسلوب أرسطو المنطقي (١) . وحاولوا جهدهم أن يقيموا المسيحية على أساس من العقل ، فظهرت في الاديرة حركة تشبه حركة الاعتزال التي ظهرت في الاسلام في العصر العباسي ، مرجعها الرغبة في استخدام أفلاطون وأرسطو لتدعيم التعاليم المسيحية . وظهر جنباً إلى جنب مع هذه الحركة العقلية في الدين المسيحي ، حركة تصوفية ، دفع إليها شغف رجال الدين بالأفلاطونية الحديثة التي كان من أثرها نشوء التصوف المسيحي ، كما كان من أثرها في الشرق موازنة التصوف الاسلامي .



بهذه الوسائل الثلاث ، تسرب العلم الاسكندري إلى أوروبا ، وعن الطريق الاخير ، شاعت آراء أفلوطين ، ولم يقتصر أثرها على الاديرة ، بل كونت النواة لفلسفة العصور الوسطى ، وهي الفلسفة

(١) ومن أشهر فلاسفة الآباء الكنديين وأكثرهم اشتغالا بمسائل الفلسفة ، بقية اقامة المسيحية على أساس من العقل « سنت كلنت » الاسكندري (١٦٠ / ٢٢٠م) وفلسفته خليط من مذهب الشك والأفلاطونية الحديثة ، ومتهم كذلك « سنت أوغسطين » (القرن الخامس م) .

و المدرسية ، Scholastic Philosophy ، التي نشأت بآدى الأمر في
الاديرة ، ثم خرجت من الاديرة فلسفة عامة ، لها مثلوها من غير
رجال الدين .

اتسمت الحركة المدرسية بوجه عام بميسم دينى ، وكانت هم
الفلاسفة المدرسين دراسة الفلسفة اليونانية دراسة عميقة ، لادخال
عنصر العقل على المسيحية . التمس هؤلاء أصولا لفلسفتهم في
كل من القسطنطينية والاندلس والاسكندرية على السواء .

وتقع حركتهم هذه في فترتين : الاولى ، من القرن السادس إلى
القرن الثالث عشر تقريبا ، وفيها شغف « المدرسيون » بدراسة
« أفلاطون » بوجه خاص ، واكتفوا من « أرسطو » بأسلوبه المنطقى ،
وربما كان ذلك لانهم وجدوا في أفلاطون مادة عقلية تناصر المسيحية ،
وفي أفلوطين الاسكندرى عقلا ممزوجا بالتصوف ، وفي منطق
« أرسطو » الحجة التي يتذرعون بها في الاقناع .

وتمتد الفترة الثانية ، من القرن الثالث عشر إلى عصر النهضة
الاوربية ، وهو العصر الذى تحللت فيه الفلسفة من جميع القيود التي
رسفت فيها زمنا ، وأخصها قيود الدين . وأشهر فلاسفة الفترة
الاولى ، « أنسلم » و « أبلارد » ، ومن فلاسفة الفترة الثانية « البرنس
ماجناس » و « توماس أكويناس » .

والناظر في فلسفة « المدرسين » يرى جهودا قيمة لوضع مثل عليا
أخلاقية للمسيحية ، ويرى تصوفا مسيحيا ظاهرا — وما أوضع ما يشاهد
أثر أرسطو وأفلاطون ، وأثر فلسفة الاسكندريين فيما كتب

الفلاسفة المدرسون جميعا بلا استثناء .

وتأزر في هذه الحركة كل من الفلسفة والتصوف والمنطق وآراء أفلاطون فيما وراء الطبيعة على خدمة المسيحية . والحق أن هذا العصر تخدم المسيحية من نواح كثيرة ، وأضر بها كذلك في نواح أخرى ، إذ أدت المناقشات الجدلية إلى خلق طوائف مسيحية ذات آراء متشعبة في طبيعة الاله ، وغيرها من أمهات المسائل الدينية . وفسدت العقيدة الدينية أو كادت من أثر ذلك ، فتداركها الإصلاح الديني ، وقضى على البدع السائدة ، وخلص الدين من شرور الخلافات ، ووضعت للدين المسيحي منذ ذلك الوقت تعاليم جديدة ، فصلته فصلا تاما عن الآراء الفلسفية — وبدأ في تاريخ كل منها بهذه المفارقة فصل جديد .

وعلى نحو ما ذاعت عن الاسكندرية معارفها بطريق الاقتباس وانتقل المباشر وغير المباشر ، كذلك يرجع أن يكون نظامها العلمي قد انتقل إلى أجزاء من حوص البحر الأبيض المتوسط بطرق مشابهة . والصلة بين أقدم الجامعات الاوربية في إيطاليا ، والمدارس التي كانت مزدهرة في أثينا وفي الاسكندرية في القرن السادس الميلادي (وهو الزمن الذي يحدد آخر العهد بحياة النظام التعليمي اليوناني) ليست واضحة ، ولا يستطيع الانسان أن يحزم فيها برأى — لأن فترة طويلة لا بد أن تكون قد انقضت بين انهيار النظام القديم ، وقيام أولى الجامعات الإيطالية وأقدمها في سالرنو ، في القرن التاسع الميلادي .

على أنه لا يبعد أن تكون الجامعات الإيطالية الأولى ، وهي «سارنوو» و «بولونيا» و «بادوا» قد اضطلعت بأمر إحياء العلوم القديمة وإشاعتها في أوروبا بحكم تلك الصلات القديمة التي كانت بين إيطاليا والاسكندرية . والمتصفح لتاريخ الجامعات ، لا يرى مناصا من الاعتقاد بأن الجامعات الإيطالية الأولى ، ليست إلا صوراً متداعية للجامعات التي كانت مزدهرة في أوقات مختلفة في أنحاء العالم الهليني . وقدّر بهذا أن تحتفظ إيطاليا بما بقي على الزمن من نظم الجامعات وعتادها وروحها ، في زمن فسدت فيه أمور العلم ، وكادت تمحى من الوجود كل بارقة من بوارقه . والحق أنه لم يكن عجيباً في زمن انحطت فيه عود العلم ، وسقطت ألويته أو كادت في الاسكندرية التي غدت كالآتون يغلي بالاضطرابات على طول القرون الستة التي أعقبت دخول المسيحية مصر ، من أثر النزاع المميت الذي احتدم بين الوثنيين والمسيحيين في المدينة — لم يكن عجيباً والحال كذلك ، أن يفر رجال العلم إلى حيث يجدون الحياة أكثر أمناً وأوفى طمأنينة ، وأن يهاجر من المدينة كلها سنحت الفرصة ، كل عنصر من عناصر الخير ، ليظهر أو ليختفي في مكان يكون أقدر على إظهاره أو إخفائه — ولا بد في مثل هذه العصور ، من أبطال يضطلعون بهذه المهام . وذلك ما حدا بالإيطاليين ، وصلتهم بمصر في العصر الأوربي المظلم وثيقة كما هو معروف ، إلى الاحتفاظ بشيء غير قليل من علوم الاسكندريين ونظامهم في التعليم .

ومن جامعات إيطاليا ، شاع في أوروبا الوسطى نظام تعليمي مشابه لنظامها ، وأقدم « جامعة » نشأت في قلب القارة الأوروبية متأثرة بنظام الجامعات الإيطالية جامعة « هيدلبرج » الألمانية التي تعتبر أمّاً للجامعات وسط أوروبا في العصور الوسطى .

هذا ويحمل بنا ونحن نذكر الجامعات ، أن تتحلى بشيء غير قليل من التسامح في إطلاق كلمة « الجامعة » على المؤسسات العلمية التي نشأت في الأزمنة القديمة ، والأزمنة المتوسطة — فلم تكن هذه وتلك جامعات بالمعنى الذي نفهمه الآن ، لأن الفكرة الجامعية لم تنضج في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر ، قرن الجامعات . وقبل ذلك كانت الجامعات الأوروبية أشبه شيء بالحلقات التي تنتظم حول معلم يلقى تعاليمه ، أو حول متجادلين ، يلذ للناس شهود الخلاف المحتدم بينهما . وقد كان ذلك بعينه هو الشأن في الأكاديميات اليونانية الأولى . على أن هذا النظام البدائي لم يلبث أن تحول إلى نوع من المدارس المنتظمة ، يشرف عليه مشرف كان في الغالب من رجال الدين : أطلق عليه اسم « راعي المدرسة » Rector Scholarium وهي تسمية متأثرة بالنظم القديمة ، فقد كان مدير جامعة الاسكندرية قديماً يعرف براعي الجامعة وكان من رجال الدين أول الامر . وتأثرت الدراسة في تلك المؤسسات المبكرة تأثراً ظاهراً بالروح اليونانية في الحوار ، إذ كادت تقتصر الدراسات فيها على « الجدل » Dialectics الذي ساطوه على كل ما انتهى اليهم من المعارف الانسانية ، وبقى الحال على ذلك حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . ومن أشهر

نثلى الحالة العلمية في العصور الوسطى : « لانفرانك » Lanfranc و « برنجار » Berengar الفرنسيان ، وقد أدى بهما أسلوب العصر العلمى المفرط فى الاعتماد على التعليل — إلى الجدل والاختصاص الشديدين اللذين يذكران بجدل علماء الاسكندرية واختصاصهم فى قديم الزمن . ومنهم كذلك « زوسلينوس » Roscellinus و « أنسلم » Anselm ، وهما من كبار المحاجين الذين أغرموا بأسلوب التعقل والتعليل فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، احتدم بينهما الجدل على نحو ما احتدم بين « لانفرانك » و « برنجار » من قبلهما .

هذا ومن أقدم الجامعات الأوربية فى أوروبا الغربية فى العصور الوسطى جامعة باريس ، وتعتبر « الجامعة الأم » بالنسبة لكل جامعات القارة التى تطورت فيها بين القرنين الثانى عشر والثامن عشر حتى انتهت إلى الأوضاع الجامعية الحديثة التى تدين بوجودها وتنام تكوينها للقرن التاسع عشر (قرن الجامعات) ، وليس أدل على ذلك من انتشار نظامها شاملى « اللوار » ممتدا إلى الأراضى الواضئة ، وشرقى « الرين » متوغلا فى أوروبا الوسطى ، وكانت جامعة « براغ » فى القرن الثالث عشر تعرف باسم « الاستوديوم » Studium وهى تسمية تشعر بتأثر هذا الوسط العلمى بنظام جامعات الجنوب التى كانت معاهد للدراسة العامة Studia generalia ، والظاهر أن جامعات أوروبا الوسطى كانت قبل القرن الحادى عشر الميلادى تدين بنظامها وروحها للجامعات الإيطالية ، ومنذ نهضت جامعة « باريس » بعبد النظام الجامعى ، سرت روحها وبرامجها إلى أوروبا

الوسطى عامة ، وتأثرت بها تأثراً مباشراً جامعتا أكسفورد وكمبريدج
الانجليزيتان . ونظام الاولى منهما اقتباس صريح من نظام جامعة
باريس . وكانت تتميز جامعة « أكسفورد » عن غيرها من الجامعات
الانجليزية بجامعات لندن ومانشستر ولقربول بأقامة الطلاب فيها .
ومن عجب أن يكون ذلك هو نفس النظام الذي التزمته جامعة
الاسكندرية القديمة . وهو شيء يعاب على النظام الجامعي ، إذ هو يدخل
الجامعات في عداد المدارس الداخلية ، ويظهرها عظمير لا يليق بها —
ذلك كان شأن « كلية المللكة » في أكسفورد ، أول عهدها بالحياة ،
ولم تلبث جامعة أكسفورد أن فطنت إلى عيوب هذا النظام ، فعدلت
عنه ، وجاءت كلية « أول صولز » فيها مصححة لهذا الوضع المعيب .

• • •

ويكاد الانسان يلمس في كل ما تقدم تأثر المعاهد العلمية سالفه
الذكر ، كل بدوره بطريق مباشر أو غير مباشر ، بنظام جامعة الاسكندرية ،
وهو نظام يوناني في جملته وتفصيله ، بقى على نحو ما قائماً على الزمن ،
حتى تسلل إلى أوربا بتأثير عوامل شتى : منها هرب العلماء من أثر
اضطهاد أوقسر ، ومنها الاقتباس ، وهو أظهر العوامل وأقواها
وأبعدها أثراً ، واقتباس ايطاليا من الاسكندرية من الأمور الطبيعية
المحتملة ، ومنها كذلك هجرة التيارات الثقافية هجرتها التي لا تحس
ولا يكاد يدرك مداها .

• • •

وعلى نحو مشابه تأثر الشرق الأدنى قبل ظهور الاسلام وبعده

بعلم الاسكندرية — وإن نكن لا ندرى مدى تأثير معاهده بالنظام الاسكندري، والأغلب المعقول إلا تتأثر الأوساط العلمية في الشرق الأدنى : في انطاكية وحران وجنديسابور بالنظام الاسكندري بتفاصيله ، لاختلاف العقلية الناقلة في الشرق عن العقلية الأوربية التي لم تكن غريبة عن العقلية اليونانية . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت عقلية الناقلين من النساطرة واليعاقبة والسريان عقلية مستشفة مستوعبة لعلوم الاقدمين ، أمانة لم تغير ولم تبدل فيما أقدمت عليه ؛ أما العرب فقد كان لهم نهجهم الخاص في استيعابهم ونقلهم — ذلك النهج الذي يتبين في أسلوبهم المنفرد في النقل ، وفي نظامهم المتميز الذي أنشأوا عليه مدارسهم ، وأن يكن أسلوب الجدل اليوناني قد لعب عندهم دوره المعهود ، على نحو ما فعل تماماً عند الغربيين .

الفصل الرابع

تأثر العقل العربي بالأسكندرية

طبيعة الثقافة اليونانية - التمازج في المدينة لهذه الطبيعة - قدم اختلاط العرب بالأمم المجاورة - تدرب الأفكار اليونانية الى جنوف شبه الجزيرة العربية - أثر الأفلاطونية الحديثة وأسلوب أرسطو - حركة النقل القسطنطينية وحركة النقل العربية وأثرهما في تكوين العقلية العربية - شبه العقل العربي بالعقل اليوناني - تأثر العقل العربي بنهج البحث اليوناني - الاعتزال أثر أمن آثار اشتغال العرب بالفلسفة والمنطق - تشجيع المأمون لحركة الاعتزال - اضطهاد بعض الخلفاء للمعتزليين - انقضاء الفلسفة ونضوب جماعة اخوان الصفا - التصوف الاسلامي وتأثره بالأفلاطونية الحديثة .

لا جدال في أن الثقافة التي أبدعها العقل اليوناني وأفرغها في قالبه الخاص هي أقوى الثقافات التي عرفها التاريخ . قدبر لها الانتشار والذوبان مصاحبة لغزوات الاسكندر المقدوني ، وظلت هذه تسود العالم في وقت سيطرة « هلا ، و « أثينا » ، ومن عجب أن تبقى لها السيادة على العقل البشري حتى في الأوقات التي ضعفت فيها بلاد اليونان ضعفا سياسيا معروفا ، منذ انتقلت مقاليد الأمور من أثينا إلى غيرها من كبريات مدن البحر المتوسط ، ومنذ مال ميزان القدر ، فنقدت عاصمة الفكر مكانتها في عالمي السياسة والثقافة معا ، وارتفع شأن الاسكندرية و « روما » على أثر ذلك .

والثقافة اليونانية بطبيعتها ثقافة غازية ، نشرتها قوة السلطان الحربي دون أن يقضي عليها زوال ذلك السلطان . ولقد جعلت منها هذه الصفة

النفادة ثقافة تقوى على الحياة في أشد الظروف وأعنفها. وليس أدل على ذلك من سيطرتها على عقول البطالة والرومان من بعدهم، وبقائها رغم قيام المسيحية ونضالها التقوى معها، وتسربها إلى الأديرة والكنائس وخزائن العلم الأوربية في العصور الوسطى. وما ذلك إلا لأنها ثقافة غالبة، فيها من صفات الحيوية والقوة ما يجعلها صالحة لكل زمان، صامدة لا تؤثر فيها عادات الزمن — ولا غرابة، فهي ثقافة إنسانية قوية على الذبوع والانتشار بدافع من طبيعتها وتكوينها الخاص.

والثقافة العربية، وهي في مجموعها ثقافة وليدة، كبيرة الشبه بثقافة اليونان: لها من الصفات ما للثقافة الأم، من ضخامة الإنتاج وتشعبه وتداخله وقوته، ولا غرابة فهي آخذة منها، مسرفة في أخذها، ومن ثم كانت قوتها ومقدرتها بدورها على الذبوع، وخلودها وصمودها على الزمن.

وأدى منطق الحوادث أن يكون العرب ورثة للثقافة اليونانية على الشكل الذي انتهت إليه تلك الثقافة على يد الرومان، فلما أن دالت على يد العرب دولة الروم، قدر هؤلاء العرب أن يتناولوا ما في الحزائن الملوكية، من تراث، وكان ذلك الميراث، على الرغم من أحداث الزمن الجسام كبيرا عظيم القيمة، بالغ النفع.

وأخذ العرب عن اليونان قديم يرجع إلى وقت تأثرهم في عقر دارهم بالتيارات الدينية والثقافية التي وجدت سبيلها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، بطريق اليهود والمسيحيين المنبئين في

شبه الجزيرة ، والمساكنين للعرب في بلادهم . ومن قبيل ذلك الاتصال المبكر اتصال الأعراب النازحين شمالا بعرب سينا ، وورودهم أرض فلسطين والجزيرة ومصر يلتمسون فيها القوت على عادة البدو المتنقلين سعيا وراء الرزق .

ولا بد أن يكون العرب قد شهدوا في تجوالهم هذا أحوال الأمم المجاورة ، وأفادوا من الارتحال دراية ، لا نقول أنها أكسبتهم ثقافة أو علما ، فليس من شأن الجماعات المتبدية التي تجول بحثا عن القوت أن تفيد في تجوالها علما أو ثقافة — وإنما أكسبتهم دراية بأحوال الأمم التي نزلوها بدوا ، أو تجارا ، أو فاتحين بعد ذلك . وليس منا من يجهل ارتحال العرب ، قرشيين أو غير قرشيين بقصد التجارة ، وما أفاده القرشيون خاصة من المعارف التي لا تتوفر عادة إلا للتجار من احتكاكهم بأضرابهم في الأمم الأخرى . وأول ما استفاد العرب الحجازيون من أسفارهم هذه كان دراية بالكتابة وحساب التجارة ، استعاروهما من بني عمومته من الألباط الذين كانوا يسكنون سينا وأطراف الحجاز الشمالية ونجوع حوران وقنشرين على الفرات . ومن شأن هذه الأسفار التجارية أن توسع الأفق الفكري وأن تهيئ العقل لقبول الجديد . ومرجع ذلك فيما يظن ما يكتسبه التجار عادة من المرونة الفكرية بسبب كثرة اختلاطهم بالغير ، وتخطيهم للفوارق الإقليمية

تكونت هذه الطبيعة للعرب مبكرة قبل الإسلام ، فكان من شأنها أن مكنت لهم في الوقت المناسب ، وعند ما تهيأت لهم

حياة الاستقرار التي لا بد منها لتهيئة حياة علمية من أى نوع ،
 الاشتغال بمسائل العلوم — والمعروف المتداول أن آراء النساطرة في
 الدين ، وهى مزيج من المسيحية وفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كانت قد
 تساقطت الى جوف شبه الجزيرة العربية ، منذ زمن مبكر قبل الاسلام ،
 وأن العرب المسيحيين لا بد أن يكونوا قد اشتغلوا بدورهم هناك
 بالمسائل الجدلية الدينية ، ولا غرو ، فقد كان منهم فى شبه الجزيرة
 العربية نساطرة تأثروا بالفلسفة اليونانية بشكلا النسطورى ،
 ومسيحيون مختلفون فيما بينهم على بعض المسائل اللاهوتية : وما
 يستتبعه العقل أن يكون النساطرة ، وهم يجدون فى نشر الفلسفة
 اليونانية فى الشرق الأدنى ، قد اتجهوا بأفكارهم فيما اتجهوا نحو قلب شبه
 الجزيرة العربية ذاتها ، وكانوا جد حريصين فيما نعلم على ابلاغ آرائهم إلى
 جوف الامبراطورية الساسانية وجوف شبه الجزيرة العربية على السواء .
 ووجد النساطرة مجالا خصبا لنشر الفلسفة اليونانية فى الشرق
 الأدنى ، حيث أنشأوا مدرسة فلسفية فى نصيبين ، واستطاعوا أن
 يصبغوا مذهب (النأله) هناك بصبغة من الفلسفة اليونانية . وما
 لبثت مدرسة نصيبين الفلسفية هذه أن أغلقت أبوابها وهجرت وخلفتها
 مدرسة قامت فى الرها ، لأسباب دينية خاصة تتعلق بنزاع النساطرة
 مع المذهب الرسمى للكنيسة .

وقام النساطرة بحركة ترجمة قصدوا بها أول الامر خدمة مذهبهم
 الدينى ، فترجموا كتب زعمائهم الدينيين إلى السريانية ، وإذا هم كذلك ،
 يترجموا أيضا إلى هذه اللغة نفسها كتب أرسطو ، والكتب التى

علقت عليه ، استعانة بها على فهم العقائد اللاهوتية التي كانوا يبشرون بها .
ومهما قيل في قيمة ما نقل النساطرة من منطق وفلسفة في دعوتهم
لذهبيهم الديني ، فهو بلا شك ابتداء حركة النقل الكبرى ، ومقدمة
لتأثير العقل العربي بأراء اليونان .

ومما يؤخذ على هذا النقل المبكر أنه كان أول الامر لا يخدم العلم
لمذاته ، لأنه كان مستخرا لخدمة العقيدة النسطورية المسيحية دون غيرها .
وبدأت عند المسلمين حين اصطدموا بالثقافة اليونانية في مواطنها
التي استقرت فيها وقبعت آخر أمرها رغبة قوية في الوقوف على
مخلفات العقل اليوناني ، وكان نزولهم الاسكندرية ، مستودع البقية
الباقية من العلوم اليونانية ، متيجا لهم تحقيق هذه الرغبة الملحة ، بأكثر
مما أتيج لهم ذلك في سوريا .

• • •

وفي الاسكندرية صادف العرب نخبة من أواخر العلماء يدرسون ،
أشهرهم : « بولس الأجانيطي » آخر ممثل للحركة العلمية في الاسكندرية .
وفيهما صادفوا مذاهب فلسفة « أفلوطين » ، وخلاصة من تعاليم
« جالينوس » في الطب . وأدركوا شيئا كبيرا من الكيمياء والفلك
والتنجيم . وكان معظم أخذهم (فيما عدا الفلسفة) من الطب والفلك
والكيمياء ، وكانت هذه تكون في الذهن العربي مثلما متأسك
الأضلاع ، بسبب ما تخيله العرب من العلاقة الوثيقة بين الفلك
والطب ، وبين الطب والكيمياء .

• • •

ومما هو جدير بالذكر أن «اليعاقبة» قاموا بدور في النقل يشبه الدور الذي قام به النساطرة . ويرجع الفضل في نقل هؤلاء هؤلاء جميعاً ، الى حركة الانشقاق التي اعترت الكنيسة المسيحية ، ففرقت أتباعها شيعاً وأحراباً ، التمس كل منها وسيلة لظهار مسائله الدينية بظهور قوى مقنع ؛ ولم يكن لهم جميعاً بد من الاستعانة بمنطق «أرسطو» في الاقتناع ، وبفلسفه «أفلوطين» في اكساب المذاهب الدينية صبغة من العقل المتصوف .

ذلك كان المنهج المشترك بين النساطرة واليعاقبة — ومما يلفت النظر أنه هو بعينه منهج المسلمين في الاقتناع ، فقد استعارت بعض الفرق الاسلامية بدورها فلسفه «أفلوطين» لما فيها من تصوف ظاهر — كما استعارت أسلوب «أرسطو» بقصد مراجعة الدين على العقل ، ونشأت فرق «الاعتزال» في الاسلام من أثر ذلك .

واتبع العرب طريقة النساطرة في التعليق على «أرسطو» ، فقد كان من عادة هؤلاء عند نقلهم أرسطو من اليونانية الى السريانية ، أن ينقلوا عبارة صغيرة منه ، ثم يعلقون عليها بأسهاب . وشاعت طريقتهم هذه في التعليق ، واتبعها العرب في تفسير القرآن وشرح الحديث .

ونقل العرب عن اليعاقبة والنساطرة والسريان ما كان هؤلاء قد نقلوه من علوم اليونان ، ونهلوا بدورهم من حياض الاسكندرية العذبة غداة الفتح . وأتاح العرب هؤلاء المسيحيين جواً حراً

واصلوا فيه جهودهم بنفس الحماس الذي كانوا مأخوذين به قبل ظهور الاسلام ، وعاش هؤلاء في كنف العرب آمنين يتمتعون بحرية سياسية ودينية بالغة . وانتجوا في هذه البجوحة الفكرية ما وسعهم الجهد الجبار .

ومن أديرة اليعاقبة في قنشرين وغيرها ، ومدارس النساطرة في الشرق الأدنى ، ومن الاسكندرية معقل البقية الباقية من الثقافة اليونانية ، تعلم العرب ما تعلموا من طب « جالين » ومباحث المنطق والفلسفة ، وعن هذه المصادر نقلوا مختصر « فورفيروس الصوري » المعروف باسم « إيساغوجي » ، وتعليقات « يروبس » على الإيساغوجي ، وكاتب أرسطو الأخرى ، وعن اليعاقبة نقلوا جهود « سرجيوس الرسعي » العراقي اليعقوبي ، ولا سيما مترجماته من طب « جالينوس » التي لا يزال معظمها محفوظا حتى اليوم بالمتحف البريطاني ، ومقالاته في المنطق في المقولات ، وفي « تعليل الكون » على ضوء من آراء أرسطو .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي بدأت الحركة الفكرية العربية تنجح بكلياتها وجزئياتها نحو العلوم والفلسفة ، وبدأ ظهور الآثار اليونانية بلغة العرب ، إلى جانب لغة السريان . وتوجت الحركة بأعظم حظا أتيح للنقل ، حين أنشأ المأمون العباسي معهدا للترجمة ، استخدم فيه نخبة من أعظم الناقليين من النساطرة : أشهرهم « حنين بن اسحق » ؛ وعاونته في مهمته هذه ابنه « اسحق بن حنين » وعدد من المترجمين منهم

« ابن أخته » حيدش الأعسم الدمشقي .

• • •

وفي هذه الحركة الواسعة ظهرت النسخ العربية « لايساغوجي »
و« أرماتوطيقا » أرسططاليس ، وجزء من كتابه « أنالوطيقا » ومقالة
أرسطر في « الروح » وجزء من « المتافيزيقا » و« الخيصات » نيقولاوس ،
الدمشقي و« ديوسكوريدس » ، و« بولس الأجايني » و« أبقراط » .
ونعتبر المقالة التي ترجمها « حنين بن اسحق » عن « الروح » ، أو التي
ترجمها ابنه اسحق وراجعها أبوه ، من أهم المراجع في دراسة الفلسفة
وعلم النفس عند العرب .

• • •

ومنذ ذلك التاريخ ، أي منذ بدأت حركة النقل الكبرى أيام
المأمون ، أخذ العرب إلى جانب النقل يضعون بالعربية كتباً في
نواحي العلوم التي عرفوها عن اليونان . ومن هؤلاء « محمد
بن موسى » الذي نسب إليه العرب وضع « الجبر » ، له فيه
أبحاث خاصة قيمة ترجمت إلى اللاتينية اشتهرت في عصر النهضة في
أوروبا ، و« محمد أبو الوفا » الذي ترجم كتاب « ديوفانتس » في
الجبر ، وعلق على المؤلفات الرياضية التي وضعت قبله . وكان ذلك
حوالي أواخر القرن العاشر الميلادي . و« أبو معشر البغدادي »
المتوفى ٨٨٥ م صاحب كتاب « الزيج » ، وهو المعروف بين الأفرنج
باسم Abumazar . ومن بعد هذا جاء « محمد بن جابر » (٩٢٩ م)
المعروف بالبتاني ، وهو عند اللاتينيين مشهور باسم Albatagnius

صاحب « الزيج الصابي » المحفوظ بمكتبة « القاتكان » . وقد علق
البتاني على « المجسطي » لبطليموس ، وشرح مقالاته ، وليست له
تعديلات على زيج بطليموس ، وأضاف إلى هذا كله عدة تحقيقات
رياضية وفلكية ذكرناها في موضعها من الكتاب . ودرس البتاني
في أوربا في العصور الوسطى ، واشتهر باسم « بطليموس العرب » .
وكتب في الطب « جبرائيل بن بختيشوع » ، فأخذ عن « ديسكوريدس » ،
صاحب كتاب خواص العقاقير ، كما أخذ عن « جالينوس » و« بولس
الاجانيطي » .

وأشهر من كتبوا في الطب إطلاقاً من العرب أبو بكر محمد بن زكريا
« الرازي » المعروف عند الأفرنج باسم Rhazes ، أخذنا عن اليونانيين
والهنود وعن ابن سينا — وموافاته عظيمة القيمة ، بحكمة الوضع ،
أفاد منها طلاب الطب فائدة كبرى .

• • •

« كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس » ، وكان متفرقاً لجمعه
الرازي ، وكان ناقصاً فكمّله ابن سينا . — ذلك واضح الدلالة على أن
العرب يدينون بأصول طبهم لجالينوس ، وبأكمال نقضه لابن سينا ، وبجمع
شتاته للرازي ، وهو أعظم من تناولوا الطب القديم بالآضافة . وله
كتاب « الشفاء » (طبعة طهران ١٣٠٣ هـ) ، وكتاب « القانون في
الطب » (طهران ١٢٧٤ هـ — وبولاق ١٣٩٤ هـ) ، ولم تقتصر جهوده
على الطب ، بل تعدته إلى الفلسفة والطبيعات والالهيّات . واتجه ابن سينا
اتجاهاً فلسفياً نأثر فيه بما كتب أستاذه « الفارابي » ، فظهرت في

آرائه أصول من فلسفة الافلاطونية الحديثة أو (فلسفة الاسكندريين) وتعليقهم على كتب أرسطو (١). ويظهر أثر الافلاطونية الحديثة في فلسفة « ابن سينا » في نظريته القائلة بأن الاحداث الارضية تنأثر بالاجرام السماوية ، لا عن طريق الحرارة المنبعثة عنها ، وإنما عن طريق ما تشعه من الضوء . وآراؤه في « العقل » شديدة الشبه بما تقرره الافلاطونية الحديثة في شأنه — وهي آراء لم يوفق فيها « ابن سينا » ، مع ما له في علم النفس من الآراء القيمة التي تشهد ببراعته (٢).

• • •

ولعل من أجل الامور التي ساعدت على تكوين العقلية العربية الجبارة إنشاء « دار الحكمة » في بغداد — أنشأها المأمون ، ووكّل أمرها إلى « يحيى بن ماسويه » المتوفى ٨٥٧ م ، وكان عالماً بالطب ، كتب مقالا « في الحيات » نقل إلى اللغتين اللاتينية والعربية ؛ أنتج تلاميذه انتاجاً ضخماً ، لاسيما حنين بن اسحق العبادي المتوفى ٨٧٦ م أكبر المترجمين وأشيعهم ذكراً ، وهو طبيب سرياني ، نقل غير ما نقل في الطب كتاب المنطق المعروف باسم « الاورجانون » لأرسططاليس ، وهو ممن جمعوا بين ثقافة اليونان في الشرق الأدنى وثقافتهم في الاسكندرية التي زارها وأفاد منها كل ما كان معروفاً فيها في وقته من علم ، وهو الذي ترجم « أفلاطون » إلى العربية ، كما ترجم إليها بعض مؤلفات أرسطيدس وجالين وأبقراط .

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابن سينا »

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن سينا

وترجم ابنه « اسحق » كتاب « الجمهورية » لأفلاطون ، وكتاب « الأخلاق الكبير » ، وغيرهما من كتب أفلاطون ، كما نقل تعليقات على المقالة الثلاثين من كتاب « المتافيزيقا » ، وترجم الإنجيل كاملاً إلى العربية .

وللعرب إضافات ذات بال في الهندسة ، فلهم علم باسقاط الكرة ، مع الاحتفاظ بالدوائر والخطوط المرسومة عليها ، وأن يكن هذا عند البعض من مباحث « علم الهيئة » ، وتقدم على أيديهم علم حساب المثلثات . ومن إضافاتهم إلى الهندسة « الجيب والمماس » ، وصفوة القول أن العقل العربي الذي كان الثقل عن الأقدمين ديدنه وهمه الأول ، ما لبث أن غدا عقلاً مبتدعاً جباراً في ابتداعه ، فلم يحل علم تناوله العرب أول الأمر بالنقل من إضافة ذات بال أضافوها إليه ، ففي الكيمياء ، كما في الهندسة ، نشأت لهم إضافات هامة كونت فيهما فصولا قائمة بذاتها ؛ وفي الجبر ، كما في الحساب ، كانت لهم أبحاث جديدة ، وتناولوا الفلسفة ، وكان لهم في تناولها أسلوب خاص يوضحه كتاب « الملل والنحل » للشهرستاني ؛ وفي الموسيقى ظهرت للعرب ابتكارات خاصة ، فقد أضاف عرب الأندلس وقرأ خامساً إلى الأوتار الأربعة المعروفة ؛ وفي علم الضوء كانت « للحسن بن الهيثم » جولات مشكورة أضافت إلى ما عرف من هذا العلم على يد اليونان . ولقد كان هذا شأن العرب في كل ناحية من نواحي المعرفة ، ولا حاجة بنا إلى استقراء ما كان للعرب من فضل ، ولو أردنا ذلك ، لخرجنا

عن الغاية المرسومة، وحسبنا أن نقول أن العقلية العربية التي تكونت
غداة الاتصال بآثار الإغريق، كانت عقلية مستوعبة هاضمة جبارة
في استيعابها وهضمها، كثيرة الشبه بالعقلية اليونانية، فكلاهما إنساني
النزعة، عالمي الاتجاه، أنتج العقل اليوناني ثقافة ضلحت لكل
زمان وكل مكان. وأنتج العقل العربي ثقافة مماثلة ثبتت صلاحيتها
على الزمن رغم ما علق بها من الشوائب، ولا أدل على ذلك من
تلمس المستشرقين للمخطوطات العربية، وأحيائهم لها بالطبع والتعليق
والتبويب والفهرسة والترجمة إلى اللغات الأوروبية، سواء في ذلك
ما كان منها منقولاً عن اليونانية، وما كان من إضافة العرب أو من
وضعهم أصلاً.

ومهما يكن من شيء، فقد كان العرب رسل ثقافة، كما كانوا رسل
دين، ولا غرابة — فأن أمة كل همها أن تجعل الإسلام يسود
العالم (وهو دين عالمي، صالح لكل زمان وكل مكان) كانت بلا شك
جديرة بثقافة تمشي مع هذا الطبع العالمي الذي اتصف به الإسلام.

والفضل كل الفضل في ذلك راجع إلى الثقافة اليونانية التي هي
من الثقافة العربية بمثابة الروح. والحق أنه لا يسع الإنسان إلا
الاعجاب بذلك التراث الفكري الذي انبعث من بلاد اليونان، وخلد
على الدهر، دون أن تقوى على انحدار جذوته أحداث الزمان! — كما
لا يسعه إلا الزهو بما كان للعرب من فضل في حفظ ذلك التراث
الفكري اليوناني من عبث القرون، ثم أحيائه والإضافة إليه وإسلامه
إلى الخلف جيلاً بعد جيل.

وعلى نحو ما كانت العقلية اليونانية تجعل من المعارف الانسانية
 . كلا ، لا ينحل إلى معارف فرعية ، كانت كذلك عقلية العرب
 المتأثرة بها واعية لتراث الاقدمين على نحو مشابه ، وكما كان العالم اليوناني
 فيلسوفاً ومشرعاً وعارفاً بالطب ومربياً في وقت واحد ، كذلك كان العالم
 العربي ملماً بكل شعاب المعرفة لا يفارق بين شعبة وأخرى ، ومصنفات
 العرب العديدة خير شاهد على ذلك ... أنظر إلى «الغزالي» و «الفارابي»
 و «ابن سينا» و «ابن رشد» وأضرابهم — هل تجد حداً لما تناولوه
 من حقائق المعارف ؟ وهل تجد لديهم من الجواجز ما يفصل نواحي
 المعرفة بعضها عن بعض ؟ حقاً لقد كان شأنهم في ذلك شأن أرسطو
 وأفلاطون والاسكندر بن سواه بسواه . ولا غرابة فقد تأثرت
 العقلية العربية وهي تنهل عن اليونان نقلها القوى الجبار تأثراً
 موضوعياً ، وهضمت من آراء اليونان في الفلسفة والروحانيات شيئاً
 غير قليل ، فوق تأثرها بأساليب البحث اليونانية وطرائقها .

على أن الأمثلة التي يمكن أن تساق على تأثر العقلية العربية بعقلية
 اليونان كثيرة لا مزيل إلى حصرها : فقد كان من أثر هضم العرب لفلسفة
 أفلاطون والاسكندري الروحانية تقوية التصوف الاسلامي ، وكان من
 أخذهم عن «أرسطو» نشوء مذهب «الاعتزال» على ما هو معروف .
 وتأثر العرب بالعقلية اليونانية فيما عدا ذلك واضح في رد علماء التوحيد
 على الملاحدة ولا سيما في مسائل «السمعيات» ، وفيها يتضح مدى تأثر
 العقلية العربية المستمسكة بالقرآن والسنة في دورها بالفلسفة اليونانية .
 هذا ، ومنهاج البحث في العلوم في العصر الاسلامي بصفة عامة

جدلى كثير الشبه بمنهاج اليونان فيها ، والحق أن الجدل والتناظر كانا على طول عهد الاسكندرية بالعلم معروفين سائدين ، وفى سبيلهما اختصم الفلاسفة ، ولذ للملوك أن يشهدوا جدلهم وعراكمهم ، بل وأن يشتركوا فيه فى بعض الأحيان ، ومرجع هذا الأسلوب الجدلى عند العرب هو الفكر المتفلسف والعقل المسرف فى الاحتكام إلى المنطق ؛ ومهما يكن من شئ ، فقد كان التزام المنطق والتأثر بالفلسفة من خير الفكر العربى وحسن طالعهم — إلا أن الاسراف فى الجدل والتزام الاحكام المنطقية التزاماً شديداً ، كان من شأنه عند العرب أن حبس بعض حقائق العلم فى قوالب المنطق الجافة ، وعلى أصحاب هذه الأساليب بالشكليات أكثر من عنايتهم بالحقائق ذاتها ، فلم يخدموا بها غير الجدل البحت ، وأقدم جدل عربى معروف هو ذلك الجدل الذى ثار بين السكوفيين والبصريين حول المسائل النحوية ، وما الخلافات الصارخة بين السكاكى ، و عبد القاهر ، بشأن المشكلات البلاغية إلا مثال من أمثلة ذلك . وأعظم جدل يعيه تاريخ الفكر العربى فى زمن حذق فيه العرب منطق اليونان ، هو ذلك الجدل الذى حى وطلسه فى بلاط المأمون ، العباسى حول مسألة « خلق القرآن » — ذلك الجدل الذى لذ للخليفة ورجال بلاطه أن يشهدوه ، على نحو مالد لبطليموس فيلادلف أن يشهد اختصام رجلين من أعظم المتحاجين فى عصره ، هما « كليماخوس » ، و « أمبرونيوس الرودى » .

وليس من شك فى أن العرب لم يصبح لهم هذه الأساليب الجدلية علم — إلا منذ وقعت أنظارهم على آثار اليونان الفلسفية ، وبعد أن أصبحت لهم بعلم المنطق دراية دقيقة ؛ ولم يتح لهم ذلك على نحو

منظم مكتمل، إلا منذ بدأت حركة النقل العظمى في خلافتي المنصور
والمأمون — ولقد كانت العقلية العربية قبل عصر النقل الاعظم،
وبعبارة أخرى قبل أن يمتنع العرب أساليب اليونان في الحاجة
والتناظر، عقلية تدين بالقول المأثور، وتأخذ بالحكمة الموجزة،
يروقها رواء القول فيهما، وتبهرها بلاغة الكلم وإيجازه وحسن
وقعه في الأسماع والنفوس، وتصرفها محسنات القول وظاهر الحكمة
عن البحث في الأدلة العقلية التي تستند إليها تلك الأقوال، وأغلب
هذه الجوامع كلام جرى على السنة المجريين والحكماء، وهي في جملتها
أقوال تغلب عليها الصحة لأنها وليدة التجارب، والمنطق المستخلص من
التجارب، يبدو كأنه المنطق، وهو من المنطق بعيد؛ ومن ثم كان قصور
بعض الحكم والأقوال المأثورة، بل وكان تضاربها واضطرابها في كثير من
الاحيان — ولقد تساق الحكمة، ويضرب المثل. ويبدو أن فيهما فصل
القول. فلا يلبث السامع الحصيف إذا ساعفته القرينة، أن يروى من فوره
قولا معارضاً يدحض به الحكمة المساقاة أو المثل المضروب، ومرجع
ذلك فيما نعتقد أن العقلية العربية قبل تأثرها بمنطق اليونان وفلسفتهم،
كانت عقلية تعتمد على ما يسميه علم المنطق، بالخطائيات أو البراهين
الخطائية، والخطائيات من شأنها ألا تقوى على الثبات أمام العقل، لا تلبث أن
تخضع لقرائنه الصارمة، حتى يتكشف ضعفها ونهار، ومنذ أخذت العقلية
العربية نفسها بأساليب المنطق، قلت ثقتها بقيمة هذه الحكم والأقوال المأثورة
— وإن بقي لهذه حتى الآن سلطانها القوي على كثير من النفوس والعقول.
وقد كان لتناول العرب لعلوم اليونان، واشتغالهم بالمباحث التي
طرقها هؤلاء أصلاً، وإضافاتهم إليها على ذلك النحو الواسع الذي نعرفنا

بعض نواحيه في القسم السابق من هذا البحث ، أثره البين في الفكر العربي موضوعاً وأسلوباً — الامر الذي لم يجعل من هذا الفكر — لحسن الخط — شيئاً منعزلاً عن الفكر الانساني العام .

وكان من أثر اشتغال العرب بالنقل أن تآقت نفوسهم إلى الارتواء من مناهل العلوم الدخيلة ، من منطق وفلسفة وطبيعات ورياضيات والهيئات وغير ذلك من العلوم المتفرعة عنها كالجدل والتصوف والجبر والهندسة والحساب والفلك والجغرافية والأخلاق والسياسة .

وكان لهم إلى جانب النقل فضل الاضافة والنقد على ما بينا . وكان المأمون أكثر الخلفاء العباسيين تأثراً بعلوم الاقدمين وبخاصة اليونان ، يتبين ذلك من ميله المسرف إلى الاخذ بالافيسة العقلية في بعض مسائل الدين ، وشدة انصياعه لحرية الفكر وتحكيم العقل .

وفي العصر العباسي الأول ظهر مذهب الاعتزال ، الذي نشأ من شدة اخضاع النصوص الدينية إلى الاحكام العقلية ، شجعه المأمون تشجيعاً تجلى في تقريره لاتباع هذا المذهب . ولما كانت دراسة المنطق والفلسفة أكبر ما أعان المعتزلة على اقامة الحجة وترتيب البراهين ، أمر المأمون بنقل كتب اليونان فيهما إلى العربية . فترجم منطق وأرسطو ، ونقلت فلسفة وأفلاطون ، إلها .

ويبدو تأثر العرب عامة بالفلسفة اليونانية وبفلسفة الاسكندرانيين خاصة في أخذ السنين بنصيب من الفلسفة اليونانية ، أرادوا بذلك أن يتمكنوا من مجادلة خصومهم ومن قرع الحجة بالحجة .

ولم تكن الفلسفة على كل حال بالعلم الذي تروح اليه نفوس العرب ، فقد ظلت رغم اشتغالهم بها وخوضهم في مسائلها ، أمراً غير مرغوب فيه ، لا تنظر اليه غالبية المسلمين بالارتياح ، وكثيراً ما رمى معتقوها بالكفر والزندقة والالحاد — وبقيت الحركة العقلية المتأثرة بفلسفة اليونان رائجة ظاهرة الآثار حتى زمن المتوكل العباسي الذي كان سنياً متطرفاً ، يكره الفلسفة ورجالها ، والذي اضطهد المشتغلين بها حتى اضطروا إلى الاختفاء والعمل في السر على مراجعة العقل في مسائل الدين الاسلامي ، بقصد اصلاحه وتخليصه من الخرافات وتصفيته من الجهالات التي التصقت به ؛ وتكونت من أثر ذلك جماعة اخوان الصفا ، التي نشأت في البصرة وبغداد في القرن الرابع الهجري ، ولم يقتصر نشاطها على الفلسفة والمنطق ، بل تناول العلوم الطبيعية والرياضية والالهيات بشعابها المختلفة ، وتعتبر رسائل اخوان الصفا وقد أربت على الخمسين ، أعظم جهد علمي قام به مشتغلون بالعلم في العصور الوسطى . ويعتبر عمل « اخوان الصفا » (فوق أنه تفصيل وافي للمسائل الاسلامية أريد به التوفيق بين الفلسفة والدين) منهاجاً لكافة الدراسات الاسلامية العالية في العصور الوسطى ، وقد نقل الفرنجية من أعينهم الشيء الكثير .

أما تأثر العرب بفلسفة الاسكندرانيين ، فيبدو واضحاً في الحركة التصوفية الاسلامية ، التي وجدت في فلسفة « أفلاطون » تصوراً ظاهراً واعتماداً على الالهام والكشف في فهم حقائق الأشياء . وفلسفته هذه تدعى لنفسها سنداً من فلسفة « أفلاطون » اليونانية (١) ، وهي رغم

(١) راجع فلسفة الاسكندرانية فيما يلي

ما يعتورها من العيوب كفلسفة مدرسة فكرية متأثرة بالروحانيات اليهودية التي ألصقها بها « فيلو » أول داعية لهذا المذهب في الاسكندرية ، وأستاذ أمونياس سكاس وأفلوطين . وتأثر العقل العربي بهذه الفلسفة التصوفية يرجع في الغالب إلى اعتمادها على الروحانيات في تفسير علاقة الاله بالانسان ، وتمجيد الزهد والتجرد ، بقصد تخليص النفس من الادران حتى تستطيع بصفتها وسموها الاتصال بالخالق ، وذلك كلها معان يستسيغها العقل الشرقي المتصوف بطبعه .

o o o

وزعيم هذه الفلسفة ومقرضا في قالبها الذي انتشرت به وعرفت مصرى ولد في أسيوط ، هو « أفلوطين » ، وهو عقل شرقي متفلسف خلط الروحانيات الشرقية بعنصر ملتبس من فلسفة أفلاطون ، فجاء آراؤه فصلا رائعا من فصول التصوف ، إن أدخل في عداد الفلسفة ، كان فصلا غامضا من فصولها ، ولونا شاحبا من ألوانها .
ومهما يكن من أمر هذا المذهب ، فهو محدود آخر فصول الفلسفة اليونانية ، وما أن نضج في مصر حتى هاجر إلى أثينا ودرس في مدارسها المتأخرة ، ووجد سبيله نافذا إلى آسيا الغربية ، وفيها اختلط بالزرادشتية ، ودرج غربا إلى روما ، وهناك كان أقل غموضاً وأقل اعتماداً على الإلهام . وقد تأثر العقل العربي به تأثراً عجيباً بسبب ما وجدته المسلمون فيه من نزعات التصوف ، اعتنقه الفلاسفة العرب وتناولوه بالنقل والشرح والتعليق ، وكان لهم في فهمه وشرحه أسلوبهم الخاص (١) .

(١) التصوف هو الانقطاع إلى الله والتفرغ للعبادة حتى يفنى الجسد في الروح فناء =

ولقد أوحى نظرية «أفلوطين» في قدم الله وصدور العالم عنه ، وما فيها من وجود وسائط أربع بين الله والكون إلى فلاسفة المسلمين بنظريتهم المشهورة في العقول العشرة ، أو الوسائط العشرة — رأى «أفلوطين» أن الوسائط بين الله والمادة أربع ، ولكن فلاسفة العرب زادوها إلى عشرة — وليس من قبيل المبالغة ما يقال من أن هيام أفلوطين وطموحه إلى السعادة الأبدية عن طريق الامتزاج بالله (على ذلك النحو الصوفي الرفيع الذي يقرره في فلسفته) مصدر من مصادر التصوف الاسلامي العديدة ، استقى منه الفلاسفة المسلمون نظريتهم في الاتصال بالخالق — وإن يكونوا قد نهجوا في الوصول إلى ذلك نهجهم الخاص ، على ما هو معروف في كتبهم الفلسفية .

وما لاشك فيه على كل حال أنه كان من أثر دراسة المسلمين للفلسفة اليونانية نشوء فرق الزنادقة والملاحدة الذين أوردوا كثيراً من الشبه على

== تتصل فيه الروح الأدبية بانفراج الأعلى أو الغل الأول - على حد تعبير الفلاسفة - وأهم مصادر التصوف الاسلامي القرآن والسنة ؛ ومنها الرهبة المسيحية واليهودية والرفقاء الهندية ، وهي حالة الصمت المطلق التي يلزمها فقراء الهنود ، والتي هي ناشئة عن البناء التام في ذات الخالق .

وللصوفيين آراء ونزعات تدور حول الزهد في الدنيا والانصراف عما فيها من عروض ومباهج ومغريات - وللصوفية مناجى خاص للوصول إلى السعادة فراه العلم بالشرعية من قرآن وحديث وما يتصل بهما - أما العلم الذي أجيدته الفلاسفة أنفسهم في الوصول إليه ، فلا يراد المتصوفون ضرورياً لهم - وبعض الدخوليين على الصوفية يرى التصوف في مجرد الجوع وترك الدنيا ، والحقيقة أنه لا بد للمتصوف من علم يعمل به . ومن لم يحفظ القرآن والحديث يستحيل عليه أن يكون متصوفاً ، لأن التصوف مقرب بالقرآن والسنة قبل كل شيء .

العقيدة الإسلامية، وكان معظم هؤلاء من الأعاجم الذين كانوا يتحيزون
 الفرص للظهور بالباطيل قصد افساد العقيدة الإسلامية وزعزعتها،
 وقد أدت حركاتهم هذه إلى قيام علماء التوحيد يرذون على الزنادقة
 والملاحدين ويدفعون شبههم عن الدين الخفيف — وجهد هؤلاء
 في ابطال تلك الشبه بأدلة فلسفية من نوع الأدلة التي ساقها المزندقون
 والملاحدة لا بطلان لبعض العقائد الإسلامية التي ثبتت بالقرآن والسنة،
 وكان لدفاع علماء التوحيد أثره البالغ في توكيد العقيدة الإسلامية
 وحفظها من عبث العاصين واعلأع الناس على نواحي الزيغ والضلالة
 في أقوالهم .

وأثر اليونان واضح تمام الوضوح في فلسفة الأخلاق عند المسلمين؛
 وما آراء «الغزالي» في النفس وقواها إلا استيحاء لآراء «أرسطو»
 وأفلاطون؛ ورأيه في «العقل النظري» متأثر برأى «أرسطو» فيه،
 وتأثر الامام بفلسفة الاغريق ظاهر تمام الظهور في كتابه «معارج
 القدس في مدارج معرفة النفس» (١) .

ولم تخل آراء «ابن مسكويه» و«ابن عربي» الاندلسي من
 التأثير بفلسفة الاغريق .

أما تأثير العرب بالعلوم اليونانية الاخرى، فيظهر جلياً في الافعال
 على ترجمتها إبان عصر النقل الاعظم، وفي التعليق عليها والاضافة
 اليها ونقدھا (٢) .

(١) راجع : محمد يوسف موسى ، فلسفة الاخلاق في الاسلام وحملاتها بالفلسفة

الاغريقية . (٢) راجع ص ١٥١/١٤٦ من هذا البحث .

القسم الثالث

تعليقات وشروح وتراجم

الباب السابع

الفصل الأول

جامعة الاسكندرية بين قوة الانتاج وضعفه

إجمال لتفصيل

الجامعة في عصرها الأول — الجامعة في العصر البطلمي حتى المتأخر — قلة
انتاجها — الجامعة والمسيحية — أثر الصراع الديني بين المسيحية والوثنية —
الجامعة في سبيل القنا. — ضعف الانتاج العلمي — الحركة الفلسفية .

مرت الجامعة بمراحل ثلاث ، كانت في أولها فتية ناشئة ، ناقلة
لكل ما عرف الاغريق من حقائق العلم الانساني . وكانت حيوتها
رهنا بقوة منشئها من ملوك البطلمة ، فظلت في حمايتهم ورعايتهم دهرأ
طويلا تتمتع فيه بكل ما تحتاج اليه جامعة من حرية وتشجيع وانفاق
على مرافقها المختلفة بسخاء ؛ زودها منشئوها بأنواع من عجيب الحيوان
والنبات جلبت إليها من جهات نائية ، وآلات رصد هي خير ما عرفه
العالم القديم من وسائل دراسة الأجرام السماوية ومكتبة كبرى
حوت أعظم المصنفات وأندرها ، إلى غير هذا وذلك بما لم يدخر
البطلمة الاوائل وسعاً في توفيره لجامعتهم الناشئة .

o o o

وكانت الفسكرة في هذه العناية التي صرفها هؤلاء في خدمة العلم
جلية واضحة — ذلك أنهم قصدوا إلى أن تصبح الاسكندرية «أثينة»

ثانية ، تحمل لواء العلم الذى هوى أو كاد يهوى فى أثينا اليونانية . وقد كان لهم من سلطانهم ونفوذهم السياسى ما استطاعوا به أن يحققوا لها هذا المركز الممتاز ، فلما أن ضعف هذا السلطان ، وتضعف ذلك النفوذ السياسى ، وشغل أفراد البيت المالك بالخلافات الشخصية ، تأثرت جامعة الاسكندرية تبعاً ، وأدركها من الضعف ما أدركها فى الحلفاء الاخيرة من القرن السابق الميلاد ، وكادت تندثر كل الجهود الطيبة التى بذلها البطالمة من أجل انشاء جامعة كبرى تاهض جامعة أثينا وتخلفها .

وبلغ الضعف من جامعة الاسكندرية منتهاه فى عهد كليوباترة ، ففقدت الاسكندرية المكانة السامية التى عرفها لها العالم القديم ، وفقد العلم إذ ذاك عنصرين هامين من عناصر نموه هما الهدوء والاستقرار ، اللذان لا بد منهما للاتاج العلمى المثمر .

وكانت الجامعة فى هذه المرحلة الاولى قوية لاتاج بفضل الروح القوية التى كانت تنفخها فيها جامعة أثينا ، وبفضل ما احتفظت به من تراث أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة والعلماء . وظهر فى هذا العصر الاول ، عصر تفوق جامعة الاسكندرية ، من العلماء ، أفقليدس ، أبو الهندسة و ، أراتوسئين ، الفلكى الرياضى و ، أرسطاركس ، الفلكى و ، كليماخوس ، الأديب والعالم فى فن المكتبات ، ومن الأدباء الكبار ثيوكرىثس ، الشاعر الصقلى الأصل . أما الرياضيون فقد تأثروا من غير شك ، بأرسطيدس ، الذى عاش فى سيراكيوز ، من أعمال صقلية ، والذى يقرن اسمه بما

يعرف في علم الطبيعة ، وبالتقل النوعى Specific gravity . وليس هناك ريب في أن جامعة الاسكندرية احتفظت بنظرياته ولا سيما هذه النظرية ، ومنها نقلت إلى أوروبا ، وأدركها البحث الحديث فأبدها ، واعتمد عليها .

وأما دارسو الفلسفة عن أرسطو وأفلاطون ، فقد كانوا على الأرجح متعمنين فيها ، متفهمين لاصولها ، هاضمين لها ، دون أن يكونوا مضيفين اليها أو مبتكرين لجديد فيها . ولم يلبث الاسكندرية في هذه المرحلة مذهب فلسفي ما ، وتأخر ظهور مذهبها الفلسفي إلى المرحلة الثانية من مراحل حياتها ، وهي المرحلة التي كادت تلتشى فيها الجامعة ويغيب انتاجها — أما الادباء ، فقد كان زعيمهم « نيوكريستس » صقلى الاصل ، كتب كل ما كتب تقريباً عن الحياة الريفية في صقلية ، وتميز الادب الذى نشأ بالاسكندرية بروح خاصة ، لم يكن أدباً مبتكراً ، وإنما كان أدباً منقولاً بوجه عام . على أن هذا النقل في ذاته فضل يذكر لجامعة الاسكندرية بالخير ، فقد ظلت على الرغم من عدم اقتدارها على الابتكار في الادب ، تناقش قضايا العلوم المختلفة ، وتبحث في الطب وتهتدى فيه إلى حقائق قيمة لم تسبقها اليها جامعة أخرى ، حتى أسلمت هذا التراث العلمى إلى أوروبا ، حيث احتفظت به الاديرة والكنائس إلى عصر النهضة .



ثم أتى على الجامعة حين من الدهر كان شر مرحلة مرت بها ، فقد عانت فيه هواناً أدبياً شديداً بسبب ما قاسته المدينة نفسها من

الهوان السياسي في عصر البطالة المتأخر ، وكان ذلك في الحلقات السابقة للميلاد مباشرة . وليس من شك في أن انعدام الكبرياء القومي ، وحالة الاضطراب التي سادت هذا العصر قد أدبا إلى هبوط شديد في محيط العلم الذي لا يزدهر عادة إلا في بحبوحة من الحرية والعزة القومية .

ونحن لا نكاد نسمع عن عالم أو فيلسوف أو أديب قد على طول هذا العصر . وفي هذا الوقت اصطدمت الجامعة صدمة عنيفة بالمسيحية ، وحدث صراع هائل بين الجامعة باعتبارها معقل الوثنية الذي تركزت فيه كل علوم الوثنيين وآثارهم ، وبين الدين الجديد . وكان لهذا الاصطدام أسوأ الآثار على العلم الاسكندري إطلاقاً .

• • •

دخلت المسيحية مدينة الاسكندرية ، وأعلنت عداها لكل ما هو وثني ، وأول مظاهر الصراع بين الوثنية والمسيحية تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس مسيحية ، وأعدام ما بها من آثار الوثنيين . وفي هذا الصراع العنيف ضاعت كنوز للعلم عظيمة كان يحورها معبدا « القيصريون (١) » و « السراييوم » . وجعل المسيحيون من « القيصريون » كنيسة سموها باسم كنيسة « القديس ميخائيل » وجعلوا من « السراييوم » مجموعة كنائس أطلقوا عليها أسماء القديسين : « دميان » و « قزمان » و « يوحنا المعمدان » وغيرهم .

• • •

(١) بنه كلبو باطرة تحفداً لقيصر . وأودعته عدداً لا بأس به من الكتب

وعلا خلاف فيه أن هذا الحادث الجلل الذي طرأ على الاسكندرية ، لا بد أن يكون قد أثر فيها من ناحيتين : الأولى ، أنه أفقدها ثروة علمية جليلة القيمة ، والثانية أنه اتجه بها اتجاهاً فكرياً جديداً .

والحق أن هذا الحادث الذي نود أن نعتبره فاصلاً بين عهدين ، حادث كبير الخطر في ذاته ، لأنه يعين في تاريخ الجامعة عشرين متباينين كل التباين .

العصر الأول (٢٠٦ — ٣٠ ق . م)

فيه قرب بطليموس «سوتر» (٢٨٥/٢٢٣ ق . م) أعظم رجال الأدب والفلسفة في عصره إليه ، وساعده في اختيارهم صديقه الخطيب الاثيني «ديمثريوس فاليريوس» وهو الذي وضع أساس مكتبة الاسكندرية وأظم جامعتها : بنى «سوتر» المتحف الاسكندري ، وجعل منه «أكاديمية» للعلوم والآداب . وجاء بطليموس فيلاداف (٢٨٥/٢٤٧ ق . م) فتابع العناية بالمتحف ، واشترى للمكتبة مجموعة مؤلفات «أرسطو» وأضاف اليها مصنفات أخرى يهودية ومصرية قديمة . وجاء بطليموس الثالث فاشترى لها أشهر مؤلفات الروائيين الاثنيين التي كانت تفخر بها مكاتب «أثينا» وتحملها بين محفوظاتها مكاناً محترماً ؛ وأجبر كل من زار الاسكندرية من الكتاب على أن يترك بها قبل مغادرته لها نسخة من مصنفاته إن كان من أصحاب النسايف .

ويعتاز هذا العصر الأول بأنه عصر أدبي علمي معاً ، ولقد كان في الواقع محاولة جبارة لاستئناف الثقافة الهلينية والسير بها خطوات أخرى إلى

الامام ، في وقت أصبحت فيه الاسكندرية المركز الوحيد في العالم للاحتفاظ بهذه الثقافة ؛ وبقيت كذلك حتى القرن السابق للميلاد الوقت الذي نشأت فيه مدارس أخرى في رودس وسوريا آخذة عن الاسكندرية نظامها وعلومها .

وامتد ظل هذه المؤسسة الفذة فشمّل العالم المعروف في ذلك الحين ، وبقي هذا الظل الوارف ممتداً فوق ربوعه إلى أن بسط الرومان سلطانهم السياسي على مصر ، فانتقل مركز الثقافة من الاسكندرية إلى روما . ولم ينح للأسكندرية أن تتشبه أدباً بمتأزاً ، ولم يعن الاسكندريون بغير نقد الأدب القديم ، وخلقوا أدباً لم يكن قومياً بحال ، كان كل المقصود به أن يصادف هوى الفريق المتعلم أنى وجد في أي بلد من بلاد العالم القديم . ولعل هذا يفسر المهمة المزدوجة التي أخذتها الاسكندرية على عاتقها وهي مهمة الاحتفاظ بالتراث الهليني من ناحية ، وإشاعته والنسج على متواله لأرضاء متذوقيه من ناحية أخرى — لهذا عز أن يظهر في الاسكندرية أديب مبتدع فذ في ابتداعه . وبما ساعد على ضعف الأدب الاسكندري ، أنه كان وليد المادة ، فقد دأب عواهل البطالة على إجازة قائله ، بقدر ما تورط هؤلاء في مدحهم . والأدب الذي يباع ببيع السلع لا يمكن أن يكون أدباً حقاً .

وكان الأديب في ذلك العصر غير منقطع للأدب ، فكثيراً ما كان الأديب مشغلاً بمسائل العلم والبحث ، ولا جدال في أن الأديب غير العالم ، والعالم غير الأديب ، ولا صلة بين العلم والبحث ، والأدب والبحث ، فكيف يكون الأديب عالماً فذاً ، والعالم أديباً مبدعاً ؟

وأشهر أنواع الآثار الأدبية في الاسكندرية في عصر قوة إنتاجها
والشعر القصصى ، الذى كان أكثر الأنواع تداولاً ورواجاً ، وكانت
المقطوعة أماتار بخية أو تهذيبية أو استعراضية تشرح أمراً من أمور الحياة ،
أو تعبر عن عقيدة دينية ، وكان الشاعر يحرص على أن يصب فيها كل
ما وعى قلبه من حقائق العلم الانسانى وأن يودعها كل مقدوره
الفنية على الصياغة والسبك وحسن الأداء .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن تكون المقطوعة منظومة علمية
بحثة ، تناقش الطقوس أو تصف علاجاً للتسمم أو عرض الحيوان
المفترس ، أو غير هذا وذلك من المسائل التى لا تمت إلى الذوق الأدبى
بصلة قريبة أو بعيدة .

والذى يمكن أن يقوله القائل في غير ما خرج ولا تردد . أن
الأدب في الاسكندرية كان صناعة أخص صفاتها دقة في التعبير ،
وسراعة للأوزان ، وانصراف إلى كل ما يجعل الفن الشعري
بالغا حد الكمال : وهذه وإن كانت كلها صفات لا يستقيم الأدب
الشعري بدونها ، إلا أنها ليست أهم سمات الأدب القيم ، فهى لا تغنى
عن الابتكار ، ولا تصرف النظر عن الذوق الأدبى الذى هو أهم
عناصر الأدب الصحيح .

• • •

وأنبغ شعراء الاسكندرية كليماخوس ، Callimachus وقد عفت
معظم آثاره الأدبية ، اللهم إلا بعض الأناشيد .
ومن أوضح ألوان الأدب الاسكندري الشعر التمثيلي . وقد قام
سبعة من أدباء العصر الأول بتأليف وإلياذة الاسكندرية ، ولا ندرى أين

يمكن العثور على هذا الأثر الأدبي الكبير، ونشأت بالاسكندرية
والرواية الهازلة، لنفس الغرض الذى نشأت من أجله في بلاد
اليونان (١) من قبل، ألا وهو نقد المجتمع الاسكندري الراقى، بأظهار
عيوبه على المسرح، بطريقة لاذعة أصابت هذا الفريق من الناس في
صميم مواطن الضعف فيه.

وكانت للنقد منزلة عظمى بين فنون الأدب الاسكندري، وكان
موضوع النقد آثار الاغريق الادبية، فقد تتولت بالشرح والتعليق مدة
قرنين فضمن لها ذلك حياة خالدة، ووضوحاً أبعدنا عن اللبس والابهام،
فأصبحت بفضل أدباء الاسكندرية ونقادها مفهومة على توالى الايام.
وخدمات جامعة الاسكندرية في هذا السبيل لا تقدر، فقد
قامت بمهمة تذكر بالفضل، أشبه ما تكون بمهمة الناشر الشارح
لهذه الآثار الادبية اليونانية.

وليس هناك من شك في أن مهمة النقد تحتاج إلى الملم تام بفروع
المعرفة الانسانية، وكانت معارف علماء جامعة الاسكندرية وأدائها
واسعة غير محدودة، وكان ذلك من خير النقد، ولا يبعد أن تكون
أنشطة علم القواعد، وتصنيف الموسوعات، ووضع القواميس اللغوية،
وغير ذلك من العلوم القريبة الاتصال باللغة قد صحبت هذه الحركة
الادبية الواسعة النطاق، حركة نقد الاداب اليونانية في الاسكندرية.
ولولا هذه الجهود المشكورة، لما أمكن الاستفادة من مخلفات

(١) جرى الاسكندريون من كتاب الرواية الهازلة على سنن استاذهم
ميناندر، Menander الاثينى، وعرفت آثارهم باسم الكوميديا الجديدة.

الاغريق ؛ ومن أشهر النقاد الاسكندرانيين في الفترة الاولى من حياة الجامعة «أرسنار كاس» ، و «كليماخوس» ، و «زنودوتس البزنطي» ، وإلى جانب المدرسة الادبية كانت تقوم المدرسة « الرياضية » وزعيمها « أقليدس » ، ومن أشهر علمائها « أرشميدس (١) » ، و «أبولونيوس» صاحب رسالة «القطاع المخروطي» Conic Section ، و «أراتوستينز» أول من حاول قياس محيط الارض و « هباركاس » أول باحث في السموات ، وهو الذي قرر لأول مرة أن الشمس هي المحور الذي تدور حوله الكواكب السيارة .

ويقرن تاريخ الطب والتشريح في هذا العصر الاول باسمين لامعين هما : «هيروفيلوس» و «وارسستراتس» أول جراحين عرفهما العالم القديم ، وما ساعد على تقدم الطب والتشريح بوجه خاص أن البطالة كانوا يمدون المتحف الاسكندري بالمجرمين الذين يراد تنفيذ عقوبة الاعدام فيهم لتشريح أجسامهم ودراستها .

وفي جامعة الاسكندرية كشفت في هذا العصر وظيفة «الاعصاب» ونقلها لانفعالات الفرح والحزن وغيرهما من أنواع الانفعالات. وهكذا عرف الاسكندريون لأول مرة أن المخ هو جامع الجهاز العصبي . وكان علماء الطب في الاسكندرية يفهمون «الدورة الدموية» تمام الفهم ، أما «الجهاز التنفسي» ، فلم يكن قد عرف بعد معرفة تامة ؛ وكانت

(١) أرشميدس لا يعتبر في الحقيقة من علماء الاسكندرية إلا أن أثره على أفراد مدرستها الرياضية كان كبيراً جداً ، طبعهم بطابعه في البحث ، حتى لا يمكن لباحث أن يقلد ذكره عند الكلام على تلاميذه الاسكندرانيين ، فاحمه علم عليهم جميعاً .

الاسكندرية بوجه عام مركز الثقافة الطبية في العالم القديم ، يؤمها
النبات الراغبون في تعلم الطب من كل حذب وصوب على نحو
ما يؤمّون الآن جامعات أوربا لنفس الغاية .

أما عن علمي النبات والحيوان ، فقد ظل هـ أرسطو ، واتباعه
القادة في هذا الميدان ، على أن الحقائق التي وصل اليها الاسكندريون
كان ينقصها الكثير من الدقة لاحتوائها على بعض الاغلاط الناشئة من
عدم وجود المجهر (الميكروسكوب) . وظلت الاسكندرية تحمل
لواء الرياضة والفلك والطب إلى ما بعد الميلاد بزمان غير قصير .

العصر الثاني (٣٠ ق . م — ٦٤٢ م)

كانت المسيحية حادثاً جللاً له خطره في دائرة العلم الاسكندري
فقد أسفر النزاع بين المسيحية والوثنية عن أسوأ الآثار ، وأعجت
بالتدريج روح البحث العلمي الصحيح ، وربما كان السبب في ذلك
هو زوال المراجع العلمية ، ورغبة المسيحية عن كل ما هو وثني ،
ونشأت بالاسكندرية من أثر ذلك روح أخرى جديدة ، لم تعتمد
على الفكر البحث ، وإنما أفسحت المجال للأوهام والخيالات ،
وأمدتها المسيحية واليهودية بكثير من تعاليمهما ، فنشأت بذلك
مدرسة فلسفية لا تعتمد على الفكر ، الذي هو أساس الفلسفة
الصحيحة ، بقدر ما اعتمدت على الإلهام . ولامت هذه المدرسة
الفلسفية بين عناصر يهودية ومسيحية وهلينية متقاربة ، فكانت
بطبيعتها هذه شرقية غربية في وقت واحد .

وأنتجت الروحانيات اليهودية ، باختلاطها بالفكر اليوناني مسألة

جديدة فلسفية الذوق في بعض مظاهرها ، أخذت بعض آراء اليهود في الحق الالهي — والحق أن مبادئ اليهود في الاخلاق قد أمدت فلاسفة الاسكندرية بمادة فكرية لا بأس بها في عصر أخص مميزات جذب فكرى عظيم أخذت تعانیه المدينة على أثر دخول المسيحية فيها . وهذه المسألة الجديدة التي نشأت من هذا التفاعل ، مسألة متشعبة أساسها «فلسفة أفلاطون» و«پيثاغورس» وقد تسمت في الاسكندرية باسم «الافلاطونية» الحديثة و«الفيشاغورية» الحديثة . وأول مبشر بهذه الفلسفة الجديدة «أمونيوس سكاس (١)» .

وزعيم هذه المدرسة الفلسفية «أفلوطين» ، ومن أقدم علمائها «فيلو» وهو فيلسوف يهودى كونت أبحاثه نواة هذا المذهب قبل معرفته وذيوعه بأكثر من قرنين من الزمان ، وظلت تلك النواة دقية حتى جاء «أمونيوس سكاس» فبحثها بحثاً جديداً ، وبشر بالتعاليم الجديدة ، وكان أستاذاً «لافلوطين» الذى تفرع النظرية باسمه .

على أن من أسباب ضعف الانتاج في جامعة الاسكندرية في هذه الفترة الثانية من حياتها ، يرجع أول ما يرجع إلى الخلافات التي دبت بين أفراد البيت المالك في مصر ، فقد أدى تشاحن البطالة فيما بينهم على امتلاك العرش إلى حروب ومنازعات أفقرت خزائن البلاد وعاقبت من تقدم الفكر في الفترة التي أعقبت موت بطليموس

(١) وقد اختلف إلى إلى الاسكندرية فأفاد الاسكندريون كل نظرياته المدرجة

(٢) قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين احمد أمين وركى نجيب محمود

الثالث ، أى منذ عام ٢٢١ ق.م — فى تلك الفترة الزمنية التى تنتهى بعام ٣٠ قبل الميلاد ، كانت البلاد مسرحاً للاضطراب والتدهور السريع . ويعتبر ضعف الانتاج فى هذه الحقبة مقدمة لحالة الاحمال الفكرى الشديد الذى أصاب الجامعة فى عهدها الثانى .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظهرت بالاسكندرية بعد الميلاد حركات فكرية لا بأس بقوتها فى نواحي الآداب والطب والعلوم ، فى عصور سادها الصراع العنيف بين المسيحية والوثنية — فى الفترة التى تنتهى بعام ٢٧٣ للميلاد وجدت الجامعة من عناية القياصرة مثل ما وجدت من عناية البطلمة من قبلهم ، فقد كان الامبراطور هدریان ، مثلاً يحتلف إلى المتحف ، ويشترك فى المناقشات العلمية والادبية فيه — وكان اعتماد هذا العصر على المكتبات الفرعية فى السرايوم والقبصريون ومكتبات الافراد . ومن أظهر شخصيات هذه الفترة من حياة الجامعة الخطيب « بولكس » Pollox الذى أنشأ له الامبراطور كرسيًا لتدريس فن الخطابة فى الجامعة ، وهو من كانوا يحذقون قواعد اللغة اليونانية وآدابها .

على أن انعدام الحرية السياسية والفردية فى العصر الرومانى ، وانشغال البلاد بتصيرها السياسى لم يدع مجالاً للعناية بالعلوم والآداب . وأشهر انتاج موروث عن النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، بعض المساجلات الادبية التى وصلت إلينا مدونة على قطعة من ورق البردى ، وبعض الاشعار من أنتاج الشاعر « هليودور » معروفة باسم « الاثيوبيات » ، وشعر هذا العصر ضعيف ينعدم فيه التجديد

ويطبعه التأخر، ومعظم كتاب هذا العصر من غير الاسكندرانيين . وفيه شاعت طريقة نظم العلوم في منظومات شعرية تسهила لحفظها . ومن أشهر شخصيات العصر الطبيب المشرح . كلود جالين ، الذي بلغ على يديه فن التشريح مبلغاً رفيع من شأن الاسكندرية وخلد ذكرها في الطب الجراحي . وكانت الدولة الحاكمة حرية الطابع لا تعنى إلا بكل ما له مساس بأقامة صرح الامبراطورية ؛ وإلى هذا يرمى ضعف انتاج العصر الثاني بوجه عام . وعلى الرغم من كل ذلك فقد أنجبت الاسكندرية المهندسين « ميلاس » الذي درس « الدائرة » و « سيرنوز » الذي خطط مدينة السويس ، فضلاً عن « باپوس » الذي قرب « أفليدس » و « أبولونيوس » و « أرشميدس » إلى افهام الناس — ولولا جهود هؤلاء وجهود العالم الجغرافي « كلوديوس بطليموس » لانصف هذا العصر بالجذب العلمي الشديد . وللعالم « ثيون » وابنته الفيلسوفة الوثنية « هباشيا » فضل يذكر في رفع شأن الاسكندرية في هذا الشطر من حياتها العلمية . وكثير من العلماء الذين أظهرهم هذا العصر اشتغلوا بمسائل اللغة وعلقوا على الأشعار الهومرية ، ومن أشهرهم « أبولونيوس الديسكولي » .

ومن فلاسفة هذا العصر « أمونيوس سكاس » زعيم المدرسة الفلسفية المعروفة باسم « الأفلاطونية الحديثة » . وتلميذه « أفلوطين » الذي ينتسب إليه المذهب . وهما خير من يمثل الحالة الفكرية في هذه الفترة من الزمن ، وهي حالة غلب فيها اللجوء إلى الإلهام في كشف حقائق الأشياء دون المنطق ، فقد اعتقد فلاسفة الاسكندرية في هذا

العصر (وهم معلو الأفلاطونية الحديثة) أن هناك شيئاً أسخى من الفكر في ادراك حقائق الأشياء ، هو البصيرة أو الكشف ، وهما كفيلا ن عندهم بأدراك حقائق الأشياء . ويعزى كثير من الخسارة العلمية في العصر الرومانى إلى الصراع بين المسيحية والوثنية وضباع كثير من الكتب في هذا الصراع . وكان أثر الوثنيين بالغاً في حالة المدينة العلمية ، حتى بعد ذبوع المسيحية وانتشارها — فقد أيج للفلاسفة الوثنيين أن يحاضروا في الجامعة في فترة ضعف فيها الحماس الدينى الذى منع هؤلاء من أن يفيدوا بعلمهم جمهور الاسكندرية عند أول دخول المسيحية ، وكان لعودة الوثنيين إلى الظهور على مسرح الحياة الفكرية في الاسكندرية أثره في أنعاش الحركة العقلية في المدينة ، والحق أن تقدم الفكر الاسكندرى أو تأخره على طول العصر الرومانى ، كان مرهوناً بقيام الوثنيين أو قعودهم عن الاشتراك في مسائل العلم والفلسفة — فلما أن فقدتهم المدينة نهائياً في أواخر القرن الخامس الميلادى ، بسبب قتل الامبراطور « زينو » للأساتذة الوثنيين في الجامعة ، بدأ عهد الاسكندرية بالاضمحلال العلمى . وبناء هذا الفريق اطر د عدد العلماء المسيحيين . ومن أشهرهم في القرن السادس « حنا فليپونس » اللغوى العالم بالتوحيد والمعلق على فلسفة أرسطو ، وهو من خيرة مفكرى الاسكندرية ذوى الآراء الحرة التى كانت تدنو في نظر بعض البطارقة من الهرطقة ؛ وهو مؤرخ مشهور اعتمد عليه « بطلر » Butler مؤلف « فتح العرب لمصر » Arab Conquest of Egypt ومن الشخصيات البارزة في نهاية القرن السادس الميلادى « اسطفان »

الفيلسوف ، وهو من الاساتذة المسيحيين الذين درسوا ، أرسطو ،
وعلقوا عليه ، ومن الذين أضعفوا عقيدة « الطبيعة الواحدة » في
المسيح . وقد حورب من أجل ذلك حتى رحل عن الاسكندرية .
وفي خواتيم هذه الفترة كانت الروح الهلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة .
وذلك بسبب انتصار المسيحية على الوثنية واندحار الآراء الحرة ،
واكمال حركة النهوض القوي بين أقباط مصر ، وكان من جراء
ذلك تدهور محسوس قضى قضاء تاماً على ما كان للاسكندرية من آداب
وعلوم — اللهم إلا بقية من الطب والكيمياء أدركها العرب في
الاسكندرية بمتزجة بالمعجزات والتنجيم ، وخلاصة من الفلسفة
مختاطة بالدين أشد الاختلاط وأقواه .

الفصل الثاني

فلسفة الاسكندرية

فيلو ، وريادز فلسفة جديدة — أمونيوس سكاين — أفلوطين ومذهب الاسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) — أثر الأفلاطونية الحديثة في نشوء التصوف المسيحي — أثرها في فلسفة العصور الوسطى ، المدرسية ، — أثرها في التصوف الاسلامي — هل من أثر لها في سبنوزا وديكارت ؟

فيلو : ولد فيلو سنة ٢٥ ق.م من أبوين يهوديين بمدينة الاسكندرية ، ومات سنة ٥٠ بعد الميلاد ، فهو معاصر لدخول المسيحية إلى الاسكندرية ، شهد صراعها مع الوثنية ، ذلك الصراع الحاد الذي كان له أثره على العلم والفلسفة .

وهو زعيم مدرسة فكرية أنشأها في الاسكندرية ، جمعت بين التوحيد اليهودي وفلسفة أفلاطون . وما وصلنا من كتاباته يلقى ضوءاً ساطعاً على روح ذلك العصر ، بما كان فيه من صراع بين اليهودية والوثنية ، وبين المسيحية والفلسفة اليونانية .

وهو أول من وفق بين التعاليم الاخلاقية اليهودية والفلسفة اليونانية ، حاول جاهداً أن يدلل على أن كل الآراء اليونانية أو جلها مستغرقة في مبادئ اليهود الاخلاقية . وإلى هذا الزعم انصرفت كل جهود اليهود المشتغلين بالمسائل الفكرية في ذلك العصر ، فكل ما وصل اليه العقل اليوناني مستمد في نظرهم من الثوراة ، ومن شريعة موسى عليه السلام .

وعند « فيلو » ، أن العقل اليوناني ، بما أوتي من مقدرة فائقة على استكناه الحقائق ، عجز كل العجز عن ادراك حقائق الاشياء ، وأن التفسير الوحيد لكل أشكال من هذا النوع يلتمس في التوراة . فليس شيء عنده أقدر على شرح حقيقة الكون من ذلك الكتاب المقدس . و « فيلو » أول عقل خاد بالفلسفة عن طريقها المنطقي ، ونحاها نحو الالهام والتصوف — وهو على بعد الشقة بينه وبين « سكرس » و « أفلوطين » ، استاذهما في هذا المضمار . والخلاف بينهما يتلخص في أن « فيلو » هذا مزج بين اليهودية والفلسفة اليونانية ، أما مثلو الافلاطونية الحديثة فقد مزجوا بين الوثنية والفلسفة اليونانية — وليس معنى هذا أنهم لم يقبلوا العنصر اليهودي الذي جاءهم مندبجاً في هذه الفلسفة منذ ألصقه بها فيلو .

ويرى « فيلو » أن الحواس والعقل معياران كاذبان للمعلومات لا يصح تصديقهما ، وأن المعلومات الانسانية لدنية صرفة ، نشأت في الفكر نشوئاً داخلياً لا علاقة للحواس به . وهو لا يعترف بأن الله خالق المادة ، وإنما عالم المادة عنده من خلق قوى أدنى من القوة الالهية .

وهو يشبه فكرته في الخلق وصلة الاله بالمادة ، بإبثاق نوراني يشع من الاله ، تمتد منه خيوط تأخذ في الضعف والزوال عند بلوغها عالم المادة — فالله نور ، والمادة ظلام ، ولا علاقة في رأيه بينهما .

لم تكن جامعة الاسكندرية في عصرها الاول بدراسة الفلسفة

عنايتها بالعلوم والآداب اليونانية ، ولكن بما ليس فيه شك أن
فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو كانت موضوعات للدراسة في
المتحف الاسكندري ، وكذلك كانت فلسفة الرواقين والابيقوريين .
تناول الاسكندريون هذه الفلسفات تناول المعجب بها ، وقرروا
مبادئها تقريراً ، من غير أن يقوموا بمجهود يذكر للانتفاع بهذه
الفلسفات المختلفة في ابداع نوع جديد . وهكذا كانت دراسة
الاسكندرية لفلسفة اليونان مجرد تعلق بأهداب القديم .

ثم جاءت المسيحية بتعاليمها الجديدة ، فوقعت وجهاً لوجه أمام
كل شيء وثني ، تصارعه فتصرعه أو تتأثر به وتتخذ سنداً لها
وعوناً — هكذا كان شأنها مع جامعة الاسكندرية ، رفضت منها
الجانب الفلسفي البحت الذي لا يظاهرها ، وقبلت الجانب الذي رآته
لا يتعارض مع مبادئ الدين الجديد .

وهضمت المسيحية فيما هضمت من الفلسفة جانباً يهودياً لاهوتياً
مختلطاً بشيء غير قليل من آراء الاغريق فيما وراء الطبيعة . رأت
المسيحية وهي تحارب جامعة الاسكندرية الوثنية أن تقبل هذه
العناصر المختلطة ، وأن تستعين بها جميعاً على الذيوع والانتشار ، متخذة
لنفسها سنداً من الفكر القديم .

قبلت المسيحية بعض الآراء الفلفسية ، ولفظت بعضها الآخر ،
وظهر من المتحمسين للمسيحية ، الذين رأوا ضرورة للتشبث
بالفلسفة ، فريق خلطوا الدين بالفلسفة ، وأنتجوا نوعاً من «التصوف»

بنوه على أسس مشوهة من فلسفة أفلاطون .

NEO PLATONISM الافلاطونية الحديثة

الافلاطونية الحديثة آخر مدرسة فلسفية عرفها العالم القديم . سادت تعاليمها بين إغريق الاسكندرية ابتداء من القرن الثالث الميلادي ، وهي في مجموعها نوع من المحاولة الفلسفية التصوفية لتفسير الكون ، كما أنها في الواقع خاتمة نائية لفصول الفلسفة اليونانية القديمة .

حققت هذه الفلسفة من شأن الحقائق العلمية البحتة ، وجعلت للتصوف والألهام المنزلة الأولى في تفسير الظواهر السكونية .

وكل مظاهر هذا الضرب من التفكير روحية محضة ، لا تعنى بالجانب المادي من العالم ، وإنما تفرغ كل عنايتها للجانب المعنوي منه ، وهي تأخذ بنظرية «المثاليين» ولا تعترف بنظرية «الماديين» ، ترى أن الحقائق الانسانية وليدة الفكر نفسه من غير تدخل الحواس ، فهي لا تصل اليه من العالم الخارجي كما يرى المساديون ، وبعبارة أخرى يرى اتباع هذا المذهب أن «الفكر هو الحقيقة» .

• • •

ومن هذا نرى أن فلاسفة الافلاطونية الحديثة عاشوا على غذاء فكري ضئيل — لأنهم أساءوا النقل عن «أفلاطون» ، حين تعلقوا بما أورده من التنبيهات التي لم يسبقها إلا على سبيل التثليل ، من غير أن يأخذوا عنه آراءه الحقيقية في «المثل» .

وعاش الشعب الاسكندري على ترهات وخرافات بحدتها
هذه الفلسفة الجديدة بكل ما وسع الفكر الشرق من تشبث، وما
طبع عليه من استسلام للأوهام .

ونظراً لما كان للاسكندرية من مركز متوسط بين أجزاء العالم
القديم ، تلاقى فيها ألوان من الفلسفة اليونانية ، فتناولتها بالدرس
والشرح والتعليق زمناً في جامعتها ، ثم أنتجت في عصر ضعف الجامعة
نوعاً من الفلسفة عرفت به وعرف بها ، هو فلسفة « الأفلاطونية الحديثة » .

وقد أخذت فلسفة الاسكندرية من كل فلسفة سابقة بنصيب ، ثم
مزجت هذا الخليط الفلسفي بالدين وبالتصوف ، فهي آخذة من أرسطو
أسلوبه المنطقي ، كما هي قائمة على طريقة « اختيار » ما يحلو لها من
المذاهب المختلفة — ليس لها اعتماد ما على حقائق العلم المادي ، وعن
أفلاطون نقلت كل آرائها في « المثافيزيقا » ومن « الرواقيين »
استمدت تعاليمها الأخلاقية ، وزادت على ما أخذت عن هؤلاء
جميعاً ما ساغ لها من تصوف خاص أكسبها طابعها المعروفة .

ولقد فرقت الأفلاطونية الحديثة تفريقاً واضحاً بين الروح والمادة ،
على نحو ما فرق بينهما الفلاسفة اليونانيون من قبل ، وكما فرقت
« الفيثاغورية » الحديثة نفسها ، وهي تأخذ في ذلك بالمذهب « الأثيني » (١) ،
الذي يفصل المادة عن الفكر ولا يعتقد بوجود اتصال بينهما .
وهذا هو العنصر الفلسفي في الأفلاطونية الحديثة .

(١) زعم هذا المذهب « أفلاطون » ، وقد حاول أرسطو أن يصحح من خطأ
هذا الرأي - راجع فلسفي أرسطو وأفلاطون

وأضافت هذه الفلسفة إلى ذلك أن هناك شيئاً أسمى من الفكر في إدراك حقائق الأشياء هو البصيرة ، فمن طريق الكشف يمكن أن تدرك حقائق الأشياء ، وهذا تصوف لا صلة بينه وبين العقل البحت . وإن عصرًا تسود فيه مثل هذه الفلسفة ، لا بد أن يكون عصر إهمال علمي ، عجز العقل فيه عن الوصول إلى حقائق الأشياء بطريقة منطقية ، فترك للأفهام والكشف أمر الوصول إليها .

اكتسبت الفلسفة هذه الروح الغريبة من احتكاكها بالدين ، ورغبتها في مناصرتها ، وربما كانت هذه الفلسفة قد تعمدت التحقير من شأن العلم المدرك بالحواس ، لتكون إلى الدين أقرب . . . ولا غرابة فقد كان معظم فلاسفة هذا العصر من رجال الدين — بل لقد كادت الأبحاث الفلسفية بجميع أنواعها تكون وقفاً على رجال الدين المسيحي أنفسهم ، وهم الذين تذرعوا بأساليبها في الاقتاع للنشر العقيدة المسيحية .

وأول مبشر بهذه الفلسفة الجديدة : أمونيوس سكاس ، .

أمونيوس سكاس : أمونيوس سكاس هو مبتدع هذا الضرب من الفلسفة في الاسكندرية ، وأول أستاذ له ، نصراني النشأة ، درس أرسطو وأفلاطون ، وتشبع بأرائهما الفلسفية ، غير أنه رأى أن العالم في عصره قد هوى إلى حضيض غلبت فيه نزعة الشر على نوازع الخير ، وانحدرت فيه النفس البشرية من سماء الطور إلى وهدة من الأدراخ سحيقة ، فكان لا بد لها من نوع من الفلسفة يقنعها أن

سموها وتحررها إنما هو بانصالها بالخالق ، وابتعادها عن شرور المادة وآثامها .

وهكذا كانت الأفلاطونية الحديثة العلاج الروحي لتلك الحالة السيئة . ولم يخلف « سكاس » أثراً مكتوباً من فلسفته ، ومات في منتصف القرن الثالث للميلاد .

أفلوطين : أفلوطين تلميذ لامونيوس سكاس . هضم تعاليمه لدرجة جعلته يعتبر في نظر كثير من مؤرخي الفلسفة مؤسس مذهب الإسكندرية .

ولا يعرف التاريخ كثيراً عن حياته الخاصة ، لأنه أنى أن يدون شيئاً عن الجانب الجثمانى من نفسه مبالغة في الزهادة واحتقار المادة . ولد في أسيوط في أوائل القرن الثالث الميلادى ، وتلقى علومه الفلسفية في جامعة الإسكندرية ، وشغف بدراسة فلسفة الهنود والفرس ، ودرسها في فارس عن كثب . وحوالى منتصف القرن في الوقت الذى مات فيه أستاذه « أمونيوس سكاس » رحل إلى روما وأسس هناك مدرسة أخذ يعلم فيها مذهب « كيمانيا » مكرماً من الامبراطور « جالينوس » ومن عظماء تلك المقاطعة الذين وكلوا إليه أمر تثقيف أبنائهم وتربيتهم على تعاليمه .

وحياته الخاصة نموذج للتقشف البالغ . كان يقل من الطعام ومن النوم ومن الشراب رجاء الاتصال الروحي بالخالق — ويزعم أنصار هذا المذهب أن زعيمهم استطاع بالتجرد أن يصل إلى

الله أكثر من مرة . وأن يندمج معه اندماجا تاما .

• • •

ولأفلوطين أهمية خاصة في عالم الفلسفة ، فهو في الواقع آخر فيلسوف في العالم القديم ، كما أنه المبتدع الأول (للمتا فيزيقا) (١) المسيحية ، وأول مقرر في تاريخ التوحيد المسيحي للعلاقة بين المتافيزيكا والاخلاق . وفلسفة أفلوطين قائمة على فكرة «أفلاطون» في المثل . مع شيء من التشويه . رفض من كل مدارس من فلسفة اليونان أية علاقة بين عالمي المادة والحس . ورأيه في العالم أنه من خلق قوة خارقة تعجز العقول عن إدراك كنهها : أزلية غير متناهية . لا صلة للروح أو المادة بها . وهذه القوة مؤثرة في الكون ، غير متأثرة به ، إرادتها مطلقة لا راد لها ، وذاتها منزهة عن كل وصف ، لأن الوصف من مستلزمات المادة ، وهي ليست منها بحال ، لا مكان لها تستقر فيه ولا زمان . وفي عبارة موجزة هي قوة تخالف ما في الوجود من قوى ، ولا تتصل بالوجود بأي نوع من أنواع الاتصال ، لما في ذلك الاتصال من التدلي إلى حضيض المادة .

إذا كان هذا ، فكيف تفسر هذه الفلسفة « نظرية الخلق » ؟ وكيف نشأت الكائنات ، إذا كان الخالق منقطع الصلة بالكائنات ؟ يرى « أفلوطين » أن الكون نشأ عن الآله بطريق « الفيض » ، على نحو ما يفيض الضوء من اللهب ، والبرد من الثلج .

(١) ما وراء الطبيعة ، الخالق .

وأول شيء فاض عن الآله بهذه الطريقة هو العقل . وعن هذا العقل انبثقت « نفس كلية » وعن هذه النفس الكلية انبثقت « نفوس جزئية » هي نفوس البشر ، وهذه النفوس الجزئية أدنى مراتب العالم الروحاني الذي يبدأ بالآله . وشاء « أفلوطين » أن يخرج من النفس الكلية نفساً ثانية هي « الطبيعة » ، وهي التي تتصل وحدها بالعالم المادي .

والمادة عند أفلوطين أبعد الكائنات عن الكمال ، وهي مصدر الشرور لأنها عبارة عن العدم ، والعدم أشد درجات النقص ، وغاية الحياة التحرر من سلطان تلك المادة ، وما دامت المادة شراً ، فلا اتصال لها بالخالق ، لأنه خير مطلق ، ولا يمكن أن يكون للخير بالشر اتصال .

ويؤخذ على أفلوطين أنه استسلم للأوهام ، وجعلها أساساً لفلسفته ، وما الفيض الذي رآه الوسيلة الوحيدة للخلق إلا محض خيال ووهم كبير .

وأسمى ما تطلعت إليه الأفلاطونية الحديثة هو الوصول إلى حالة استقرار نفساني ، يخرج العالم من ظلام الحيرة والشك الذي اتباه في ذلك الوقت — إذ لم يكن بد في وقت ساد فيه مذهب الشك (١) (الذي يقرر أن العقل لا يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء بالفسر) من وجود فلسفة كهذه ، تقرر أن الكشف والألهام كفيلا للوصول إلى « الحقائق » التي قرر « الشكاكون » عجز

الفكر عن إدراكها . وهذا هو التصوف الذى دارت حوله
الافلاطونية الحديثة .

ويصعب أن يقبل الفلاسفة هذا الضرب من التفكير على أنه
فلسفة ، ولا حاجة بهم إلى اخضاعه لقوانين المنطق الصارمة اشفاقاً
عليه منها .

وبلافلوطين فى الوصول إلى حالة التجرد والاتحاد مع ذات
الله خطوات لا بد للمريدين من سلوكها :

الاولى : — التحلل من شرور المادة وسلطانها القاهر بالرياضة
على شغل العيش والتعشيف .

الثانية : — التأمل والتفكير للوصول إلى الحقيقة العليا .

الثالثة : — الوصول إلى حقائق الأشياء بطريقة لدية بحثة
سبيلها التحلل من شرور المادة بالزهادة فيها ، والتفكير فى ادراك
الحقيقة العليا بالتأمل العميق .

الرابعة : — الاتحاد مع الله والاندماج فى ذاته والتجلى الأعظم ،
فإذا نعمت النفس الإنسانية بهذا الاتصال الإلهى ، استقرت فى
مقامها الأول ، وسعدت بذلك المقام زمناً .

ولا سبيل إلى التجرد والاتصال بالخالق إلا بترويض النفس
على الزهادة والتعشيف .

وقدر لمذهب الاسكندرية هذا أن يتشكل فى سوريا وروما
وأثينا بعض التشكل ، مع محافظته على أساسه التصوفى فى كل مكان

— ففي روما اتخذت الأفلاطونية الحديثة على يد زعيمها هناك «بروفيري» (فورفيروس) شكلاً قوياً فيه الاعتبار بعض الشيء على التصوف وامتنان بالوضوح لأنه كان منطقياً — وفي سوريا، زادت حدة النزعة الدينية في الأفلاطونية الحديثة، وازدادت غموضاً هناك على يد تلميذها «جامبليكوس».

وبعد القرن الخامس الميلادي انزوت الأفلاطونية الحديثة في وكر الفلسفة الأولى، في «أثينا» حيث عليها «بروكلوس» آخر معلم للفلسفة القديمة. وعلى يديه ناصبت الأفلاطونية الحديثة المسيحية العداء، واشتدت حماسها للموسوية والوثنية.

وفي سنة ٥٢٩ م أغلق «چستنيان» المدارس الفلسفية التي وجدها، في أثينا وسوريا وروما، ففر من وجهه «دماسكياس» الدمشقي إلى بلاط «كسرى» ملك الفرس ومعه عدد من أتباعه يتفنون عنده نصرته لمذهبهم الفلسفي، ولكنهم باعوا بالحياة فيما هاجروا من أجله، وضمن لهم «كسرى» عند «چستنيان» بعد عودتهم من بلاد الفرس حياة وأماناً.

وفي القرن السادس الميلادي قضى على الفلسفة بكل أنواعها قضاء تاماً، فلم تعد تدرس هنا أو هناك، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية مسيحية شغلت الأذهان في القرون الوسطى، طرأ عليها ما طرأ من الفساد حتى أدركها الإصلاح على يد «كلشن» و«دولوتر» وغيرهما. وليس معنى هذا أن الآثار الفلسفية ذاتها أمتحت من الوجود، بل كل ما حدث أنها فقدت الالسنة الناطقة بها والعقول الباحثة فيها

والقوة النافذة لها ، واستكنت في خزان الاديرة والكنايس زمناً ،
يقرؤها رجال الدين في صمت عجيب ، ويفيدون منها ما يفيدون ،
إلى أن جاء عصر احياء العلوم ، فقدر لآثار أرسطو وأفلاطون
والاسكندرانيين وأشياخ الاسكندرانيين أن ترى النور من جديد ، وأن
تنال على ضوء العقل الحديث ما تستحق من تقدير ونقد .

ومال العرب في العصر العباسي إلى دراسة الفلسفة اليونانية
عامة ، فأخذوا عن اليونان أساليبهم في الفكر وأقيستهم في المنطق ،
ومسلكتهم في الحوار ، وأدخلوا بذلك على الدين الاسلامي حركة
تعقلية امتاز بها العصر العباسي الاول ، هي حركة الاعتزال ،
ثم نقلوا عن فلسفة الاسكندرانيين ، روحها التصوفية ، لأنهم
وجدوا فيها ملامحة تامة بين الدين والفلسفة ، قالوا اليها وانفعوا بها .
وإذا حق القول بأن هذه الفلسفة أنشأت التصوف المسيحي
انشاءً ، فلا يمكن الذهاب إلى أنها أنشأت التصوف الاسلامي ، إذ التصوف
الاسلامي سابق في وجوده على دراية العرب بهذه الفلسفة . ومن
الانصاف أن نعيد القول هنا بأنها لم تخلق التصوف الاسلامي
— وإنما دخلت عليه فقط ، فلم ير فيها ما يخالف طبيعته ، فقبلها ،
وأخذ منها ما يقوى هذه الطبيعة . كان ذلك في العصر العباسي حين
ذاعت فلسفة الاسكندرانيين بين العرب على يد السريان .

والتأمل في فلسفة « سبنوزا » و « ديكارت » ، يرى أنهما أخذتا

أصولا لفلسفتيهما من الأفلاطونية الحديثة ، ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود العصور الوسطى ، وما مذهب « فطرية الأفكار » عند « ديكارت » إلا رجوع إلى ما قرره أفلوطين من أن النفس كانت بادية ذي بدء نقية تكسدت حولها الأدران ، فلو أنها استطاعت أن تتق ذاتها ، لشعرت أنها لا تحتاج إلى مزيد من العلم يأتيها عن طريق الخواص — عندئذ تهتدى النفس إلى كل شيء بهدى إلهي هو الأفكار أو حقائق الأشياء الحالة فيها « بالفطرة » .

وأشهر آثاره الفلسفية « التاسوعات » Enneads وتقع في أربع وخمسين مقالة ، طبعها تليذه « فورفيروس » ، ظهرت لها طبعة لائنية عام ١٤٩٢ م ، ثم طبعت في أواخر القرن التاسع عشر ، طبعها « ملر » Müller ثم ترجمها إلى الإنجليزية « ماك - كنا » سنة ١٩١٧ م وخير من تناول أفلوطين وفلسفته بالكتابة « إنج » الذي وضع « فلسفة أفلوطين الدينية » (١٩١٤) ، و « فلسفة أفلوطين » (١٩١٥) .

ومن كتبوا عن فلسفة أفلوطين من العرب « الشهرستاني » وكان يسمى أفلوطين « الشيخ اليوناني » ، ونحن نسوق مثالا من تناول الشهرستاني لفلسفة الاسكندرانيين . يقول في علاقة الله والعقل بالمادة في كتاب « الملل والنحل » :

« وقد ارتفع اليك خصمان منك يتنازعان ، بك أحدهما حق والآخر مبطل ، أحدهما العقل والثاني الطبيعة أي المادة » .

ويقول في الآله : « ليس للمبدع الأول تعالى صورة ، ولا

حلية مثل صور الأشياء العالية ، ولا مثل صور الأشياء الساقطة ،
ولا قوة له مثل قواها ، لكنه فوق كل صورة وحلية وقوة ، لأنه
مبدعها بتوسط العقل : المبدع الحق ليس شيئاً من الأشياء ، وهو جميع
الأشياء ، لأن الأشياء منه . وقد صدق الأوانل الأفاضل في قولهم :
مالك الأشياء كلها هو الأشياء كلها ، أو هو علة كونها ، (والمقصود
بالأفاضل الأوانل فلاسفة اليونان) وهو قديم دائم على حاله لا يتغير ،
والعاشق يحرص على أن يصير إليه ويكون معه . وللعشوق الأول
(الإله) عشاق كثيرون ، وقد يفيض عليهم كلهم من نوره ، من
غير أن ينقص منه شيء ، لأنه ثابت قائم بذاته لا يتحرك .
هذا مثل من أمثلة أخذ العرب عن الاسكندرانيين ، وهو يطلعنا
على أن الأفلاطونية الحديثة لا تجعل صلة بين الإله والمادة ، فإن
جعلت هناك صلة بينهما ، فبطريقة نائية عن المنطق كما ترى .

الفصل الثالث

تحقيق القول في أمر المكتبة العامة

أبو الفرج بن العبري يذيع الفرية — ملخص الفرية — الأكلة على أنث العرب
لم يقرعوا هذا الأثم — خثر الاسكندرية من مكتبة عامة عند فتح العرب لهم —
علامة آراء المؤرخين المحدثين .

نقل : أبو الفرج بن العبري ، Bar Hebraeus عن أبي الحسن علي
ابن يوسف القنطري (٥٦٨/٥٦٩) رواية مؤداها أن عمرو بن العاص ،
أحرق المكتبة الكبرى التي كانت بالاسكندرية عند فتح العرب لها ، ثم
تداولها من بعده نفر من المؤرخين ، منهم عبد اللطيف البغدادى
وتقى الدين المقرئى .

وتلخص الفرية في أن حنا الاجرومى Johannes Grammaticus
شهد فتح العرب للمدينة ، ودخل مرة على عمرو بن العاص فأكرمه
عمرو وافتتن به ، وقربه من نفسه — فطلب حنا إلى عمرو أن يهبه
كتب الحكمة في الخرائن الملوكية ، فاعتذر عمرو بأنه لا يستطيع
أن يأمر فيها بأمر إلا بعد أن يستأذن أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ،
وكتب عمرو إلى الخليفة عمر في شأن ذلك ، فجاءه كتاب الخليفة
يقول : وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ،
ففي كتاب الله ما يغنى عنها ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا
حاجة إليها ... تقول الرواية ، فأخذ عمرو يوزع كتب المكتبة على

حامات الاسكندرية لتحرق في مواقدھا ۱۱

«وحنا الأجرومی» هذا هو بعينه «حنا فلپونس» John Philoponus الذي عاش في حكم جستنيان (٥٢٧/٥٦٤) وكتب مقالات عدة هاجم فيها رجال الدين المسيحيين — والمرجح أنه لم يكن على قيد الحياة عند فتح العرب للاسكندرية عام ٦٤٢م، ولو كان حيا حينذاك لتيف عمره على مائة وأربعين سنة (١)

ذكر «پلوتارخ» ونفر من المؤرخين الذين أتوا من بعده أن حريق «البروكيوم» سنة ٤٨ ق.م أصاب المكتبة الملحقة بالمتحف الاسكندري، وقضى على ما يقرب من أربعمئة ألف مجلد. ولايحتمل أن يكون «سترابون» قد سكت عن حادث كبير كهذا، بل الأقرب إلى العقل أن يكون المؤرخ الكبير قد ذكر الحادث في بعض تاريخه المفقود، لأن الرواية تواترت على ذكره، ولم يعد حريق «البروكيوم»، واحتراق المكتبة التي كانت به أمراً يقبل الشك. على أن المعروف أن «مارك أنطوان» عرض المدينة عن الخسارة الفادحة التي حلت بها بأهدائها كتب مكتبة «برجاموس» كلها أو جلها، أما المكان الذي أودعت فيه هذه الكتب المهداة فحل خلاف بين المؤرخين، فالبعض يرى أنها أودعت في مكان ما بالقصور الملكية حتى تم تشييد معبد «القيصريون»، ومهما يكن من الأمر، فقد كان في هذه الهبة خير العروض عما فقدته مكتبة المتحف،

(١) راجع ترجمة حنا فلپونس في الفصل الرابع من القسم الثالث

وظلت كتب هذه المكتبة مرجع العلماء والمتعلمين على طول العهد الروماني. على أن الصراع العنيف الذي مر بنا ذكره بين المسيحيين والوثنيين، والذي قضى على كل الآثار الوثنية تقريباً مع خواتيم القرن الرابع الميلادي بتدمير « السرايوم »، لا بد أن يكون قد قضى على ما كان في المدينة من آثار الوثنية وأخصها الكتب، سواء كان أيداعها في المتحف أم في « القيصريون »، أم في « السرييوم ». على أنه لو كان أيداع هذه الكتب في المتحف أو قريباً منه، فما لا شك فيه أن « أورليان » في اتحادة ثورة الاسكندرية عام ٢٧٣ م، قد قضى عليها في مكانها، وإن كان قد نجا من هذه الكتب شيء. نقل إلى السرايوم، فلم يتقضى القرن الرابع الميلادي حتى كانت كتب الوثنيين قد زالت من الوجود، إما بسبب هدم معبد القيصريون عام ٣٦٦ للبلاد، أو تدمير السرايوم عام ٣٩١ م وانطفاء جذوة العلم فيه بسبب زوال هذه الثروة القيمة.

ويذكر « أفثونيوس » Aphthonius، وهو من عاصروا تدمير السرايوم أن مكتبة كبرى كانت وثيقة الاتصال بأبنته، ولا بد أن يكون التخريب التام الذي نال المعبد قد قضى على هذه المكتبة فيما قضى، وإن كانت مخازن الكتب قد بقي بعضها إلى أوائل القرن الخامس الميلادي، (على ما يقرر المؤرخ « أوروسيوس » Orosios)، فقد كانت خالية من الكتب — وعلى هذا يصعب أن يعتقد الإنسان أنه قد بقيت بالاسكندرية مكتبة عامة؛ والحق أنه لم يكن بالمدينة عند فتح العرب لها عام ٦٤٢ للبلاد غير بعض المكتبات الخاصة بملكها

نفر من محي العلم من أمثال العالم « كرماس » الذى كان يعير من كتبه فى كثير من الرغبة فى الافادة ، ومكتبة مطران « آمد » وهو من كبار علماء السريان فى مصر ، ومكتبات الاديرة والكنائس ، وكانت كتبها فى الغالب مسيحية .

وهكذا يتأكد القول بعدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية ، يمكن أن يضع العرب عليها أيديهم عند الفتح (١) .

° ° °

وفىما إلى اجمال رأى الدكتور « بطر » فى شأن هذه المكتبة — يقول فى آخر الفصل الذى عقده لهذا الغرض فى كتابه « معرباً بقلم الأستاذ محمد فريد أبى حديد :

١ — أن قصة احراق العرب للمكتبة العامة لم تظهر إلا بعد نصف وخمسةائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها القصة .

٢ — أننا أخصنا القصة وحللتها ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

٣ — أن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها وهو (حنا الاجروى) مات قبل غزوة العرب بزمان طويل .

٤ — أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الاولى مكتبة المتحف ، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه « قيصر » ٤٨ ق.م — وأن لم تلتف عند ذلك ، كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن أربعائة عام قبل الفتح (٢) — وأما الثانية وهى مكتبة « السرايوم » فاما

(١) راجع الفصل الأول من الباب الخامس « نهاية الجامعة »

(٢) « نورات المسيحيين على الوثنيين »

أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ الميلاد وقت ثورة ثيوفيلوس،
وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت — فتكون على
أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن من الزمان.
٥ — أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون
شيئاً عن وجود مكتبة عامة، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع.

٦ — أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد فيرس،
صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية، اسكان من المؤكد أن تنقل
هذه الكتب إلى خارج الاسكندرية، وقد أصبح ذلك في شرط الصلح
الذى كان يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة، بين عقد الصلح
ودخول العرب المدينة، وقدر ذلك بأحد عشر شهراً.

٧ — لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت، أو لو كان العرب قد
ألفروها حقيقة، لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب
العهد من الفتح هو حنا النقيوسي (١)، ولما مر على ذلك بغير أن
يكتب حرفاً عنه.

• • •

ولا يمكن أن يبق شك في الأمر بعد ذلك فإن الأدلة قاطعة،
وهي تبرر ما ذهب إليه رينودو، من الشك في قصة أبي الفرج،
وما ذهب إليه جبون، من عدم تصديقها، ولا بد لنا أن نقول

(١) مؤرخ قبطى مصرى كتب تاريخاً فيها لحراوات عصره باللغة القبطية، والنسخة
الخطية للكتاب موجودة في المتحف البريطاني، نقلها الانجليز انفاقاً فيما نقلوا من كتب
(مجلة) إحدى بلاد الحبشة

أن رواية أبي الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة
ليس لها أساس من التاريخ .

• • •

وفيما يلي اجمال لرأى شارل ديبل Ch. Diehl الأستاذ بالسربون ،
في كتاب « تاريخ الأمة المصرية » ، لمانوتو .

١ — لم يذكر حنا النقيبوسى الذى يكاد يكون معاصراً للفتح
العربى والذى كان رجلاً عالماً شيئاً عن حريق المكتبة .

٢ — اختفت المكتبة التى كانت تخر المتحف منذ أمد بعيد قبل
الفتح العربى بشهادة بلوتارخ وستكاودايون كاسيوس و « أمين مرسلين »
و « أوروز » ، فى الحريق الذى صحب ثورة الاسكندريين على قيصر .
٣ — أما تلك المكتبة الشهيرة التى أسست بعد سنوات فى
بعض جهات « السرايوم » ، فقد اختفت على الأرجح سنة ٢٩١ بعد
الميلاد حينما خربه المسيحيون فى ثورتهم على الوثنيين — أو اغتصبت
ونفقت كتبها أيدي سبأ .

٤ — لم يذكر واحد من كتاب القرن الخامس الذين زاروا
الاسكندرية ، ولا سيما « حنا » سكوس ، الذى كان مشغولاً بالمسائل
الفكرية شيئاً عن وجود مكتبة كبرى فى الاسكندرية .

• • •

وأنت ترى أنه لا يكاد يختلف « ديبل » عن « بطر » فى رأى ،
وبهذه التدليلات القاطعة انتفت تلك التهمة التى كان « ابن القفطى »
أول من ذكرها ، والى روجها « أبو الفرج بن العبرى » المؤرخ اليهودى .

الفصل الرابع

أشهر الأعلام

كاليماخوس العالم بالمكتبات — أنطيس أبر الهنسة — مانيثون المؤرخ —
 تيوكريس الشاعر — أراتوسيف وأرسناركاس — كلوديوس بطليموس الجغرافى —
 ديومانيس عالم الجبر — نيون وهياشيا — جالينوس الطبيب — حنا الأجرى —
 يواس الأجايطلى .

كليماخوس^(١)

امتازت المدرسة الأدبية بأنها ناقلة في مجموعها ، معلقة على هذا
 النقل ، ناقدة له ومصنفة في الوقت نفسه أنواعاً من التصانيف كانت
 بدء العناية بالعلوم اللغوية — ولولم يكن للاسكندرية غير هذا الفضل لكفى .
 وأكثر الأسماء تداولاً في مضمار الأدب الاسكندري كاليماخوس
 الأديب الشاعر ، وهو كبير الأثر في الحركة الأدبية في الاسكندرية ،
 عهد له بطليموس الاول أمر ترتيب مكتبة المتحف ، وبفضله غدت
 المكتبة بنظامها الدقيق تقدم أعظم التسهيلات لاساتذة جامعة
 الاسكندرية وطلابها .

وهو أول أمناء المكتبات في الشرق في نظر البعض ، وضع
 فهرسين لمكتبة المتحف الاسكندري ، أحدهما بأسماء المؤلفين ، والآخر
 بأسماء الموضوعات .

(١) Callimachus ٣٢٢/٢٨٥ قبل الميلاد

وهو أول من فكر في تقسيم الملفات البردية إلى أجزاء . ومن هنا كان تقسيم الأشعار الهومرية وتاريخ هيردوت وغير هذين من الآثار الأدبية القديمة إلى أجزاء أو مجلدات .

وبفضل هذا الترتيب أصبح لمكتبة الاسكندرية مركز ممتاز في عالم التصنيف والبحث ، وغدت المرجع الوحيد الذي اعتمد عليه الناقلون ، وأصبح العالم كله لا يثق إلا في مخطوطات الاسكندرية . وعن مخطوطات المكتبة الاولى التي نظمها كليماخوس والمكتبة التي كانت في السرايوم ، نقلت جميع النسخ الخطية وملفات البردى التي لم تعصف بها أحداث الزمن إلى المكتبات الأوروبية المختلفة . وبطريق هذا النقل شاعت في أوروبا آثار هومر وزيغنون وأرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وأقليدس وأفلوطين وغيرهم من العلماء والفلاسفة والأدباء من الأماقية والاسكندريين .

إقليدس^(١)

امتازت جهود الاسكندرية بأنها كانت في مجموعها جهوداً أدبية ، غير أنه لم يكن هناك غير حاجز رقيق يفصل الأدب عن العلم ، وكثيراً ما كان يتلاشى ذلك الحاجز ، فلا يكاد الانسان يفرق بين ما هو أدب وما هو علم — ولا بين أديب وعالم ، إذ كان إنتاج الفكر اليوناني الأول ، كلا ، متصلاً يصعب أن يفصله الانسان إلى شعاب ، ففي تلك الحقبة السحيقة امتزج الأدب بالعلم امتزجاً

(١) Euclid ٣٠٦/٣٨٣ قبل الميلاد

شديداً — فكان الاديب عالماً والعالم أديباً والطبيب شاعراً وناقداً
للآدب في وقت واحد ، وهكذا كانت المعلومات الانسانية كما وواحداً
لا سبيل إلى تفصيله ، ولكنه كان هناك من العلماء رغم ذلك من عكف
على ناحية واحدة من نواحي العلم وأمعن في مباحثها إمعاناً كإقليدس .
ويختلط اسم إقليدس الاسكندري باسم إقليدس الفيلسوف
الميغاري . وإقليدس الميغاري هذا معاصر لافلاطون ، أما إقليدس
الاسكندري فقد جاء متأخراً عنه بزمان . ويحتمل أن يكون قد تلقى
علومه الرياضية في أثينا ، ثم رحل إلى الاسكندرية ، وأسس بها
مدرسة رياضية في عصر بطليموس سوتر ، (٢٨٣/٣٠٥ ق.م) ؛
وفي شخصيته تتمثل أقوى نزعة علمية رياضية عرفت عن الاسكندرية ،
وهو يلقب بأبي الهندسة . تتلذذ عليه العاهل بطليموس الذي يحكى
عنه أنه سأل مرة أستاذه إقليدس عما إذا كان هناك طريق مختصر
إلى الهندسة ، فأجابه إقليدس على الفور بقوله : يا مولاي : ليس
هناك طريق ملكي إلى الهندسة .

ويروي كذلك أن تلميذاً من تلاميذه سأله يوماً عن الفائدة التي
يخفيها الانسان من دراسة الهندسة ، فما كان من إقليدس إلا أن
استدعى رفيقاً له وأمره أن ينقد الطالب بعض النقود ، فكان ذلك
نقداً لا ذعاً وتمهماً بارعاً على سؤاله .

وذلك واضح الدلالة على أن العلم كان في الاسكندرية على يد
إقليدس علماً قصد لذاته — لا للبادة . وقد ضرب إقليدس برده على
بطليموس أول مثل على حرية الرأي الجامعي ، وأستن بذلك ستة

ما تزال مرعية في الجامعات حتى الآن .

وينسب إلى إقليدس أنه غير وجه الهندسة تغييراً تاماً وافترض لها فروضاً جديدة جعل بها الفروض القديمة بالية غير بمكنة التطبيق . وأشهر مؤلفاته « الأصول » Elements وتكون من ثلاثة عشر جزءاً ، وأهم الموضوعات التي عالجها إقليدس :

١ — محاولة عينية لتربيع الدائرة . وقد ثبت أخيراً أن هذه المحاولة غير مجدية .

٢ — هندسة الأجسام المنتظمة الخمسة (ذو الثمانية أوجه — ذو العشرين وجهاً — ذو الاثني عشر وجهاً — الهرم الثلاثي — المكعب)

٣ — طريقة « إيودوكسوس » في « الاستنفاد » (١)

٤ — الهندسة الفيثاغورية ، وهو الذي أخضعها إلى نظام البرهنة النظرية ، وكانت قبل ذلك هندسة تعتمد على القياس بآلة القياس ، لا على البرهنة النظرية التي عمادها المنطق .

٥ — هندسة القطاعات (من مباحث الهندسة الفراغية) . ويعزى إليه أنه رتب النظريات وجعل أساس صحتها البراهين النظرية المعتمدة على استخدام المنطق ، وهو أول من اعتمد في البرهنة على « البديهيات » وتعرف الهندسة التي هذبها إقليدس باسم « الهندسة الاقليدية » .

ولا تزال هندسة « إقليدس » تكون جزءاً من منهج الدراسة في المدارس الانجليزية والمدارس المصرية وغيرهما بالإضافة إلى الهندسة الفيثاغورية التي يرجع إليه فضل تهذيبها .

ولا شك أن فن البناء الذي اشتهرت به الاسكندرية استفاد كثيراً من هندسة إقليدس ، حيث لا بد أن تكون قد طبقت فيها نظرياته تطبيقاً عملياً .

مانيتون^(١)

« مانيتون ، كاهن مصرى - أغريقى ولد فى سينيئس (سمنود) من أعمال الدلتا . عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد فى عصرى بطليموس الاول و بطليموس الثانى . شغف بدراسة التاريخ المصرى القديم ودونه فى عصر بطليموس فيلادلف وبأمره . وضع لمصر تاريخاً

(١) وعلى ذكر مانيتون Manethon المؤرخ المصرى ، نذكره بروس Berosus الكاهن السكلماني الذى وضع لسكنديا تاريخاً له قيمته العلمية ، ولكنه كتاريخ مانيتون مفقود الآن . ويرجح أن يكون مانيتون قد حاكاه فى ذلك ، فوضع تاريخاً مماثلاً لمصر هو الذى نحن بصدده

ثم بوليبيوس Polybius ٢٠٣/١٢١ ق.م الذى وضع تاريخاً مفصلاً لفتوحات الرومان . وتلخص قصة هذا المؤلف فى أن واضعه دون فيه حوادث كان فيها شاهد عيان لسطوة روما وعتوانها .

ثم ديودور الصقلى الذى وضع تاريخاً للعالم يحوره تاريخ روما . ثم هيرودوت المؤرخ الأغريقى الذى يلقب بأبى التاريخ . وتاريخه خير ما كتب الأقدمون جميعاً . وقد جعل محوره تاريخ القرس والأغريق .

ولا يغوتنا أن نذكر بلوتارخ Plutarch أمير كتاب التاريخ . كتب عن الشخصيات المعاصرة له من ساسة الأغريق والرومان ورجال الحرب . ولكناياته أربعة خاصة القصد منها تعجيد أبطال (هلا) — ومؤلفه معروف فى الفرنسية باسم :

Vie des hommes illustres

بالأغريقية حافلاً بالحقائق ، مستمداً من أوثق المصادر التاريخية : من النقوش الهيروغليفية وأوراق البردى وسجلات المعابد ، وكان يقع في ثلاثة أجزاء : الأول يتناول التاريخ من بدء الخليقة حتى الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ، والثاني يتناول الفترة الواقعة بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، والثالث يتناول الفترة الواقعة فيما بين الأسرة العشرين والفتح الفارسي الثاني .

وتاريخ « مانيتون » مفقود لا أثر له الآن — إلا ما نقله عنه المؤرخ اليهودي « جوزيفس » ثم « يوزيب » بعده بزمان . وبقي ما نقل جوزيفس عن « مانيتو » الحجة التي اعتمد عليها كتاب التاريخ ، حتى عشر « شمليون » على حجر رشيد وفك طلاسم الهيروغليفية ، وأمكن بذلك استقاء التاريخ من أوثق مصادره — ألا وهي النقوش المصرية القديمة .

ثيوكريتس^(١)

من أشهر شعراء الاسكندرية « ثيوكريتس » الصقلي الأصل ، عاش في عصر بطليموس فيلادلف (٢٨٥/٢٤٧ ق.م) مقرباً منه حتى قيل أنه كان شاعر البلاط . كتب أشعاراً معظمها أغاني تصور الحياة الريفية في صقلية أبدع التصوير . وظل اسم هذا الشاعر جارياً على الألسنة نحو ألفي عام في عصور نضج فيها معين الأدب بعد سقوط الاسكندرية في قبضة الرومان .

(١) Theocritus ٢٨٥/٢٤٧ قبل الميلاد

والأدب الإسكندري المعروف لنا بعضه من نتاج الاسكندرية
الحال، وبعضه من نتاج عقول انتجتها الاسكندرية وكتبت فيها بوحى
الطبيعة الأجنبية — ومن ثم لم يكن غريباً أن يكتب شاعر اسكندري
الموطن شعراً عن أرض «هلاء» ببلاد اليونان، أو أن يتصوره اليأذة
جديدة، أو يصف روائى صقلية ووهادها ومنحدراتها ومروجها
النضرة، كما فعل «ثيوكرينس» .

والواقع أن البحر الأبيض برمته كان موضوع العناية، فقد كان
من الوجهة السياسية مطمح سياسة الاسكندرية الأكبر، وظلت الرغبة في
السيادة عليه سبب التنارع بين ملوك اليونان وملوك مصر من البطالمة منها،
ومن الوجهة العلمية كان العلماء لا يؤثرون بعض جهاته على بعضها الآخر،
فكثيراً ما نتجعوا جزيرة ساموس، وجزائر أيونيا، وجزيرة رودس
وجزيرة صقلية، وكان لهم في هدها جميعاً وانعزالها انتاج علمى وأدبى
فاتق نسب إلى أثينا وقت سيطرتها، وإلى الاسكندرية في عهد تقدمها
السياسى والعلمى .

وأغلب الظن أن فروعاً تتبع جامعة الاسكندرية كانت منتشرة
في بعض جهات البحر الأبيض، على النحو الذى نعرفه في أوروبا الآن
من تبعية كلية «أكستر» Exeter في جنوب غرب إنجلترا للجامعة لندن،
في العاصمة البريطانية .

إراتوستينز^(١)

ولد « إراتوستينز » في إقليم برقة عام ١٧٦ قبل الميلاد ، وتتلذ على « كاليماخوس » ، ودرس الفلسفة على أعلامها في أثينا . استدعاه بطليموس الثالث ليكون أميناً للمكتبة ، وكانت أمانة المكتبة توكل عادة إلى ألمع شخصيات العصر .

وكان « أراتو » ، صديقاً للعلم على حد تسميته لنفسه . بلغ من سعة معارفه وعلو مداركه أن عرف باسم « أفلاطون الثاني » بسبب شدة اعتناقه لأراء أفلاطون ودفاعه عنها .

ألف في الفلسفة وعلوم اللغة والهندسة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك ، وله في التاريخ كتاب مفقود عن الاسكندر الأكبر وتعليقات على تاريخ مانيون .

وأبرز أعماله الباقيات قياسه لمحيط الأرض بطريقة الفلكية المعروفة ، فقد رصد الزاوية المحصورة بين الشمس وهي عمودية على الجندل الأول عند « سين » (أسوان) والاسكندرية ، فوجدها $7\frac{1}{2}^{\circ}$. ثم قاس المسافة الواقعة بين « سين » والاسكندرية فوجدها ٥٠٠ (ميل) تقريباً ، فإذا كانت كل $7\frac{1}{2}^{\circ}$ من المحيط تعادل ٥٠٠ (ميل) ، فإن المحيط كله يعادل ٢٥٠٠٠ من الأميال — وعلى هذا التقدير يكون قطر الأرض ٧٨٥٠ (ميلا) ، وهو حساب لا يختلف عن الواقع إلا في حوالى ٥٠ ميلا . ويعتبر إراتوستينز بحق مؤسس المذهب العلمي في الجغرافية .

(١) Eratosthenes ٢٧٦/١٩٦ قبل الميلاد

و اراتوستينز، أول من وضع مصوراً علمياً ذا خطوط الطول وخطوط العرض يشمل العالم المعروف حينذاك (أوروبا وأفريقية وآسيا) ، ويمتاز مصوره بوضوح الاجزاء المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط وضوحاً تاماً .

وتعتمد جغرافية اراتوستينز، على حقائق اعتبرها الجغرافيون المحدثون صحيحة في جملتها ، وقرروا أنها أقرب إلى العلم الصحيح من المعلومات التي وضعها سابقوه .

هباركاس^(١)

عنى البطلمة بالفلك عنايتهم بالرياضيات ، وبنوا المراصد من أجل ذلك في الاسكندرية وكانوب (أبى قير) .

والغالب أن تكون هذه المراصد الفلكية قد حققت لهم بعض المشاهدات الفلكية الهامة : ويرجح أن تكون عناية البطلمة بالفلك قد بدأت منذ اهتم به العالم اراتوستينز ، ومنذ بذل محاولته الأولى لقياس محيط الأرض بطريقته المعروفة (٢) .

ويذكر اسم « هباركاس » في رأس المشتغلين بالفلك البحث . قضى حياته الأولى في جزيرة « ساموس » ثم رحل إلى الاسكندرية ، وأهم أبحاثه نظريته في النظام الشمسي التي قرر فيها لأول مرة في التاريخ أن الأرض والكواكب تدور حول « الشمس » . ولم يصدق قوله

(١) Hipparchus ١٦٦/١٢٧ ق.م

(٢) راجع « اراتوستينز »

أحد من فلكيي العصر الهليني والعصور التالية ، وظل مناقضوه في الرأي على خطتهم يعتقدون أن « الأرض » هي المركز الذي تدور حوله الشمس والكواكب الأخرى . وقد أثبت « كوبرنيك » البولندي صواب رأيه في ذلك — ولهذا يعتبر « هباركاس » المبتدع الأول لنظرية « النظام الشمسي » Solar System التي تقرر أن « الشمس » هي المركز وأن الكواكب تدور حولها .

كلوديوس بطليموس^(١)

ولد « كلوديوس بطليموس » في بلوزيوم (الفرما) ، فهو مصري المولد والحياة .

جاء بطليموس متأخراً في القرن الثالث الميلادي ، فلخص كل ما كتب سابقوه ، واعتبر في العصر الروماني الحجة في كل ما عرف من علمي الفلك والجغرافيا .

ووقع بطليموس في الخطأ الذي وقع فيه كثيرون غيره وبقي شائعاً قروناً عديدة . ألا وهو الاعتقاد بدوران الشمس حول الأرض . ورغم ما وقع فيه من خطأ جسم في هذه الناحية . فقد ظل رأى بطليموس متداولاً في القرون الوسطى ، وعرفت نظريته الحاكمة هذه باسم « النظرية البطليموسية » في النظام الشمسي .

وقد فطن إلى خطأ نظرية بطليموس « كوبرنيك » البولندي ،

(١) Claudius Ptolemy عاش بالأسكندرية في القرن الثالث الميلادي .

وشاد كوبرنيق بفكرة الفلكي الاسكندري المتواضع وارساركاس ،
الذي وصل مبكراً إلى الحقيقة في أمر دوران الأرض حول الشمس
دون أن يعترف له بالفضل أحد .

وتدهور الفلك البحث بعد بطليموس تدهوراً عظيماً واختلط
بالتنجيم ؛ ووضع بطليموس قبل وفاته كتاباً عن « التنجيم البالي » ،
يدل على أنه لم ينبج من التأثير بروح العصر التي غلبت عليها الخرافة ،
وكادت الروح العلمية البحتة على عهده تلتأني من العالم حين دقت
نواقيس الظلام ، وأسلم العلم زمناً نهائياً للجهالة التي خيمت على
العالم في عصور الصراع بين الوثنية والمسيحية . وهو معتمد في
كثير من آرائه على الفلكي القديم « هباركاس » الذي اشتغل
بالفلك في الاسكندرية في عصر بطليموس الرابع . واعتماده كذلك
معروف على « مارينوس الصوري » ، الفلكي السوري الشهير .

وأشهر مؤلفاته « المجسطى » . وهو عمل على جغرافي جليل ،
شغل ثلاثة عشر مجلداً ، وفيه يقرر بطليموس نظامه الشمسي
المعروف ، ويقسم العالم السماوي إلى أبراج يستقر في كل منها عدد
من الأجرام السماوية .

ولبطليموس خريطة للعالم من نوع خريطة « اراتوسثينز » ، تمتاز
بكثير من الدقة واستفاضة المعلومات .

وكانت « كانوب » مسرح أعماله الفلكية ، وكان له بها مرصد
خاص . ولم تقتصر جهود بطليموس على الفلك والجغرافية ، فله جهود
مشكورة في الرياضيات وعلى الأخص حساب المثلثات . كما له مصنفات

في الموسيقى والفلسفة والتاريخ العام .

وترجم كتابه « المجسطى » Almagest إلى الفارسية والعبرية واللاتينية . وأقدم ترجمة له هي اللاتينية التي أمر بها « الفونس » ملك قشتالة ، وهي ترجمة مقرونة بالأصل العربي . وفي عصر « أبي جعفر المنصور » ترجم « المجسطى » إلى العربية ، ولكن بما يؤسف له أن الترجمة العربية ليست موجودة في أية مكتبة من مكتبات الغرب أو الشرق . والمجسطى يحسب « زيجاً » زمنياً وحساباً لحركات الشمس والقمر وجداول بأسماء النجوم الشمالية وحركات الكواكب ، وطريقته علمية منظمة ، وأراؤه قيمة ، وظلت كتابات بطليموس العماد الذي اعتمد عليه جغرافيو العصور الوسطى .

ديوفانتس^(١)

ديوفانتس ، واضع علم الجبر . أما يوناني أو مصري — والذين يميلون إلى جعله يونانياً هم أنصار الفكرة القائلة بأن نشأة علم الجبر يونانية ، والذين يلحون في جعله اسكندرياً عاش في القرن الثالث أو في القرن الخامس الميلادي ، يريدون بذلك نسبة هذا الفضل العلمي إلى الاسكندرية . وهؤلاء يؤكدون أن نشأة علم الجبر « اسكندرية » لا يونانية .

وعلى يد « ديوفانتس » بدأ الجبر يتبوأ مكانة سامية بين فروع الرياضيات . يقال انه وضع كتاباً في علم « العدد » يتكون من ثلاث

عشرة مقالة ، وصل اليها منها ست وبضع مقالة . وهذا المؤلف يعتبر أساساً متيناً لتطور علم الجبر ، وهو خليط بين الجبر الصرف وبقية الفروع الرياضية .

ويميل مؤرخو الرياضة إلى الاعتقاد بأن ما كتب «ديوفانتس» كان معروفاً من قبل ، والحق أنه يصعب أن يصل الانسان إلى شيء قاطع في أمر «ديوفانتس» — غير أن الشائع المعروف عنه أنه الواضع لعلم الجبر ، أو أنه على أقل تقدير أول من جعل أولياته علماً منظماً يتخذ لنفسه مكانة محترمة بين شعب الرياضة .

والشائع أن علم الجبر لم يتقدم خطوة عما تركه عليه «ديوفانتس» حتى أدركته النهضة الاوربية . فنقلت ما خلف «ديوفانتس» في هذا العلم ، وأضافت اليه أبحاثاً جديدة — وقد عثر على كتابه بمكتبة «القائكان» في القرن السادس عشر مكتوباً باليونانية .

ثيون وهيباشيا^(١)

«ثيون» فيلسوف رياضي أدرك القرنين الرابع والخامس الميلاديين فعاش بينهما مشغلاً بمباحث الرياضة ، ولا سيما الهندسة والفلك والجبر .

وتقترن جهود «ثيون» عادة بجهود ابنه الفيلسوفة النابغة «هيباشيا» التي ولدت بالاسكندرية ، ونشأت نشأة أبيها العلمية ، وعاونته كثيراً في بحوثه الرياضية ، وترعمت المدرسة الفلاسفية الوثنية

Theon, Hypatia (١)

المعروفة باسم الأفلاطونية الحديثة Neo Platonism

وعلفت « هياشيا » على ما كتب ديوقانتس في الجبر ، ولكن
تعليقها هذا مفقود الآن ، كما علفت على كتاب « أبولونيوس » في
القطاعات المخروطية Conic Sections

« وهياشيا » عالمة فذة ، راحت ضحية التعصب الديني حيث
مثل بها المسيحيون في أوائل القرن الخامس الميلادي أبشع تشييل
حين قتلوها وهي تدافع عن عقيدتها .

وموضوع جهادها ومقتلها يكون قصة رائعة للكاتب الانجليزي
الاشهر « نشارلز كنجزلى » Charles Kingsley عنوانها Hypatia
هذا وقد عرفت مبادئ « التحليل الجبري » إلى حد ما على يد
« ثيون » وابنته « هياشيا » — وكان القدماء لا يعرفونه ، وإن كانوا
قد عرفوا « التحليل الهندسي » على وجه التأكيد .

وفي مأساة هياشيا يتمثل الصراع بين الوثنية والمسيحية بأجلى
مظاهر القسوة المعروفة عن ذلك العصر المضطرب ، كما يتمثل في شخصها
الجمع بين الفلسفة بمباحثها المختلفة والاشتغال بالعلوم الرياضية .

جالينوس الطبيب^(١)

يمثل « جالين » أو جالينوس الطبيب البرجائي الأصل آخر
عهد الاسكندرية بالروح العلمية في الطب . وهو صاحب المقالات
الستة عشر الشهيرة في المباحث الطبية . وهو أستاذ الاواخر

(١) Claud Galien المولود في برجاموس ، والتوفى سنة ٢٠٥ م

من علماء الطب الاسكندري — له من المؤلفات الطبية كثير ،
 لكن علماء المدرسة الطبية المتأخرة في الاسكندرية ، الذين أدركهم
 الفتح العربي ، كانوا قد اختاروا من بين مقالاته ست عشرة مقالة
 ترجموها وجعلوها برنامج الدراسة الطبية في المدينة . وعلى مر الزمن
 شاعت هذه المقالات وأختصرت وأختلطت بالتنجيم ، وأدرك
 العرب الاسكندرية وهي على هذه الحال ، فانتقل منها الطب إلى
 الشرق الأدنى مختلطاً بالشوائب التي طامسها نسبت ظلاً إلى العقل
 العربي — نسب المتعصبون اليه ميلاً إلى التنجيم والشعوذة مرجعه
 في الحقيقة جهود الاسكندرية آخر عهدها بالحياة العلمية الصحيحة .
 وجالينوس الاسكندري أستاذ الاساتذة في الطب ، ولا يقل
 أثره فيه عن أثر أبقراط ، اليوناني — ومن مجموع تعاليمهما معاً
 تكونت برامج الدراسة في مدارس الاسكندرية الطبية — وتأثرت
 هذه التعاليم بروح الجهالة أحياناً ، وفقدت قيمتها وشاعت ، واقتصرت
 في العصور المتأخرة على رموس موضوعات كان لابد لدارس
 الطب من الاطلاع بها والاجتهاد على أساسها . ويعزى إلى هذا النقص
 الذي أعتور الحركة الطبية حين بلغت هذا الدرك ، اجتهاد الاسكندريين
 وانصرافهم إلى الابتكار في الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية ،
 ومن ثم كان ازدهار المدرسة الطبية النسبي في الاسكندرية عند الفتح
 العربي وقبله بزمان ر

بظار هذه المسألة إلى كذب رواية أبي الفرج التي أوردها في كتابه «نظم الجواهر»، وهي الرواية التي لا تعتمد على سند معلوم من التاريخ في اتهام العرب باحراق مكتبة الاسكندرية.

وحنا فليونس هذا من أفاض علماء الاسكندرية، ومن المشتغلين فيها بالفلسفة والطب ومن محبي القراءة والاطلاع في عصر من أشد عصور الاسكندرية غموضاً من الناحية العلمية هو القرن السادس الميلادي.

ولحنا فليونس تعليقات على تدريس علم المنطق وعلى فلسفة أرسطو. وكان من شيوخ اليعاقبة المنتفضين على الكنيسة الرسمية. وجد فيه اليعاقبيون زعياً لهم، وكان من المنتظر أن يأخذوا بتعاليمه في المنطق، ولكنهم بالاشتراك مع الفساطرة آثروا مختصر فورفيروس الصوري المعروف باسم «إيساغوجي» واتخذوه مدخلا لهذا العلم.

وله تصانيف في قواعد اللغة الاغريقية والعلوم الرياضية، ومن المحتمل أنه كان أستاذاً يدرس في الجامعة، ما لبث تحوله من

== كتاباً دافع فيه عن فكرة الطليمة الواحدة للمسيح عام ٤٥١ للميلاد (تحقيق مارغروب في عجالة: نهاية مدرسة الاسكندرية)

— وإذا كان فليونس قد اشتغل بوضع أول تعليق له على أرسطو عام ٤١٧ م، فإنه كان لا بد يبلغ من العمر إذ ذاك عشرين عاماً على أقل تقدير. وعلى هذا الاعتبار يكون قد ولد عام ٤٩٧ م، فليس معقولا إذن أن يكون قد عاش حتى أدرك الفتح العربي عام ٦٤٢ م، إذ لو عاش حتى ذلك العهد، لبُعث عمره ١٤٥ سنة ١١

الوثنية إلى المسيحية ووضعه كتاباً هاماً ضد التعاليم الوثنية أن أكسياء مكانة ممتازة . ومؤلفه : خلود العالم : Sur L'Éternité du Monde : حرب شعواء شنها على فلاسفة الافلاطونية الحديثة . وله مؤلف دافع فيه دفاعاً مجيداً عن المسيحية ، وكان في كل ما كتب يتبع أسلوب أرسطو في الاقتناع ، وهو من أوائل من أخضعوا الدين للقوانين المنطقية إخضاعاً صارماً . ومن بعده لعب المنطق دوراً هاماً بين اليهود والعرب المسلمين والمسيحيين اللاتينيين في العصور الوسطى . وقد دافع فليونس عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح Monophysism دفاعاً مجيداً . وهو يعتبر بحق أصدق ممثل للحركة العلمية في الاسكندرية في القرن السادس الميلادي — وآخر رجالها .

بولس الاجانيطي^(١)

أدرك العرب الاسكندرية وبولس الاجانيطي يدرس بها تعاليم جالينوس وأبقراط في الطب على شكل متون لا سبيل إلى التحوير فيها — كأنما هي منهاج من السماء !

وبولس الاجانيطي هذا أستاذ العرب والسريان في الطب ، وبفضله ذاعت تعاليم جالينوس . من الاسكندرية آخر عهدها بالدراسة الطبية ، وكونت نواة المدارس الطبية في انطاكية وحران وجنديسابور وغيرها من مراكز العلم في الشرق الأدنى عامة .

والمعروف عن الطب الاسكندري في ذلك الوقت ، رغم رواج

(١) Paul of Aeginae

دراسته على يد «بولس الأجايني» وزملائه ، أنه اختلط بالتنجيم ،
في وقت فسدت فيه مذاهب العلم اجمالا ، وتسلبت الجهود على العقول ،
وأُتيح للطلاسم والأحاجي أن تعمل عملها في تشويه الحركة العلمية
عامة — والطبية خاصة .

واسم هذا الطبيب أكثر الأسماء تداولاً فيما نقل السريان
والعرب من طب الاسكندرية . وهو معاصر للفتح العربي وآخر
يمثل للحركة العلمية الاسكندرية على الاطلاق .

ولبولس الأجايني مقالات في « فن التوليد » ، عرفها العرب
ونقلوها فيما نقلوا غداة الفتح .

وظلت كتبه إلى جانب غيرها مادة للدراسة الطبية في القرون
الوسطى ، في العربية واللاتينية على السواء .

الحمد لله في البداية والنهاية



، الميدالية ، التذكارية لإنشاء جامعة فاروق الأولى بالاسكندرية
(الصورة المبعوثة للجامعة القديمة)

فهرست الموضوعات

القسم الاول

في أمر الجامعة

صفحة

الباب الاول : الحضارة الهلنسية في الاسكندرية وتأسيس المتحف الاسكندري :	
المقدمة	١
الفصل الاول : حلم كبير يتحقق	٩
الفصل الثاني : خطة الاسكندر	١٧
الفصل الثالث : تأسيس المدينة	٢٤

الباب الثاني : الجامعة في المتحف الاسكندري :

الفصل الاول : في عصر بطليموس «سوتر»	٣٤
الفصل الثاني : في عصر بطليموس «فيلاذلف»	٥٢
الفصل الثالث : في عصر بطليموس الثالث	٦٠
الفصل الرابع : من بطليموس الرابع إلى بطليموس السابع	٦٤
الفصل الخامس : من بطليموس السابع إلى كليوباترة السادسة	٦٨

الباب الثالث : الجامعة في العصر الروماني الاول :

الفصل الاول : تمهيد	٧٧
الفصل الثاني : الجامعة في أبنية المتحف	٨٥
الفصل الثالث : الجامعة في السرايوم	٩٦

صفحة

الباب الرابع: الجامعة في العصر الروماني الثاني : ١٠٣

الباب الخامس: أخريات العلم الاسكندري :

الفصل الأول : بداية النهاية ١١١

الفصل الثاني : نهاية العلم الاسكندري ١٢٢

القسم الثاني

في النقل عن الاسكندرية وتأثر العقل العربي بعلومها :

الباب السادس: النقل عن الاسكندرية :

الفصل الأول : نقل اليعاقبة والنساطرة والسيريان ١٣٦

الفصل الثاني : في العلوم التي نقلها العرب عن الاسكندريين ١٤١

الفصل الثالث : في الاقتباس والنقل غير المباشر ١٥٢

الفصل الرابع : في تأثر العقل العربي بالاسكندرية ١٦٥

القسم الثالث

تعليقات وشروح وتراجم

الباب السابع : الفصل الأول : جامعة الاسكندرية بين قوة الانتاج وضعفه ١٨٦

الفصل الثاني : فلسفة الاسكندرية ٢٠١

الفصل الثالث : تحقيق القول في أمر المكتبة العامة ٢١٦

الفصل الرابع : أشهر الاعلام ٢٢١

استدراك ٢٤٠

المصادر وفهرست الموضوعات ٢٤١

المصادر

- (١) ابن أبي أصيبعة . . . طبقات الاطباء
- (٢) ابن خلدون . . . المقدمة
- (٣) ابن خلكان . . . وفيات الاعيان
- (٤) ابن قتيبة . . . كتاب المعارف (وستفلد ١٨٥٠ م)
- (٥) البلاذري . . . فتوح البلدان
- (٦) أبو الفرج بن العبري . . . مختصر الدول
- (٧) الشهرستاني . . . الملل والنحل
- (٨) المسعودي . . . مروج الذهب
- (٩) المقرئ . . . الخطط وكتاب المواعظ والاعتبار .
- (١٠) احمد امين وزكى نجيب محمود قصة الفلاسفة اليونانية
- (١١) احمد امين . . . بحر الاسلام وضحى الاسلام
- (١٢) اسماعيل مظهر . . . تاريخ الفكر العربي
- (١٣) حافظ عفيفي باشا . . . الانجليز في بلادهم
- (١٤) لجنة التاريخ القبطي . . . تاريخ الامة القبطية
- (١٥) سعيد بن بطريق . . . نظم الجوهر
- (١٦) محمد احمد حسين . . . مكتبة الاسكندرية في العالم القديم
- (١٧) محمد كرد علي . . . الاسلام والحضارة العربية
- (١٨) مصطفى امين . . . تاريخ العربية
- (١٩) ياقوت . . . معجم البلدان

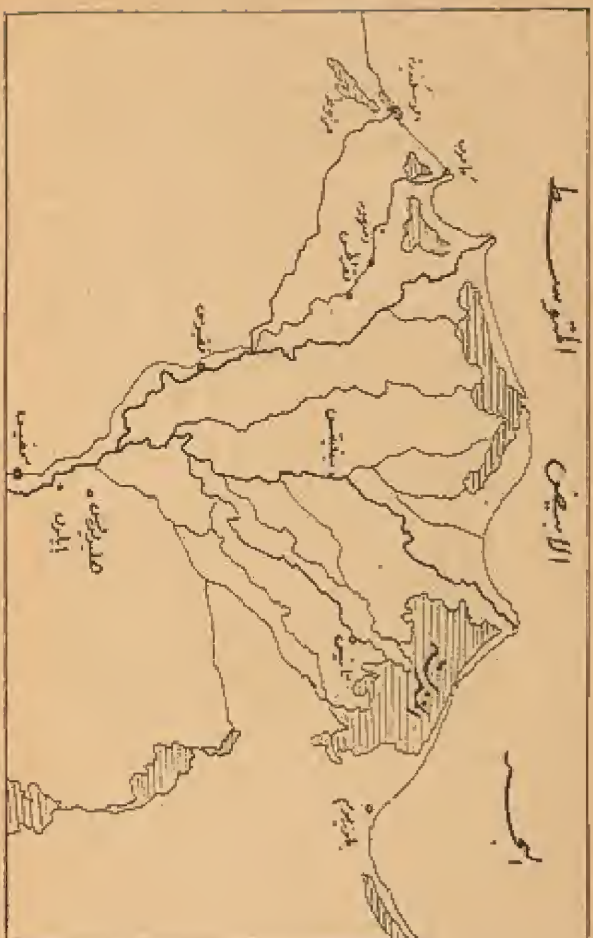
- 1) Bax (B). A Handbook to the History of Philosophy.
- 2) Bevan (Ed.). . . A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty.
- 3) Breasted Ancient Times.
- 4) * * Ancient Coptic Churches of Egypt.
- 5) Breccia A Guide to the Ancient and Modern Town of Alexandria (1922).
- 6) Bury (J B) . . . Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire.
- 7) Casanova L'Incendie de la Bibliothèque à Alexandrie, (1923).
- 8) Champolleon . . . L'Egypte sous les Pharaons.
- 9) Hammerton. . . . Concise Universal Biography.
- 10) Hanouteaux . . . Histoire de la Nation Egyptienne.
- 11) Heath History of Mathematics
- 12) Holm History of Greece.
- 13) Jondet (G) . . . Atlas Historique de la Ville d'Alexandrie, (1921).
- 14) Kilppel Uber das Alexandrinische Museum, (1828).
- 15) Mahaffy The Empire of the Ptolemies.
- 16) * Greek Life and Thought.
- 17) Maspero (G) . . . Comment Alexander devint dieu en Egypte.
- 18) Matter Essai Historique sur l'Ecole d'Alexandrie, (1820).
- 19) Mayerhoff (M) . . La Fin de l'Ecole d'Alexandrie d'apres quelques auteurs Arabes.
- 20) Milne Egypt under the Roman Rule.
- 21) Parthey Das Alexandrinische Museum, (1838).
- 22) Ritschel Die Alexandrinischen Bibliotheken, (1888).
- 23) Smith Introduction to the History of Science.
- 24) Susemihl (F) . . . Geschichte der Griechischen Litteratur in der Alexandriner Zeit, (1891).

* * *

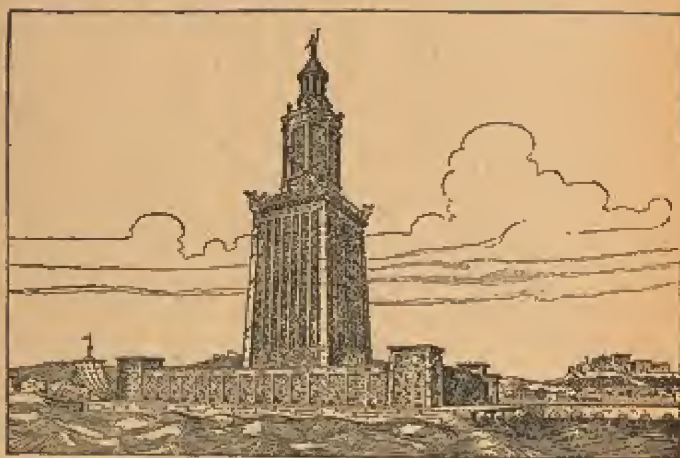
- 25) Encyclopaedia Britannica (14th Edition).
- 26) Encyclopaedia Halensis (Vol. 23).



بطليموس الاول « سوتر »
 مؤسس المتحف الاسكندري
 (٣٠٥ — ٢٨٥ ق.م)



البلدان : أشهر المدن التاريخية التي يتكرر ذكرها في الموضوع



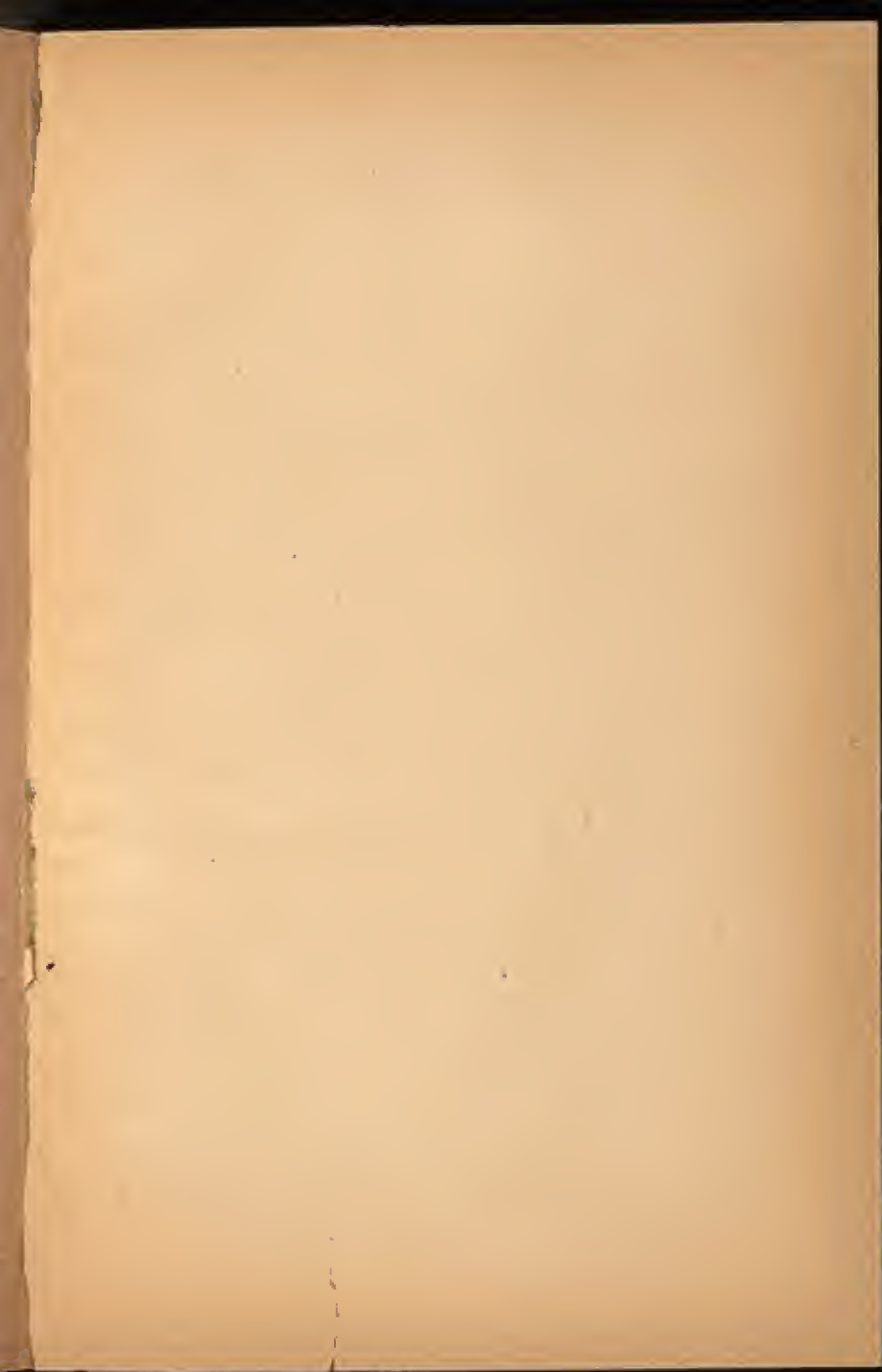
الفاروس : فئار الاسكندرية الاعظم — أسسه بطليموس فيلادلف
 في الطرف الشمالى لجزيرة فاروس حوالى ٢٨٠ ق.م قبل الميلاد ،
 وبقي قائماً فى مدخل الميناء حتى عام ١٣٢٦ للميلاد .
 (عن برستد : الأزمنة القديمة)

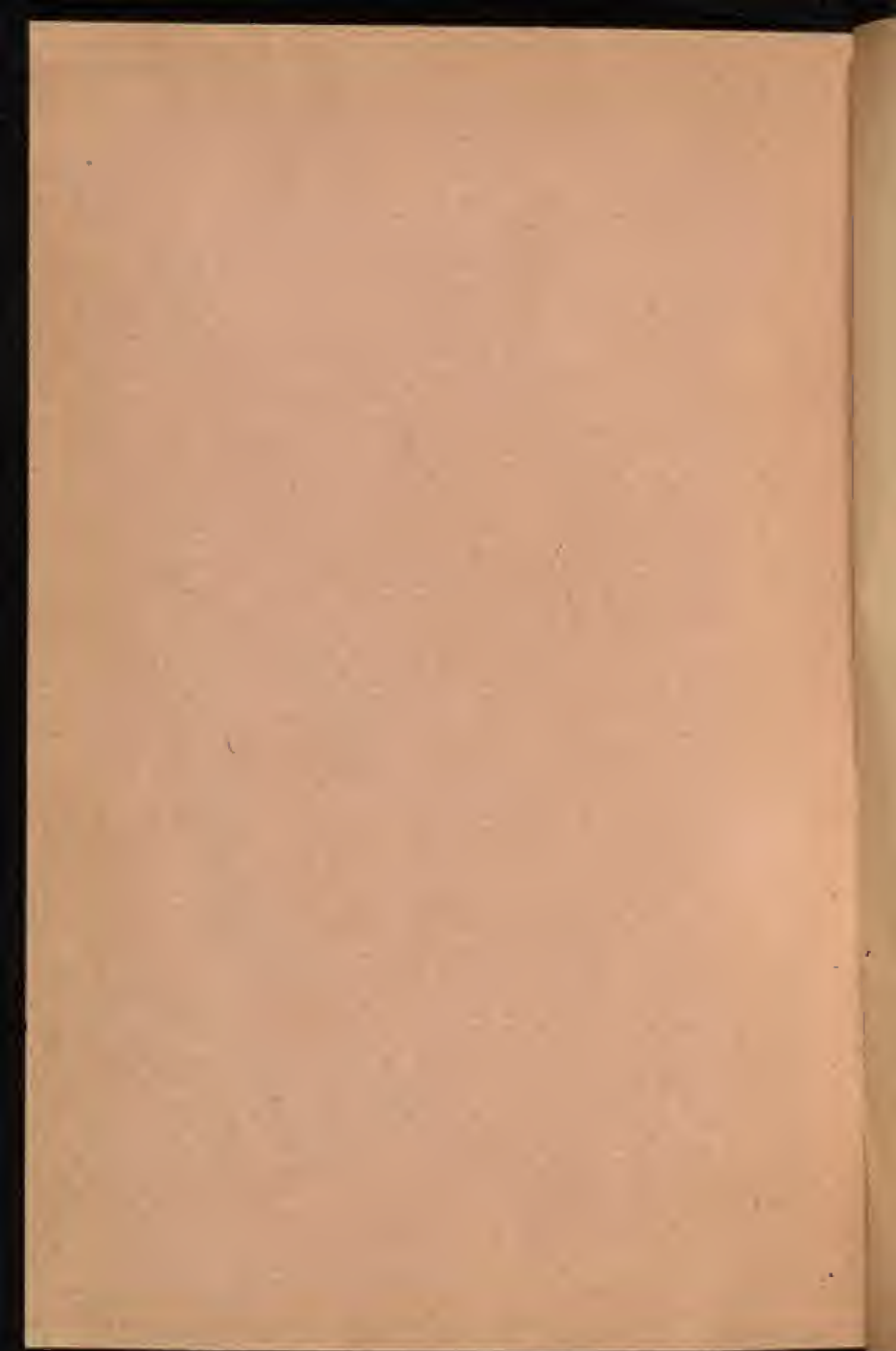
الجغرافيا القديمة

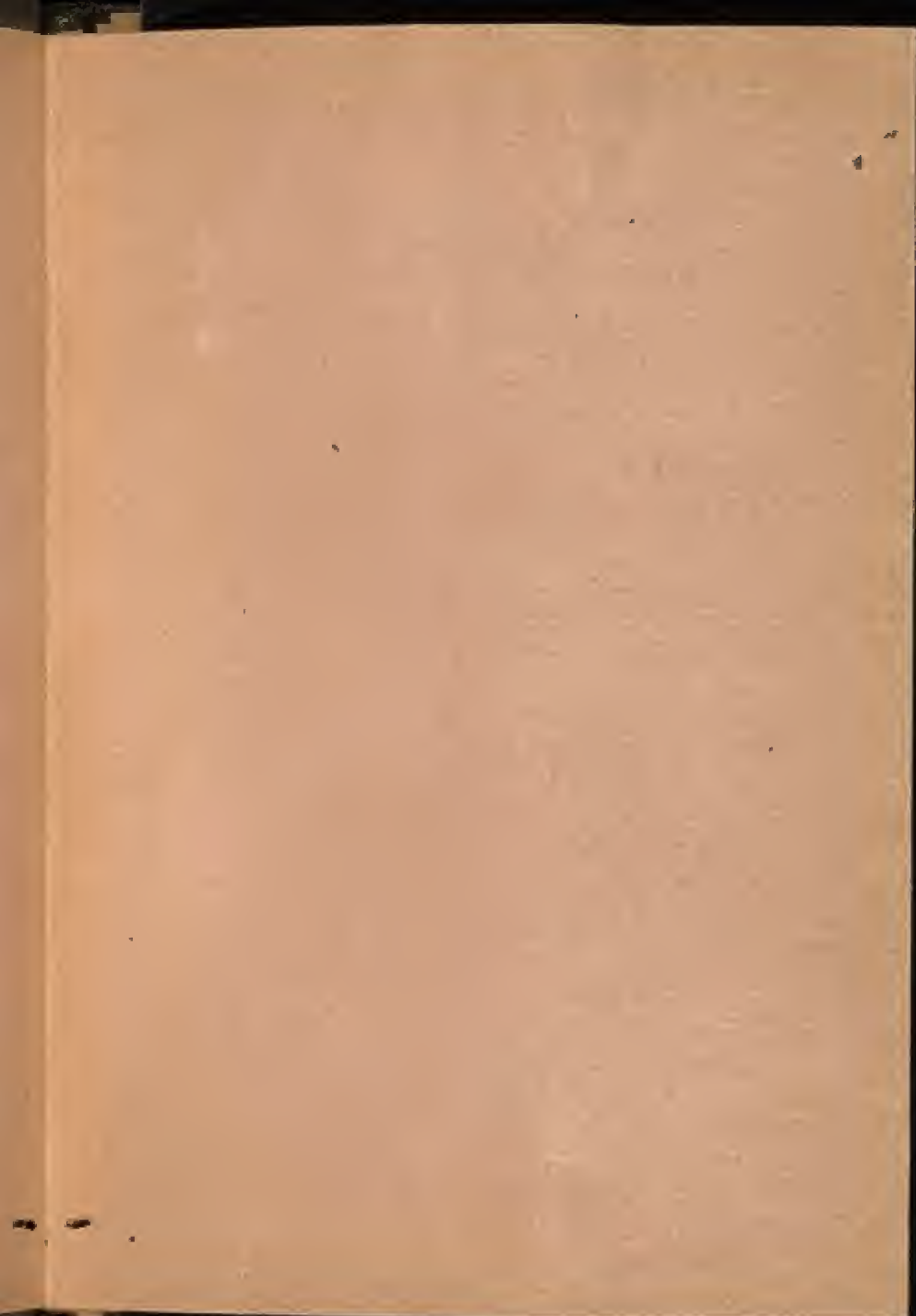


مياه الاسكندرية : أهم الأحياء وأشهر المباني العامة في المدينة القديمة

[illegible]







Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



General Library

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58892290

893.785 J95

Jamiat al-Iskandariyya